بلاد العربية الضائعة



تأليف

محمد بن ناصر العبودي

بسم الله الرحمن الرحيم

كتب مطبوعة في الرحلات للمؤلف

(١) في إفريقية الخضراء: مشاهدات وانطباعات وأحاديث عن الإسلام والمسلمين - بيروت دار الثقافة ١٣٨٨هـ/١٩٦٨م.

(٢) رحلة إلى جزر مالديف إحدى عجائب الدنيا -الرياض دار العلوم ١٤٠١هـ/١٩٨١م.

(٣) مدغشقر بلاد المسلمين الضائعين - الرياض النادي الأدبي١٤٠١هـ/ ١٩٨١م.

(٤) جولة في جزائر البحر الزنجي أو حديث عن الإسلام والمسلمين في جزر المحيط الهندي - الرياض - المطابع الأهلية للأوفست ١٤٠٢هـ ١٩٨٢م.

(٥) رحلة إلى سيلان - الرياض - جمعية الثقافة والفنون ١٤٠٣هـ/١٩٨٢م

(٦) صلة الحديث عن إفريقية مشاهدات وانطباعات وأحاديث عن الإسلام والمسلمين - نشرته دار العلوم في الرياض ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م.

(٧) مشاهدات في بلاد العنصريين، رحلة إلى جنوب إفريقية وحديث في شؤون المسلمين - نشره نادي القصيم الأدبي في بريدة ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م.

(٨) إطلالة على نهاية العالم الجنوبي - مكة المكرمة - نادي مكة الثقافي ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م.

(٩) زيارة لسلطنة بروناي الإسلامية - طبع بمطابع الرياض الأهلية للأوفست عام ١٤٠٥هـ/١٩٨٤م.

(١٠) شهر في غرب إفريقية مشاهدات وأحاديث عن المسلمين - الرياض - المطابع الأهلية ١٤٠٥هـ/١٩٨٤م.

(١١) في نيبال بلاد الجبال، رحلة وحديث في شؤون المسلمين - الرياض - مطابع الفرزدق ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م.

(١٢) رحلات في أمريكا الوسطى - المطابع الأهلية للأوفست في الرياض ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م.

(١٣) إلى أقصى الجنوب الأمريكي رحلة في الأرجنتين وتشيلي - الرياض ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م.

(١٤) على ضفاف الأمازون، رحلة في المنطقة الاستوائية من البرازيل - نشره النادي الأدبي في أبها ١٤١٠هـ/١٩٩٠م.

(١٥) على قمم جبال الأنديز - الرياض مطابع الفرزدق التجارية ١٤١٠هـ/١٩٩٠م.

(١٦) في غرب البرازيل - الرياض - مطابع الفرزدق التجارية ١٤١٢هـ/١٩٩١م.

(١٧) في بلاد المسلمين المنسيين: بخارى وما وراء النهر - طبع في مطابع الفرزدق التجارية عام ١٤١٢هـ/١٩٩١م.

(١٨) بقية الحديث عن إفريقية - مطابع الفرزدق التجارية في الرياض عام ١٤١٢هـ.

(١٩) جولة في جزائر البحر الكاريبي - مطابع الرياض الأهلية للأوفست عام ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م.

(٢٠)جولة في جزائر جنوب المحيط الهادئ - مطابع الفرزدق في الرياض عام ١٤١٠هـ/١٩٩٠م.

(٢١)داخل أسوار الصين (مجلدان) - مطابع الفرزدق التجارية - الرياض عام ١٤١٣هـ/١٩٩٢م.

(٢٢)بلاد الداغستان - طبع مطابع الفرزدق التجارية بالرياض عام ١٤١٣هـ.

(٢٣)الرحلة الروسية - مطابع الفرزدق عام ١٤١٤هـ.

(٢٤)مع المسلمين البولنديين - مطابع الفرزدق في الرياض عام ١٤١٣هـ.

(٢٥)جمهورية أذربيجان - طبع مطابع الفرزدق التجارية في الرياض عام ١٤١٣هـ/١٩٩٢م.

(٢٦)في أعماق الصين الشعبية - نشرته مجلة المنهل.

(٢٧)بين الأرغواي والبارغواي - مطابع الفرزدق التجارية في الرياض عام ١٤١٣هـ/١٩٩٢م.

(٢٨)بورما الخبر والعيان - طبع بيروت عام ١٤١٢هـ.

(٢٩)مقال عن بلاد البنغال - طبع بالرياض عام ١٤١٤هـ/١٩٩٣م.

(٣٠)ذكريات من يوغسلافيا - مطابع الفرزدق التجارية في الرياض عام ١٤١٤هـ/١٩٩٣م.

(٣١)كنت في بلغاريا - مطابع الفرزدق عام ١٤١٤هـ/١٩٩٣م.

(٣٢)في جنوب الصين – نشرته رابطة العالم الإسلامي، وطبعته بمطبعتها في مكة المكرمة عام ١٤١٤هـ.

(٣٣)كنت في ألبانيا - مطابع الفرزدق التجارية بالرياض عام ١٤١٤هـ.

(٣٤)ذكرياتي في إفريقية - محاضرة طبعتها رابطة العالم الإسلامي في مكة المكرمة.

(٣٥)أيام في النيجر - طبع بيروت عام ١٤١٤هـ.

(٣٦)على أرض القهوة البرازيلية - مطابع الفرزدق التجارية في الرياض عام ١٤١٥هـ.

(٣٧)نظرة في شرق أوربا وحالة المسلمين بعد الشيوعية - طبع بيروت عام ١٤١٤هـ.

(٣٨)بين غينيا بيساو وغينيا كوناكرى - مطابع الفرزدق التجارية عام ١٤١٤هـ.

(٣٩)من أنقولا إلى الرأس الأخضر - مطابع الفرزدق بالرياض عام ١٤١٤هـ.

(٤٠)سياحة في كشمير - مطابع الفرزدق عام ١٤١٢هـ/١٩٩٢م.

(٤١)يوميات آسيا الوسطى - مطابع الفرزدق التجارية عام ١٤١٤هـ.

(٤٢)نظرة في وسط إفريقية - مطابع الفرزدق عام ١٤١١هـ/١٩٩١م.

(٤٣)بلاد القرم - نشرته دار القبلة في جدة.

(٤٤)قصة سفر في نيجيريا (مجلدان) - مطابع الفرزدق التجارية في الرياض.

(٤٥)حديث قازاقستان - نشرته دار القبلة في جدة (تحت الطبع).

(٤٦) المسلمون في لاوس وكمبوديا: رحلة ومشاهدات ميدانية - نشرته رابطة العالم الإسلامي في سلسلة دعوة الحق، وطبعته في مطبعتها عام ١٤١٦هـ.

(٤٧) في جنوب الهند من سلسلة الرحلات الهندية - طبع في مطابع الفرزدق التجارية في الرياض عام ١٤١٧هـ.

(٤٨) رحلات في أمريكا الجنوبية: غيانا وسورينام، مطابع التقنية في الرياض عام ١٤١٩هـ.

(٤٩) إطلالة على أستراليا - طبع في مطابع التقنية للأوفست - الرياض عام ١٤١٧هـ.

(٥٠) أيام في فيتنام - نشرته دار خضر للطباعة والنشر في بيروت عام ١٤١٧هـ.

(٥١) في غرب الهند - من سلسلة الرحلات الهندية - نشرته رابطة العالم الإسلامي عام ١٤١٧هـ.

(٥٢) إطلالة على موريتانيا - نشرته دار خضر للطباعة والنشر في بيروت عام ١٤١٧هـ.

(٥٣) حديث قيرغيزستان، دراسة في ماضيها ومشاهدات ميدانية - نشرته دار خضر للطباعة والنشر في بيروت عام ١٤١٨هـ/ ١٩٩٧م.

(٥٤) زيارة رسمية لتايوان، نشر دار خضر للطباعة والنشر في بيروت عام ١٤١٨هـ/ ١٩٩٧م.

(٥٥) سطور من المنظور والمأثور عن بلاد التكرور - مطابع النرجس التجارية بالرياض عام ١٤٢٠هـ-٢٠٠٠م.

(٥٦) راجستان: بلاد الملوك من سلسلة الرحلات الهندية - مطابع الفرزدق التجارية بالرياض عام ١٤١٧هـ/ ١٩٩٧م.

(٥٧) في شرق الهند، من سلسلة الرحلات الهندية - طبع في مطابع التقنية للأوفست في الرياض عام ١٤١٩هـ.

(٥٨) العودة إلى الصين، من سلسلة الرحلات الصينية - طبع في مطابع النرجس في الرياض عام ١٤٢٠هـ.

(٥٩) في شرق البرازيل، من سلسة الرحلات البرازيلية - طبع في مطابع التقنية في الرياض، عام ١٤١٩هـ.

(٦٠) هندوراس ونيكاراقوا وكوستاريكا (من سلسلة الرحلات في جمهوريات الموز)، مطابع التقنية في الرياض، عام ١٤١٩هـ.

(٦١) من بلاد القرتشاي إلى بلاد القبرداي، من سلسلة الرحلات القوقازية - طبع في مطابع التقنية للأوفست في الرياض، عام ١٤٢٠هـ.

(٦٢) بلاد التتار والبلغار، من سلسلة رحلات الشمال - نشرته رابطة العالم الإسلامي، وطبعته بمطبعتها في مكة المكرمة عام ١٤٢٠هـ- ١٩٩٩م.

(٦٣) بلاد الشركس: الإديغي - طبع مطابع التقنية في الرياض عام ١٤٢٠هـ - ١٩٩٩م.

(٦٤) مواطن إسلامية ضائعة - مطابع التقنية في الرياض عام ١٤٢٠ هـ - ١٩٩٩م.

(٦٥)تاثه في تاهيتي - طبعته مطابع التقنية بالرياض عام ١٤٢٠هـ - ١٩٩٩م.

(٦٦)نظرة إلى الفلبين بين زيارتين: رسمية وخاصة. مطابع النرجس في الرياض عام ١٤٢٠هـ.

(٦٧)ذكريات من الاتحاد السوفييتي. مطابع النرجس بالرياض عام ١٤٢٠هـ

(٦٨)نظرة إلى الوجه الآخر من الأرض أو رحلة إلى أبعد مكان: جولات في أقصى جزر المحيط الهادئ الجنوبي. طبع في مطابع التقنية في الرياض عام ١٤٢٠هـ- ١٩٩٩م.

(٦٩)إقليما سمارا وأستراخان (من سلسلة الرحلات في جنوب روسيا)، نشرته دار خضر للطباعة والنشر في بيروت، عام ١٤٢٠هـ - ٢٠٠٠م.

(٧٠)في إندونيسيا أكبر بلاد المسلمين. طبع في مطبعة النرجس في الرياض عام ١٤٢٠هـ - ١٩٩٩م.

(٧١)قرينادا وسانتالوسيا ودومنيكا، من سلسلة الرحلات الكاريبية، مطبعة العلا في الرياض ١٤٢١هـ- ٢٠٠٠م.

(٧٢)مشاهدات في تايلند، مطابع النرجس في الرياض، عام ١٤٢١هـ.

(٧٣)مع العمل الإسلامي في القارة الأسترالية، جولة وحديث في شؤون الإسلام، مطابع النرجس في الرياض، عام ١٤٢١هـ.

(٧٤)فطاني أو جنوب تايلند، مطابع المسموعة في الرياض ١٤٢١هـ ٢٠٠٠م.

(٧٥)المستفاد من السفر إلى شاد، مطابع التقنية في الرياض ١٤٢١هـ ٢٠٠٠م.

(٧٦)في جنوب البرازيل، من سلسلة الرحلات البرازيلية، مطابع التقنية في الرياض عام ١٤٢١هـ ٢٠٠٠م.

(٧٧) شمال شرق الهند، رحلة في ولايتي بيهار وإترابراديش وحديث عن المسلمين، مطابع النرجس في الرياض ١٤٢٢هـ- ٢٠٠١م.

(٧٨) بلغاريا ومقدونيا، من سلسلة رحلات في بلاد البلقان، طبع في مطابع العلا في الرياض، عام ١٤٢٢هـ – ٢٠٠٠١م.

(٧٩) بلاد البلطيق، طبع في مطابع الجاسر في الرياض، عام ١٤٢١هـ – ٢٠٠١م.

(٨٠) بيليز والسلفادور – رحلات في جمهوريات الموز – طبع في مطابع العلا في الرياض عام ١٤٢٢هـ ٢٠٠١م.

(٨١) «العودة إلى ما وراء النهر» جولة في آسيا الوسطى، وحديث عن شؤون المسلمين، طبع في وكالة ياقوت للطباعة، الرياض، ١٤٢١هـ- ٢٠٠١م..

(٨٢) «على سقف العالم» رحلة إلى التبت، وحديث في شؤون المسلمين، نشره نادي القصيم الأدبي في بريدة عام ١٤٢٢هـ.

(٨٣) الإسلام والمسلمون في غرب إفريقية، أو بقية البقية من حديث إفريقية، طبع في مطابع النرجس في الرياض ١٤٢٢هـ – ٢٠٠١م.

(٨٤) خلف الستار العقيدي: رحلة في شرق أوروبا وحديث في أحوال المسلمين، طبع في مطبعة النرجس، عام ١٤٢٢هـ ٢٠٠٢م.

(٨٥) جنوب الشمال: بلاد السويد (من سلسلة الرحلات الأوروبية)، طبع في مطبعة العلا في الرياض، عام ١٤٢٢هـ ٢٠٠١م.

(٨٦) رحلة هونغ كونغ وما كاو، طبع في مطبعة النرجس في الرياض، عام ١٤٢٢هـ ٢٠٠٢م.

(٨٧) غايتي من السفر إلى هايتي، طبع في مطبعة النرجس في الرياض، عام

١٤٢٢هـ ٢٠٠٢م.

(٨٨) الاعتبار في السفر إلى ماليبار، الرحلات الهندية.

(٨٩) بلاد العربية الضائعة « جورجيا » وهو هذا الكتاب.

مؤلفاته المطبوعة في غير فن الرحلات

(٩٠) معجم بلاد القصيم (في ستة مجلدات) - نشرته دار اليمامة بالمطابع الأهلية للأوفست بالرياض عام ١٣٩٩هـ، ثم طبع مرة أخرى في عام ١٤١٠هـ.

(٩١) أخبار أبي العيناء اليمامي - طبع في الرياض وبيروت عام ١٣٩٨هـ.

(٩٢) الأمثال العامية في نجد (خمسة مجلدات) ساعدت دارة الملك عبد العزيز في الرياض على طبعه، ونشرته دار اليمامة للطبع والنشر عام ١٣٩٨هـ.

(٩٣) كتاب الثقلاء - نشرته الجمعية العربية السعودية للثقافة والفنون في سلسلة الكتاب السعودي.

(٩٤) نفحات من السكينة القرآنية - طبع أكثر من مرة آخرها طبعة لوزارة المعارف لتوزيعها على مكتبات المدارس - نشرته دار العلوم في الرياض عام ١٤٠٣هـ.

(٩٥) مأثورات شعبية - نشرته الجمعية العربية السعودية للثقافة والفنون في سلسلة الكتاب السعودي.

(٩٦) سوانح أدبية - طبع مطابع الفرزدق التجارية بالرياض عام ١٤٠٥هـ.

(٩٧) صور ثقيلة - مطابع الفرزدق التجارية بالرياض عام ١٤٠٥هـ.

(٩٨) العالم الإسلامي والرابطة - نشرته رابطة العالم الإسلامي، وطبع في مطبعتها عام ١٤١٤هـ.

(٩٩) نظرة إلى العلاقات العربية مع أهالي جنوب الصحراء - مطابع التقنية في بالرياض عام ١٤١٨هـ/ ١٩٩٧م.

(١٠٠) المقامات الصحراوية - مطابع التقنية في الرياض عام ١٤١٨هـ/ ١٩٩٧م.

(١٠١) مساعدات المملكة العربية السعودية للمسلمين، وبخاصة الأقليات المسلمة - بمناسبة مرور مائة عام على تأسيس المملكة العربية السعودية - نشرته لجنة الاحتفال بمرور مائة عام على التأسيس، وطبعته في مطابع الناشر العربي في الرياض ١٤١٩هـ.

(١٠٢) كلمات عربية لم تسجلها المعاجم، أحد بحوث المؤتمر الثاني للأدباء السعوديين، ونشرته جامعة أم القرى في مكة المكرمة عام ١٤٢٠هـ.

(١٠٣) المملكة العربية السعودية بين الماضي والحاضر (لمناسبة مرور مائة عام على تأسيس المملكة) - ونشرته رابطة العالم الإسلامي، وطبعته في مطابعها في مكة المكرمة.

(١٠٤) مدلولات كلمات قضى عليها حكم الملك عبد العزيز، نشرته الجمعية العربية السعودية للثقافة والفنون (لمناسبة مرور مائة عام على تأسيس المملكة العربية السعودية).

(١٠٥) رابطة العالم الإسلامي إحدى القنوات السعودية لمساعدة المسلمين - نشرته رابطة العالم الإسلامي، وطبعته في مطبعتها بمكة المكرمة عام ١٤٢٠هـ - ١٩٩٩م.

(١٠٦) الدعاة إلى الله: شرف مهمتهم، وطرق دعمهم. نشرته رابطة العالم الإسلامي، وطبعته في مطبعتها في مكة المكرمة عام ١٤٢٠هـ.

(١٠٧) واجب المسلم في بلاد الأقليات. نشرته رابطة العالم الإسلامي عام ١٤٢٠هـ - ٢٠٠٠م.

(١٠٨) العالم الإسلامي: واقع وتوقعات نشرته مجلة (العربية) التي تصدر في الرياض مصاحباً لعدد ذي الحجة ١٤٢٠هـ منها

(١٠٩) الدعوة الإسلامية وإعداد الدعاة، طبعته وكالة ياقوت للطباعة، الرياض، ١٤٢١هـ- ٢٠٠١م.

(١١٠) ((حِكَمُ العوام))، طبعت في مطابع الجاسر، الرياض، ١٤٢١هـ- ٢٠٠١م.

(١١١) في لغتنا الدارجة: كلمات قضت، (كتاب لغوي) طبعته بنفقتها ونشرته ضمن منشوراتها دارة الملك عبد العزيز في الرياض (تحت الطبع) في أربعة أجزاء.

(١١٢) حكايات تحكى (قصص)، نشره نادي القصيم الأدبي في بريدة، عام ١٤٢١هـ.

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين مُعِزّ من يشاء ومُذِلّ من يشاء، والصلاة والسلام على النبي المصطفى، والرسول المجتبى: محمد بن عبد الله، وعلى آله وأصحابه نجوم الهدى، ومصابيح الاقتداء.

أما بعد: فإن هذا كتاب قصد منه في الأصل أن يتكلم على بلاد الكُرج (جورجيا)، وبلاد الأرمن (أرمينيا)، وهي بلاد كان للعربية فيها سلطان عدا عليه الزمان، وفَرَّطَ به أهله، فآل بهم ذلك فيها إلى الهوان، حتى خلت تلك البلاد من أي أثر للغة الضاد، بل نسي القوم من أهلها وأهلنا ما كان للأجداد من الأمجاد، وهذا منتهى الخذلان أن ينسى القوم حتى تاريخهم الذي ازدان به الزمان.

وقد عزمت على تسميته بكتاب: «بلاد العربية الضائعة»، والضياع وصف للعربية فيها، وليس لها أو لساكنيها، غير أن حكومة (أرمينيا) لم تمنحنا سمة الدخول إلى أراضيها، وقالت سفارتها في موسكو بأنه لا بد من الإذن بإعطائنا السمة من داخل البلاد، ولكن الذي عرفناه من موظف فيها أنهم لا يريدون أناساً لونهم لون الإسلام أن يزوروا بلادهم حتى زيارة إلمام[1]. وأما الكرج وهو الجورجيون فقد استجابوا لطلبنا، ومنحونا مشكورين سمة الدخول على جوازاتنا السياسية، لذا اقتصر الحديث في

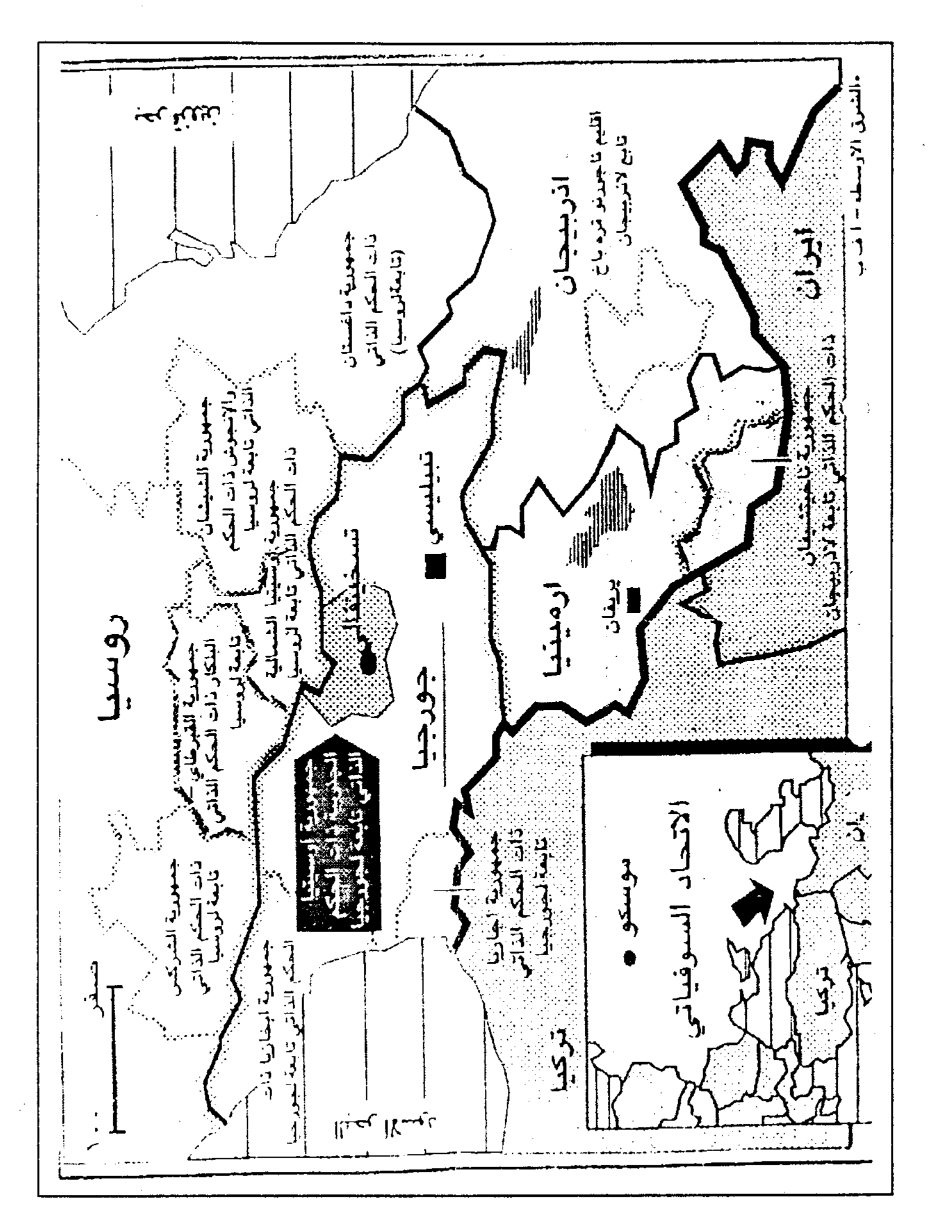
---

(١) حصل المؤلف بعد ذلك على سمة دخول إلى أرمينيا، وكتب عنها فَصْلاً في كتاب: «مواطن إسلامية ضائعة»، وهو كتاب مطبوع.

هذا الكتاب على بلاد « جورجيا » لا سيما بلاد المسلمين من إقليم أجاريا فيها، ثم الكلام على زيارة متصلة بزيارة جورجيا إلى بلاد القرم التي كان للعربية فيها سلطان وأي سلطان، كما سيأتي، فلذلك ألحقت ما كتبته مختصراً عنها في هذا الكتاب، والله أعلم بالصواب، وإليه المرجع والمآب.

المؤلف

محمد بن ناصر العبودي



خريطة جورجيا

جمهوريه جورجيا

تقع جورجيا في جنوب القفقاس، وتطل على البحر الأسود من الغرب، وتتكون أراضيها من مرتفعات جبلية وهضاب في الشمال، كما تظهر السهول في جنوبها الشرقي والغربي حول ساحل البحر الأسود، وتبلغ مساحتها ٦٩٦٠٠كم٢.

السكان:

قدر عدد سكان جورجيا بموجب إحصائية عام ١٩٨٩بنحو ٥،٤٤٩٠٠٠ نسمة ويتألفون من القوميات الآتية:

٦٩%من الكرج	٩%من الأرمن	٧%من الروس	٥% من الآذار	٢%من الأوستين

ومن القوميات المسلمة الأصيلة إنغيلويس Inghiloys في مقاطعة كاخيتيا Kakheha ، وأتراك المسخيت Meskhat في منطقة مسخيتيا المتاخمة لتركيا، بالإضافة إلى الأكراد القدماء، وتقدر نسبة المسلمين بنحو٢٠٪ من جملة السكان، فيهم من يعتنقون المذهب الشيعي، وقد بلغ عدد الكرجيين في جمهوريات الاتحاد السوفييتي السابق بموجب إحصاء عام ١٩٨٩ (٣٩٨٣١١٥) نسمة، يقيم نحو ٧٢٪ في جمهوريتهم، والباقون في جمهوريات جنوب القفقاس.

الكرج من هم ؟

يسمى الكرج أنفسهم كارتفلي Kartveli، ويسميهم الروس غروز Gruz ، والأتراك يسمونهم غورج Guyc ، وهو تحريف لاسم الكرج الذي أطلق عليهم في المصادر العربية، وبعد أن تم تنصيرهم في القرن الخامس

عشر الميلادي عرف الكرج بالجيورجيين نسبة إلى القسيس سانت جورج.

ويعود الكرج إلى قبائل إيبيرية قديمة كانت تسكن جبال القفقاس، جمعها اتحاد قبائلي انتهى إلى تشكيل شعب كارتلي دولته في القرن الرابع قبل الميلاد.

وقد فتح المسلمون جورجيا في القرن الأول الهجري، وبقي المسلمون حكاماً على جورجيا إلى القرن السادس الهجري: حيث خرجت عن حكم المسلمين، ثم عاد إليها الحكم الإسلامي على أيدي الأتراك إلى أن انضمت إلى روسيا عام ١٧٨٣، ومع بداية الحكم السوفييتي تأسست جمهورية جورجيا بحدودها الحالية في عام ١٩٢٢م.

وجورجيا هي أولى الدول التي أعلنت استقلالها عند انهيار الاتحاد السوفييتي، وفيها ثلاث مناطق تتمتع بالاستقلال الذاتي هي أجاريا (وعاصمتها باطومي)، وأبخازيا (وعاصمتها سوخومي)، وأوسيتيا الجنوبية (وعاصمتها سخينوالي).

ويشكل النصارى الأرثوذكس أكثرية سكانها.

وخلال فترة النظام الشيوعي من عام ١٩١٧ وحتى عام ١٩٩٠ تعرض المسلمون لاضطهاد كبير في دينهم مثل غيرهم من المسلمين في ذلك العهد، وصاروا بعد الاستقلال يطمحون لتعلم دينهم وتطبيق أحكامه في حياتهم العملية. ولكنهم يحتاجون إلى من يعلمهم أمور دينهم ويرشدهم إلى الطريق الصحيح، كما أن هناك نقصاً شديداً في الكتب الدينية المطبوعة باللغة الجورجية، وفي مكتب افتتحه الأخ م. يونس بحي الفاتح بإسطنبول يتم

إعداد كتب دينية باللغة الجورجية بجهاز الناسوخ (الكمبيوتر): حيث تطبع بعد ذلك في المطابع التي تناسب هذا الغرض. كما تتم الاستعانة في الترجمة والكتابة بالطلاب الجورجيين الذين يتلقون تعليمهم العالي في الجامعات التركية.

وقد ترجم كتاب في الفقه من بين الكتب الدينية الأساسية من اللغة التركية إلى الجورجية، وصدرت الطبعة الأولى بعشرة آلاف نسخة في شهر نوفمبر عام ١٩٩٦، والطبعة الثانية بعشرين ألف نسخة في شهر ديسمبر من العام نفسه.

ويتم نشر هذه الكتب بالتعاون مع دائرة إفتاء باطومي، وبدعم مالي من أهل الخير خارج جورجيا.

ومن جهة أخرى هناك حاجة ماسة إلى إنشاء مساجد في الأماكن التي يؤلف فيها المسلمون كثافة سكانية، وإلى الدعم المادي لإكمال المساجد التي هي قيد الإنشاء، كما يتطلب الأمر تأمين رواتب الأئمة الذين يعملون في هذه المساجد وهي رواتب ضئيلة، حيث لا يتلقون من الدولة أي شيء من هذا القبيل.

وجورجيا تعاني من ضائقة اقتصادية شديدة، بالإضافة إلى أن الدولة لا تهتم بتلبية حاجات المسلمين الدينية، بسبب سيطرة القوميين النصارى على مقدرات البلاد، بينما تقوم أعمال الإصلاح والتعديل في كثير من الكنائس هناك بدعم مالي من المنظمات المسيحية من الخارج، وتشجيع من الدولة.

وترفض حكومة جورجيا مطالب المسلمين بإعادة الأوقاف الإسلامية التابعة للمسجد الرئيسي في باطومي الذي بني قبل سبعين عاماً ولا يزال قائماً عامراً، وقد فشلت الجهود حتى الآن لإعادة تلك الأوقاف لصالح المسلمين.

عاصمة جورجيا:

زار وفد رابطة العالم الإسلامي مدينة تفليس عاصمة جورجيا، وتعرف في المصادر العربية بهذا الاسم (تفليس)، وقد فتحها حبيب بن مسلمة في عهد الخليفة عثمان بن عفان ﷺ صلحاً، حيث عقد صلحاً مع أهل تفليس عام ٢٥هـ، وأرسل إليها الفقيه عبد الرحمن بن جزء ليعلمهم أصول الإسلام، وسرعان ما دخل كثير من أهلها في الإسلام، وكانت في العهد العباسي مقراً للإمارة، ويبلغ سكان تفليس حالياً نحو ١،٢مليون نسمة.

وهناك مسجدان في تفليس، أحدهما مفتوح وهو الذي زاره وفد الرابطة، ويعرف باسم مسجد الجمعة، وهو مسجد بناه التتار المسلمون، ولكن نظراً لأن مسجد شهباز الذي كان لجماعة الشيعة قد هدم وأزيل في العهد الشيوعي، فالمسجد الحالي مقسوم إلى جزأين، ويقول متولي المسجد راسم مهدي أوغلي، وهو من الشيعة: إن المسلمين الشيعة والسنة يترددون إليه في صلوات الجمعة والأعياد وفي المناسبات الشيعية، والجزء الذي خصص لجماعة الشيعة يوجد فيه هيكل جنازة، يقول عنه المذكور: إنها تمثّل جنازة للحسين بن علي رضي الله عنهما ، وصور مختلفة يزعم أنها لبعض أهل البيت. وأما الجزء الخاص لأهل السنة فهو خال من تلك البدع

والخرافات.

وسوف تأتي تفاصيل ذلك في اليوميات بإذن الله.

ويقول المذكور وجماعة صادفناهم في المسجد وهم من الآذاريين الشيعة، أي أهل أذربيجان، وامرأة تتارية من أهل السنة: إن هناك عدداً من المساجد في قرى تبليس مثل قردابان قراجال، ولكن أكثر المسلمين هناك من الشيعة. ولا توجد إدارة دينية خاصة بالشيعة في جورجيا، وإنما يتبعون الإدارة الدينية لمسلمي ما وراء القفقاس التي يرأسها الشيخ الله شكر باشازاده في باكو عاصمة أذربيجان. وإنما توجد الإدارة الدينية لمسلمي أجاريا وهم من أهل السنة في مدينة باطومي عاصمة أجاريا.

جورجيا
عند مؤرخينا القدماء



تردد اسم بلاد الكرج في كتبنا العربية القديمة سواء باسمها المميز، أو بكونها جزءاً من منطقة (أرمينيا) القديمة، أو منطقة جبال (قبق) أو (القبج) التي تسمى الآن بالقوقاز. كما ورد اسم عاصمتها (تفليس) في مراجع عربية كثيرة.

وكان أكثر ورود اسمها إبان الفتوحات العربية المسلمة في القرن الهجري الأول، ثم في أوقات انفلاتها وخروجها من الحظيرة العربية المسلمة بعد أن كانت داخلها، وذلك في القرن السادس الهجري.

لذا أحببت أن أنقل نصوصاً تمثل ذلك.

أما النصوص عن المرحلة الأولى فإن كتبنا القديمة حافلة بها، ولكن كتابنا هذا ليس كتاب دراسات وتتبع لما قاله الأقدمون عنها وتمحيصه، وإنما هو مثل سائر كتبي في الرحلات التي بلغ عددها ١٦٢ كتاباً، إنما يبحث في المشاهدات وأوضاع المسلمين بحثاً ميدانياً.

وقد اختلطت أخبار الكرج أو جرزان كما أسمتها بعض المصادر العربية بأخبار أرمينيا وجبال القبج، لذلك لم نورد ذكر النصوص العربية التي تتحدث عما ذكرته.

وإنما رأيت أن نصاً ثميناً وربما كان فريداً في تفصيله، وتمثيله لما كانت عليه هذه البلاد في القرن الرابع الهجري. عندما كانت جزءاً ثقافياً من المنطقة العربية المسلمة، وكانت اللغة العربية هي لغة الثقافة فيها، بل لغة المعاملات بين أهلها وبين الأجانب قبل أن تنفلت بلاد الكرج منها، وتعود كافرة.

وفي الأخير أنقل نصاً أو نصوصاً عن هذه البلاد بعد عودتها كافرة.

ثم أنقل نصاً مطولاً عن هذه البلاد لمؤرخ من أهل القوقاز لخص فيه تاريخها القديم من المصادر الأجنبية، وهو يوسف عزة باشا.

وذلك كله من أجل إعطاء القارئ الكريم صورة واضحة عن ماضيها تكون مقدمة لما أذكره من المشاهدات فيها.

قال ياقوت الرومي في معجم البلدان:

الكُرْجُ - بالضم ثم السكون، وآخره جيم -: وهو جيل من الناس نصارى كانوا يسكنون في جبال القَبْق وبلد السرير، فقويت شوكتهم حتى ملكوا مدينة تفليس، ولهم ولاية تنسب إليهم وملكٌ ولغةٌ برأسها وشوكة وقوّة وكثرة عدد. قال المسعودي وقد وصف سُكان جبال القَبْق وكورها فقال: ويلي مملكة خيزان مما يلي باب القَبْق ملك يقال له برزينان، ويعرف بلده هذا بالكُرْج، وهم أصحاب الأعمدة، وكل ملك يلي هذه البلاد يقال له برزينان. ولم يزد مع إكثاره في غيرهم فيدلّ على قلتهم، فسبحان من يغير الأحوال فإنهم في زماننا ملوك لهم شوكة وعدّة تملكوا بها البلاد حتى أخرجهم عنها خوارزم شاه جلال الدين.

أقول: القبق هنا هي جبال القوقاز، وكان أسلافنا يسمونها القبق والقبج مثلما يسميها الأخلاف الآن القوقاز والقفقاس. وجيل: جماعات أو مجموعات من الناس.

وقال ياقوت أيضاً:

جُرزان - بالضم ثم السكون، وزاي، وألف -: اسم جامع لناحية

بأرمينية قصبتها تفليس، حكى ابن الكلبي عن الشرقي بن قُطاميّ جرزان وأرّان، وهما مما يلي أبواب أرمينية، وأرّان هي أرض برذعة مما يلي الديلم، وهما ابنا كسلوخيم بن لنطي بن يونان بن يافث بن نوح عليه السلام، وقال عليّ بن الحسين في مُرُوجه[1]: ثم يلي مملكة الأبخاز ملك الجرزية، قلت أنا: وهم الكُرْج فيما أحسب، فعرّب فقيل جُرز، قال: وهم أمة عظيمة ولهم ملك في هذا الوقت يقال له الطنبغي، ومملكة هذا الملك موضع يقال له مسجد ذي القرنين، وهم منقادون إلى دين النصرانية، يقال لهم جُرْزان، وكانت الأبخاز والجرزية تؤدّي الخراج إلى صاحب ثغر تفليس منذ فتحت تفليس وسكنها المسلمون إلى أيام المتوكل، فإنه كان بها رجل يقال له إسحاق بن إسماعيل فتغلب عليها واستظهر بمن معه من المسلمين على من حولها من الأمم، فانقادوا إلى طاعته وأدوا إليه الجزية، وخافه كلٌ من هناك من الأمم حتى بعث إليه المتوكل بغا التركي في عساكر كثيفة، فنزل على ثغر تفليس فأقام عليه محارباً مدة يسيرة حتى افتتحها بالسيف، وقتل إسحاق لأنه خلع طاعة السلطان، فمن يومئذ انحرفت هيبة السلطان عن ذلك الثغر، وطمع فيه المتغلبون وضعفوا عن مقاومة من حولهم من الكفار، وامتنعوا عن أداء الجزية، واستضافوا كثيراً من ضياع تفليس إليهم حتى كان من تملُّك الكُرْج لتفليس ما كان في سنة ٥١٥، وقد ذكر خبر فتح المسلمين لهذه الناحية في باب تفليس.

وكان قد تغلب على هذه الناحية وأرّان في أيام المعتمد على الله رجل يقال له محمد بن عبد الواحد التميمي اليمامي، فقال شاعره عمر بن محمد

---

(١) يريد به المسعودي في مروج الذهب.

الحنفي يمدحه:

ونـال بالشـام أيامـاً مشـهّرة سارت له في جميع الناس فاشتهرا

وداسَ أحـرارَ جـرزان بوطأتـه حتى شكوا من توالي وطئه ضـررا

وقال أبو عبادة الطائي في مدح أبي سعيد محمد بن يوسف الثغري:

وما كان بُقراط بن أشـوط عنـده بـأول عبـد، أوبقتـه جرائـرُه

ولما التقى الجمعان، لم يجتمع لـه يداه، ولم يثبت على البيض نـاظرُه

ولم يرض من جرزان حرزاً يجيره ولا في جبال الروم ريداً يجـلورُه[1]

أما الإمام المسعودي - وحسبك به تحقيقاً دقيقاً إضافة إلى تقدم زمنه- فقد قال في مروج الذهب وهو يذكر جبل القبج (القوقاز) وباب الأبواب: فمن ذلك أن أمة تلي بلاد اللان يقال لها الأبخاز منقادة إلى دين النصرانية، ولها ملك في هذا الوقت، وملك اللان مستظهر عليهم، وهم متصلون بجبل القبج، ثم يلي ملك الأبخاز ملك الجرزية، وهي أمة عظيمة منقادة إلى دين النصرانية تدعى جرزان، ولها ملك في هذا الوقت يقال له الطبيعي، وفي مملكة هذا الطبيعي موضع يعرف بمسجد ذي القرنين، وكانت الأبخاز والجرزية تؤدي الجزية إلى صاحب ثغر تفليس منذ فتحت تفليس وسكنها المسلمون إلى أيام المتوكل، فإنه كان بها رجل يقال له إسحاق بن إسماعيل، وكان مستظهراً بمن معه من المسلمين على من حوله من الأمم، وهم منقادون إلى طاعته وأداء الجزية إليه، وعلا أمر من هناك من الأمم حتى بعث المتوكل بعثاً فنزل على ثغر تفليس، وأقام عليهامحارباً

(١) كذا فيه، ولم أفهم معنى الشطر الثاني من البيت.

ثمانية أيام، وبين مدينة قالي قلا وتفليس أربع مراحل، وبين قالي قلا وأطرابزندة اثنتا عشرة مرحلة.

وأطرابزندة مدينة كبيرة على نحر بحر بنطس[١]، ومنها يسافر إلى جميع بلاد الروم.

وأما ميافارقين فإنها بين حدود الجزيرة وحدود أرمينية، وبعض الناس يرى أنها من أرمينية، وآخرون يعدونها من بلاد الجزيرة، وهي من شرقي دجلة على مرحلتين منها، فلذلك تجعل في بلاد أرمينية، وأيضاً فإن مدينة ميافارقين وقالي قلا وأرزن وسراوج ومناجرد وبدليس ونشوى وبركري بالجملة بلاد تتقارب في الأقطار وتتساوى في العمار وليس بينها كثير تفاوت، وهي بجملتها خصبة عامرة كثيرة الخير، ويصيبها في بعض الأحايين تغيير مثل ما يصييب سائر البلاد.

وفي هذه البلاد وفي أصقاعها الشيء الكثير من التجارات والمجالب وأنواع من الابتغاآت والمطالب من الدواب والأغنام والثياب المجلوبة إلى جميع النواحي والأقطار وغيرها كالتكك الأرمينية التي تصنع بمدينة سلماس وتعمل بمرند. انتهى.

وقال ابن حوقل في كتابه ((صورة الأرض)):

وتفليس مدينة دون باب الأبواب[٢] في الكبر، وعليها سوران من طين، ولها ثلاثة أبواب، وهي خصبة حصينة كثيرة الخيرات رخيصة الأسعار، ويزيد رخاؤها على سائر البلدان الراخية والنواحي الرفهة

---

(١) هو البحر الأسود.

(٢) باب الأبواب هي مدينة تكلمت عليها في كتاب «بلاد داغستان» المطبوع وكتاب ((رحلة الشمال)) مخطوط. وهي الآن واقعة في جمهورية داغستان، وتسمى (دربند).

والخصبة، ولقد ذكر بعض من اشترى بها العسل لذات يوم أنه اشتراه على نحو عشرين رطلاً بدرهم، وهي ثغر جليل[١] كثير الأعداء من كل جهة.

وبها حمّامات كحمّامات طبرية ماؤها سخين من غير نار.

وهي على نهر الكُرّ ولها فيه عروب يُطحن فيها الحنطة كما تحلحن عروب الموصل والرقة وغيرهما في الدجلة والفرات.

وأهلها قوم فيهم سلامة وقبول للغريب، وميل إلى الطارئ عليهم، وأنس بمن له أدنى فهمٍ وانتساب إلى شيء من الأدب[٢]، وهم أهل سنّة محضة على المذاهب القديمة، يكبرون علم الحديث، ويعظمون أهله، مع أنّي لقيتُ جماعة وغير ثقة[٣] فاضل ممن طرأ إليها وأقام بها السنة والأكثر مصطلحين على أنّه لم يبت أحد منهم في منزله بوجه ولا قَدَرَ على ذلك[٤]، ولقد تبينتُ من رغبتهم في ذلك وحرصهم عليه أني دخلتها وقد آليتُ أن لا آكل لأحدً بها طعاماً، إيثاراً لأن أملك نفسي وأنقطع إلى ما هو أولى بي من حوائجي، فعُقد لي مجلسٌ للمناظرة على هذه اليمين في دار أميرها، وحضر القاضي ابن سُميع، فابتدأ دونهم فقال: أيدك الله، إن المأكول في بلدنا أقلّ من أن نُكرهك على أن تناله من غير مالك، وأنت تنال منه باليسير في دورنا إذا تكلفه لك خَدَمُنَا من صُلْبِ مالِكَ ما لا يقصر بمشيئة الله عما ألفته، وتربحنا الثواب بخدمتك، وليس لك أن تنقض لنا سيرةً، ولا تُغيّر لنا سُنّةً، فإنا مذ أدركنا شيوخنا نسمع تناوضهم أنه لا

(١) يعني ذلك أنها كانت في حدود العالم الإسلامي في وقته.

(٢) هذا يدل على تأصيل اللغة العربية وآدابها في جورجيا في زمنه.

(٣) ربما كانت صحته: أكثر من ثقة، أي جمعاً من الناس.

(٤)يريدون أنهم يستضيفون العلماء الذين يأتون إليهم.

يجوز أن يبيت غريب ببلدنا في منزله، ولا خادم له إن كان واحداً، اللهم إلا أن يكونوا من الكثرة بحال من يؤنس بعضهم بعضاً، وقلما تُرِكُوا برأيهم، حتى ربما حصل المالك لرقابهم بمكان وهم معه، أو بمكان غير المكان الذي هو فيه يؤنسون ويأنسون، ولستَ تخلو من أن تكون موضعاً ممن تستفيد العلم إذا وجدته مع قيّم به، أو تكون بصورة من يستفاد منه، ويُرغب فيما عندك أو ممن لا يرغب فيه إذا وجده عند أهله، ولا لديه منه ما يُرغب فيه، وإذا كنت بإحدى الخلتين الأخيرتين فالرحيل عنا بك أولى، وراحتنا من النظر إليك أحسن وإلينا أشهى، وقد ثقلت على قلوبنا، وبعدُ فأيمان البيعة يلزمني حنثها لتكفرن عن يمينك في يومنا هذا تسليماً للحديث المروي عن النبي ﷺ أو لأكفرن عنك، يا بنيّ امض إلى بابه فاسمر عليه بإذن الأمير بخشبة وثيقة، واطبع عليها بخاتمي، ووكّل الجيرة بمراعاتها، ولا تطلق له أيده الله الدخول إليها إلا بعد رأينا ومطالعتنا. والسلام.

وحِيل بيني وبين رحلي وما كان معي، فكنت عنده ليلتين وعند غيره ليلة مبروراً، وبضاعتي في خلال ذلك تباع، وما يدعوهم إليه حسن النظر مما عاد بصلاحي يُشترى، حتى قُضيت جميع حوائجي، وأبو بكر القناد مطلع على جميع ذلك، إلى أن قال لي ذات يوم: تحب العَود إلى جرجان؟ فقلت: لو وجدت إلى ذلك وسيلة، أو كان لي فيه حيلة. فقال: وما يمنعك؟ وأطلعني على الصورة فبقيت باهتاً ساكناً، فقال: ما لي أراك وكأنك لا تراني؟ فقلت: يا ويحك هذا يشبه حديث إسحاق بن إبراهيم الموصلي مع يحيى بن خالد، وكنتُ قد حدثتهم به، فقال: يشهد الله لقد استريت غير وقت بذلك الحديث، ولقد أراني فعلُ هؤلاء بالإمكان والقدرة على ما يتوخونه، وقلة الحفل بما يتولونه، أن ذلك الحديث حق لا يشوبه

كذب، وصدق لا يتخونه إفك، لأنهم لا يلزمهم فيما يتولونه ويفعلونه كلفة سوى الأمر به، وكذلك ما كانت البرامكة تفعله وتأتيه من غير كلفة سوى الأمر به، لنفوذ أوامرهم واتساع أحوالهم.

وليس بالران مدينة أكبر من برذعة والباب وتفليس.

أقول: الباب هي المدينة التي تعرف الآن باسم (دربند)، وقد دخلتها أكثر من مرة، وقد ذكرت ذلك في كتاب: ((بلاد الداغستان))، وكتاب : ((رحلة الشمال)).

وأما ما ذكره ابن حوقل وهو شاهد على ما كانت عليه هذه البلاد إبان أن كانت عربية مسلمة، فإن ذلك يدل على أخلاق المسلمين من أهلها من إكرام الضيف، والحفاوة بالغريب، حتى إن القاضي أمر بأن يسمر باب دار ابن حوقل مدة معينة، أي أن يغلق وتضرب عليه المسامير، حتى لا يستطيع فتحه من أجل أن يضطر إلى أن يبقى في ضيافة القاضي وغيره من أهل تفليس.

كانت مشاغبات الكرج (الجورجيين) عندما انفلتوا من المسلمين كثيرة، سجلها شعراء العصور الوسيطة، ونكتفي من ذلك بما ذكره الشاعر العربي ابن النبيه في مدح الملك الأشرف موسى بن العادل، وقد عاش ابن النبيه آخر القرن السادس وأول القرن السابع. قال من قصيدة:

موسى الذي أزرى بكسرى، واعتلى ... في أسْرِ إيوانـي على الإيـوان
لبّى أخاه من الجزيرة بعدما ... سَدّت عليه (الكُرْجُ) كُلّ مكان
بجحافلٍ زُمَرُ الملائك فوقها ... محفوفة بخواطف العقبان
لا يهتدونَ إذا ادْلَهَمّ عَجاجُهُمْ ... إلاّ بِشُعْلَةِ صارمٍ وسنانِ
فجَلاَ عنِ الإسلامِ ظُلْمَةَ كُفْرِهِمْ ... وأعاده للعِزّ بعدَ هَوانِ

طـهِّرْت أرمِينيّـة فاسـتَبْدَلَتْ ... مـن دقِّ نـاقوسٍ بصَـوْت أذانِ

نَفَذَتْ جُسُـومَهُمُ الرِّمـاحُ كأنَّـهُمْ ... بعضُ الذي حَمَلُوا من الصُّلْبـانِ(١)

وقال أيضاً من قصيدة:

فَلِلَّـهِ يـومٌ عَـمَّ(تَفْلِيـس) حَرْبُـهُ ... وسارتْ إلى أرضِ العِراقِ بهِ البُشْـرَى

تَـهَنَّ أمـيرَ المؤمنيـنَ بمِثْلِـهِ ... نصيراً يسُدُّ الثَّغْـرَ أو يفْتَـحُ الثَّغـرَا

حُسـامٌ إذا هزَّتْـهُ يُمْنـاكَ هَـزَّةً ... ترقْرَقَ مـاءً والْتَظَـى خَـدُّه جمْـرَا

طِـرازٌ علـى كُـمِّ الخِلافَـةِ مُذْهَـبٌ ... وجَوْهَرَةٌ فـي تاجِـها تَكْسِـفُ الـدُّرَّا

أبا الفَتْحِ شُكْراً لاخْتِصـاصِ صنيعَـةٍ ... فحَسْبُكَ في الدنيا جَمالاً وفي الأخْرى(٢)

قول حديث في تاريخ جورجيا:

قال يوسف باشا في كتابه ((تاريخ القوقاز)) الذي ترجمه إلى العربية عبد الحميد غالب بك:

الفصل الخامس: تاريخ بلاد الكرج (كورجستان)

يدعى الكرج أنهم أحفاد (قارتلوس) وأن أسمهم الأصلي (قارتول) نسبة إلى ابن قارتلوس رأس الأمة الكرجية التي كان مقرها مفرق نهري (كُر) و(آراغوي) من ٢١٠٠ سنة قبل الميلاد.

ويقولون إنهم كانوا معروفين عند العبرانيين باسم (مَشَخْ) أو (مَسَخي) كما أنهم يدعون أن قارتلوس هذا من أولاد (يافث)، وأن عاصمة ملكهم الأولى تسمى (مَتْسَخَتْ) نسبة إلى ابن قارتلوس.

ومع أن الكرج قديماً عاشوا في أواسط القرن السابع قبل الميلاد

(١) ديوان ابن النبيه، ص ٢٨٣- ٢٨٤.

(٢) المصدر نفسه، ص ٢٩٤.

ملكهم الأولى تسمى (مَتْسَخَتْ) نسبة إلى ابن قارتلوس.

ومع أن الكرج قديماً عاشوا في أواسط القرن السابع قبل الميلاد باسم (قارتول)، وكانوا قبائل متفرقة، كل قبيلة تحت إمرة رئيس باسم (ماماسحليس)، إلا أنه لا يوجد في بطون التاريخ حوادث مهمة تثبت وجودهم قبل هذا العهد. وقياساً على أن اسم الجركس القومي (أديغه) والآستين (أيرون)، والكرد (مور)، والشيشان (ناخجه)، فيحتمل أن يكون اسم الكرج القومي أيضاً (قارتول)، وعلى كل حال فإن كلمة ((كورجى)) دخيلة عليهم وغريبة عنهم.

وللكتّاب الروس جملة آراء في أصل واشتقاق كلمة (كرج):

١-لما كان الكرج يزرعون الذرة كثيراً، ويحبون أكلها كناهم ((السريان)) بكلمة (غاريز) التي تفيد الذرة بلغتهم.

٢-كورجستان معناها بالفارسية (بلاد القوة والقدرة).

٣-سميت بلادهم بكورجستان نسبة إلى (القديس جورجى - سان جورج) الشهير عند النصارى، والذي ظهرت النصرانية على يديه في الكورجستان، وله عندهم مكانة كبرى واحترام ديني عظيم، حتى إنه يعتبرونه شفيعهم وحاميهم.

وحكومة الكرج كانت من أعظم وأقوى الحكومات التي تشكلت في قفقاسيا. ويعتبر الكرج والجركس والآستين من العرق الأبيض.

كان الكرج في أول أمرهم أمة عظيمة قوية منتشرة لغاية الجنوب الأدنى لقفقاسيا، ولكنهم أمام السيول المتدفقة من جيوش المغيرين على

بلادهـم لم يستطيعوا المقاومة ولا الثبات، فاضطروا للتقهقر قدماً قدماً حتى تحصنوا في منحدرات جبال القفقاس.

وهم قوم مشهود لهم بالتمدن والبراعة، والتفنن في الزراعة.

وأنه حوالي سنة ٦٣٣ قبل الميلاد استولى الخزر القادمون من بين نهري (فولجا) و(الدون) على بلاد الكرج، وبعد ذلك هبت فيهم الروح الحربية

وقد حكم الكرجَ (قوروس) الفارسي من سنة ٦٥٠ إلى سنة ٥٢٩ قبل المسيح، وأراد حاكم (ميديا) الاستيلاء على بلادهم، ولكنهم تغلبوا عليه وطردوه من البلاد، وقد جاءت الصين إلى الكورجستان بقيادة البرنس (اوربليان)، واستوطنت الوادي الشمالي لعاصمة الكرج (ميتسخت) حوالي سنة ٣٥٠ ق.م، وسيجيء الكلام فيما بعد عن المساعدات القيمة التي قدمها أمراء الصين من عائلة (اوربليان) للروسيا عند استيلائهم على القفقاس (مورجان المجلد الثاني صفحة ١٥٦).

ويقسم مورجان تاريخ ايبريا (الكرج) إلى خمسة أدوار:

أولاً- الدور الأول: من سنة ٥٥٠ إلى سنة ٣٣١ ق.م وهو دور الاحتلال الفارسي لبلاد ايبريا، وابتداء إعلان الإيبريين استقلالهم.

ثانياً- الدور الثاني: من سنة ٣٣١ إلى سنة ١١٢ ق.م دور الاستقلال.

ثالثاً- الدور الثالث: من سنة ١١٢ إلى سنة ٦٤ ق.م دور احتلال ايبريا على يد (ميتريداد) الروماني.

رابعاً- الدور الرابع: من سنة ٦٤ إلى سنة ١٦٤ ميلادية دور انتقال البلاد إلى التبعية الرومانية -اسماً- وإعلان استقلالهم ثانياً.

خامساً- الدور الخامس والأخير: دخول البلاد تحت نير (الهون)

و(الأوار) الآتين من الشمال الزاحفين إلى آسيا حين مرورهم من قنقاسيا.
ويقول مورجان:

وأمام هذه التقلبات والحروب الدائمة، خصوصاً في دورهم الخامس حينما داهمت بلادهم الأمم الغازية الآتية من الشمال، دافع (الإيبريون) مستميتين عن كيانهم وبلادهم، ولكن كثرة المغيرين سحقتهم حتى أشرفوا على الانقراض.

وفي هذا الدور انقرض الإيبريون، واختفى معهم اسم إيبيريا وحلمحله عنوان جديد (بلاد الكرج).

وإنك لتجد في كتاب هيرودت شيخ المؤرخين أن (إيبريا) تعرف باسم (ساسبير).

وصفوة القول: إن بلاد الكرج كانت تعرف بساسبير، ثم بايبريا، وأخيراً بلاد الكرج، وهذا ما اتفق عليه المؤرخون.

***

وإذا استعرضنا الحوادث والظروف التي مرت على بلاد القنقاس نجد أنها كانت بمركز المنفذ الحصين بين القارتين آسيا وأوربا كما بينا في مقدمة هذا الكتاب، وأن من ملكها ملك ما بعدها من البلاد، فلهذا كانت قنقاسيا مسرحاً لهذه الأطماع، وأهلها ضحايا لهؤلاء المغيرين.

وقد ضم إسكندر الأكبر جنوبي قنقاسيا والكرج في القرن الرابع قبل الميلاد لإمبراطوريته، حينما غزا آسيا الصغرى، وأقام رجلاً يدعى (يازون) حاكماً على كورجستان، وحاول هذا أن يغير عقيدة أهل البلاد الذين يعبدون الكواكب ليعبدوا بدلها الأصنام، فكانت هذه المحاولة

عاملا قويا لقيام الشعب ضده، فظهر بين الكرج (فارنواز) ودعاهم إلى الاتحاد وتوحيد الصفوف، وجعل يبث فيهم روح الحرية والاستقلال وقدسية الوطن، ويشعل فيهم نار الحقد ضد الغاصبين والفاتحين الذين يحتلون بلادهم، ويتحكمون فيهم بالظلم والاستبداد.

ولقد نجح (فارنواز) في حركته هذه، والتف الناس حوله، واستولى على سلطة جميع رؤساء القبائل الكورجية، وألف جيشاً عظيماً، وطرد (يازون) عامل الإسكندر وجنوده من البلاد، وصار أول ملك على كورجستان المتحدة.

***

واستمر في تنظيم الشؤون، وقسم البلاد إلى ثمان ولايات (أريستاوْ)، على رأس كل منها والٍ، وقد نشأ أخيراً من هؤلاء طبقة النبلاء من الكرج المسماة (مازناؤور)، الذين يمتون بالصلة إلى «ماماسحليس» القديم، وعمم اللغة الكرجية وجعلها اللسان القومي والرسمي للبلاد، وأوجد الحروف الأولى للكتابة، ونظم الجيش وأنشأ المدن وبنى القلاع والحصون، وأصلح كثيراً من شؤون البلاد.

وأقام ابنه ولياً للعهد على المملكة من بعده، وبقي القوم على مذهبهم يعبدون الكواكب والنجوم.

وفي سنة ٢٣٧ قبل الميلاد توفي (فارنواز) واعتلى العرش ابنه (سورماغ)، وحكم من سنة ٢٣٧ إلى ١٦٢، وأثناء ذلك تألب عليه حكام الولايات وجاهروا بأنهم لا يطيعون فرداً أصله منهم، فقمع هذه الثورة بمعونة الآستين (القوصحه)، ومات (سورماغ) من غير عقب، فتولى الملك من بعده ابن أخته (ميروان)، وفي عهده اختل نظام الملك، وحدثت ثورات

داخلية، ولم يطل الأمر حتى توفى (ميروان) سنة ٩٣ ق.م، وتولى بعده ابنه (فارناجوم).

ولما أراد فارناجوم أن يغير عقيدة القوم ويدخلهم في مذهب (مزدق)[1]، أرسلوا إلى حاكم أرمينيا ونصبوا ابنه (أرشاق) ملكاً عليهم (مورجان المجلد الثاني ص١٦٧).

***

كانت حكومة الكرج قوية عظيمة مدة حكم (فارنواز) وأولاده وأحفاده، وكم تغلبت على ميديا والخزر والنرس وغيرهم عندما هاجموها للاستيلاء عليها وطردتهم ومزقتهم شر ممزق.

***

وفي أثناء ذلك استولى جيش (بومبيي) القائد الروماني العظيم على الكرجستان في سنة ٦٦ ق.م، وأتبعها لروما وأبقى (أرشاق) ملكها حاكماً عليها باسم الرومان. وفي سنة ٣٦ ق.م ثار الكرج ضد الاحتلال الروماني، وطردوا المحتلين من البلاد، فجردت عليهم روما جيشاً بقيادة (قاني دى)، وأرغموهم على السكينة، وألحقوهم بروما مرة أخرى.

ولكن هذه المرة كانت روما تعاملهم معاملة الحكومات المتفقة المتحابة، ولم تتداخل في شؤونهم الداخلية، وبهذه الوسيلة أمكن للرومان الاستفادة من القوة الكرجية للمحافظة على أملاكهم ضد الأقوام الآخرين بقفقاسيا، وبسبب دخول الرومان تلك البلاد أمكن تدوين تاريخ

---

(١) هو: مزدك.

لقفقاسيا ، ووجد مطابقاً لما كتبه المؤرخ (إسترابون) عنها.

***

يقول إسترابون المؤرخ أن إيبريا (بلاد الكرج) كانت آهلة بالسكان، وكانوا أغنياء خصوصاً سكان نهر (كر) فإنهم امتازوا بتفوقهم في الزراعة والبناء والصناعات، وكانت لهم آثار مشيدة ومبانٍ ضخمة بالأحجار، بل كانت لهم مدن عظيمة تدل على تقدمهم في فن البناء.

وقد امتازوا أيضاً بدماثة الأخلاق وبغضهم للحروب، بخلاف سكان سنوح الجبال (سكيت) Seythes و(ساريمات) Sarmates فكانوا رجال حرب وضرب، بعيدين عن التمدن والرقي.

وقول إسترابون أيضاً إن الملك في إيبريا وراثياً، وينقسم الأهالي إلى أربع طبقات رئيسة:

١- طبقة النبلاء وينتسب إليها القواد والحكام.

٢- طبقة الكهنة والرهبان.

٣- طبقة المحاربين والزراع.

٤- طبقة الأسرى والخدم.

وطبقة الأسرى هذه يحرم عليها الاشتراك في الحروب، وعليها أن تحافظ على المنازل والعائلات في زمن الحرب وتقوم بخدمتها.

***

مرَّ على الكرج خمسة قرون وهم تحت النير الروماني، ورغم هذا الاحتلال فإن الحكم كان بيد ملوك الكرج أنفسهم، وكانت البلاد في هذه المدة غارقة في بحبوحة من السعادة وتقدم العمران، وشق الرومان في البلاد طرقاً كثيرة، وأحدثوا منشآت عظيمة، وتقدموا بالبلاد تقدماً مذكوراً.

وفي هذه المدة كان الملوك من عائلتي (فارنواز) و(أرشاق)، ولما توفى الملك (إسياغور) من عائلة أرشاق سنة ٣٥٢ميلادية، ولم يعقب سوى بنت اسمها (أبشورا) اعتلت العرش بعد أبيها وفقاً للقانون الذي وضعه الملك (فارنواز).

فرأى من بيدهم زمام الأمور أن يستقدموا (ميروان) بن خسرَوْ الثاني ملك العجم ويزوجوه (أبشورا).

وفعلاً تم ذلك، وأجلسوه على العرش باسم (ميروان الثاني)، وقد قيل إن حكمه دام ٧٧ سنة، وعقب وفاة زوجته أبشورا تزوج بكرجية أخرى اسمها (نينا).

***

وفي مدة حكمه امتدت حدود المملكة لغاية بحر الخزر، واستولى على جزء من (الجزيرة)، واستمال إليه الآستين. وبعد ميروان الثاني اعتلى العرش (أختانغ الأول)، وكان عاقلاً رزيناً، وإليه يرجع فضل جمع شتات التاريخ الكرجي، وهو الذي استغنى عن الرهبان الذين كانوا يرسلون من (بوظنطيا)[1]، وأحل بدلهم رهباناً من الكرج، ودام ملكه من سنة ٤٤٦

(١) هي بيزانطة (Byzance) الاسم القديم للقسطنطينية (مدينة قسطنطين).

إلى سنة ٤٩٩م.

ومن بعده رجعت البلاد القهقرى، واستولى الفرس على قسم منها، وبوظنطيا (بوزنته) على القسم الآخر مرة ثانية، كما استولت أيضاً على بلاد (الأبخاز). وفي سنة ٥٨٦م جلس على عرش الكرجستان (غوريم) من قبل حكومة بوظنطيا، بدلاً من آخر ملك من عائلة (باغرات).

وفي سنة ٦٢٦ استولى على بلاد الكرج إمبراطور الرومان (هرقل)، وأعمل التخريب والتدمير فيها، وأحرق مدينة (تفليس) عاصمة البلاد.

***

وفي خلافة (عمر) رضي الله عنه سنة ٢٢ لهجرة خاتم المرسلين عليه أفضل الصلاة والسلام الموافق سنة ٦٤٧م وصل جيش إسلامي عربي تحت إمرة (سراقة بن عمرو) إلى حدود العجم لنشر الدين الحنيف، وبعد أن استولى على أذربيجان انفصلت منه قوة بقيادة (بكر بن عبد الله بن عبد الرحمن بن ربيعة) وقصدت جنوب القفقاس للفتح.

فدخل في دين الله جميع بلاد (شروان) جزء من (الداغستان)، ثم استمر زحف المجاهدين حتى استولوا على بلاد (الأرمن) و(الكرج) وفتحوا (تفليس)، وأسسوا حكومة عربية تدعو الناس إلى الإسلام.

ورغم هذا أبقوا ملوك الكرج على عروشهم من غير سلطة، وقد حبطت جميع المساعي والدسائس التي تذرعت بها حكومة (بيزانتة) لوقف هذا الفتح الإسلامي، ودخل الناس في دين الله أفواجاً حتى الأمراء والملوك، وأما من لم يقبلوا الإسلام ديناً فنروا إلى الجبال.

وبذلك قضى الإسلام في هذه الفترة على النصرانية التي كانت

منتشرة في تلك الأصقاع منذ ثلاثة قرون.

ودامت حكومة العرب لغاية سنة ١١٠٠ م تقريباً، أي إلى أوائل ابتداء الحروب الصليبية، وفي خلال هذه المدة حل الإسلام محل النصرانية حتى وصل إلى الجهات الشمالية. ولا شك أن الدين الإسلامي امتد إلى بلاد القوصحه (الآستين) والجركس، وفي أيام إدارة العرب انقسمت البلاد إلى قسمين:

بلاد (الكرج الأصلية) وبلاد (الأبخاز)، وكل من هاتين المقاطعتين تجزأت إلى أجزاء صغيرة، وبذلك انحلت وحدة الدولة ودبت فيها الفوضى.

***

ولما اشتدت الحروب الصليبية واستفحل أمرها، اضطر العرب إلى توحيد قواتهم أمام الصليبيين، فصاروا يخلون البلاد من عساكرهم ويوجهونهم إلى ميادين القتال، فانتهز الكرج هذه الفرصة ونادوا بـ(باغرات الرابع) بن (جورجى الأول) ملكاً عليهم، وزحفوا إلى تفليس واحتلوها سنة ١١٢٦م.

وبينما كان هذا جارياً في بلاد الكرج كان أتراك إيران (السلجوقيون) قد احتلوا لأول مرة سنة ١٠٤٩م جنوبي القفقاس وأرمينيا والكرج وبلاد الروم في شرقي أسيا الصغرى، وفي سنة ١٠٧٢ احتل (ألب أرسلان) بلاد الكرج من جديد.

***

وأثناء حكم (باغرات الرابع) ضربت النقود، وكتب عليها بالكرجية ما يأتي:

«يا عيسى ارفع شأن باغرات ملك القارتول والأبخاز».

***

ثم بدلت حكومة (بيزانس)[1] لقب ملك الكرج (يوركي الثاني) بلقب (قيصر)، لأن ملوك الكرج كانوا يتلقون من بيزانس ألقاب الشرف والإمارة.

واستمر (القيصر يوركى) في محاربة (الملك خان) و(ألب أرسلان) حتى انهزم أمامهما، وترك لهما البلاد وفرَّ إلى جبال قنقاسيا.

فيؤخذ من الحوادث التي مرت في هذه العصور أن ملوك الكرج وإن استمروا في ملكهم، إلا أنهم لم يكونوا ملوكاً بالمعنى الصحيح، بل كانوا تارة عمالاً للرومان، وأخرى عاملين لغيرهم بالكرجستان.

***

وإذا نظرنا لضعف هؤلاء الملوك والتزامهم الحياد في حكم البلاد نجد العكس في الملك (داويد الثاني)[2] إذ إنه كان ملكاً حقاً.

حكم هذا الملك بلاد الكرج من سنة ١٠٨٩ إلى سنة ١١٢٥م وتقدم بها، وجعل منها مملكة متحدة متماسكة الأطراف، وقضى على البقية الباقية من نفوذ العرب، وضم إلى ملكه كل جنوبي القفقاس وبلاد الأبخاز حتى بحر الخزر.

وكان عمره ست عشرة سنة عندما اعتلى العرش، فوجد البلاد لا

---

(١) بوظنطليه.

(٢) المفهوم أن (داويد) هو (داوود).

تزال تئن من مظالم الاحتلال والاستبداد ، والأهالي يسكنون الكهوف والخرابات، ويلتجئون إلى الجبال والمغارات خوفاً من الغزو والتقتيل، حتى إن الملوك أنفسهم كانت لهم مآوٍ وملاجئ في جبال (ليخى) بقرية (تأغوليستاوْ).

فوطد الأمور، وطمأن النفوس، ونشر السكينة بين الناس، وأسكن قبائل الآستين الوديان التي خلت من سكانها ، وبالإجمال فقد نهض بالمملكة وأحياها بعد مواتها ، وجعل منها حكومة قوية قادرة على حفظ كيانها.

***

وفي سنة ١١٢٢م. زال نفوذ العرب نهائياً من القفقاس على يد هذا الملك، ونجد في كتب العرب تاريخاً مفصلاً عن الإدارة والحكومات العربية التي حكمت جنوبي القفقاس وكل ما يتعلق بهذا الموضوع، وإن كتبهم لمن أصدق الحجج المعتبرة في هذا الشأن.

***

وقد توفى (داويد الثاني) وله من العمر ٥٣سنة ، وكانت له عند الشعب الكرجى مكانة مقدسة ، وترك لابنه (ديمتري) من بعده ملكاً عظيماً وحكومة قوية.

وتولى (ديمتري) الملك، ونسج على منوال والده، ووضع أمام عينيه تعظيم الوطن، ووجوب المحافظة عليه وعلى وحدة الأمة وتقوية المملكة ، وفي عهده كان ينقش على النقود بالعربية اسمه واسم الحاكم السلجوقي بإيران (مسعود- ديمترى).

ودام ملكه من سنة ١١٢٥م لغاية سنة ١١٥٤م.

ومن بعده تولى الملك ابنه (جورجي الثالث) الذي ضم إلى بلاده (أرضروم) (وآنى) وما حولهما، كما أنه استولى على (أجْمَيادْ زينْ) التي تعتبر أقدس الأماكن الدينية عند الأرمن ومركزهم الروحى. انتهى كلام يوسف باشا.

أقول: عاد الحكم الإسلامي إلى جورجيا على يد تيمورلنك وأتباعه، ثم على أيدي الحكام الأتراك العثمانيين، وقد استمرت دار إسلام تحت حكمهم، إلى أن انتزعها الروس منهم طبقاً لما ذكرناه في ملخص تاريخهم في أول الكتاب.



يوميات جورجيا



يوم الأربعاء: ١٤١٦/٢/٢١هـ - ١٩٩٥/٧/١٩م.

من موسكو إلى تفليس:

خرجنا إلى مطار (موكنا) وهو أحد المطارات الخمسة لمدينة موسكو، ومع ذلك هو مزدحم وسيئ التنظيم، بل هو ليس منظماً أصلاً، مثله في ذلك مثل سائر المرافق في هذه البلاد الروسية والبلاد التي كانت مشتركة مع جورجيا فيما يسمى الاتحاد السوفيتي الذي انفرط عقده، ولم يأسف على ذلك حتى أهله، فالبلاد الآن تجتاز مرحلة انتقالية بين النظام الشيوعي الذي كان سائداً، فأصبح الآن بائداً، وبين نظام الاقتصاد الحر الذي يحتاج الدخول إليه إلى المهارة في التجارة، وقبل ذلك إلى رؤوس الأموال، وبالاستعانة برجال الأعمال والإدارة.

ومن الفوضى عندهم أننا أرسلنا رسولاً بل رسولين إلى مكتب الشركة التي سنسافر معها إلى تفليس، نريد الحجز، فذكروا أنهم لا يستطيعون ذلك، ولا بد من الخروج إلى المطار والحضور رأساً عند مكتب الترحيل، وربما كان هذا سبب عدم استطاعتهم التسجيل في الحاسبات الآلية، أو بغية التوفير في هذه العملية.

ومن الغريب أنهم قالوا عندما وصلنا إلى مكاتب الترحيل في المطار إنه لا بد من حجز، فذهب اثنان من المودعين لنا، وهما الأخ عمار البحر من السودان، والأستاذ علي العمودي من السعودية، وهما يعرفان الروسية إلى مكتب بعيد يعدوان حتى عادا ومعهما الحجز الجديد.

وكان الزحام بالغاً في هذا المطار، والزحام مع عدم النظام هو بلية البلايا، بل رزية الرزايا.

ومع ذلك فإن العمل عندهم يسير ببطء شديد ، وبتردد كما هو السائد في أكثر الدول المختلفة.

ومن مكاتب الترحيل ذهبنا للجوازات فوجدنا ضابطة عند المكتب، فأبطأت وهي تتأمل جوازاتنا ، ثم تركت مكتبها وذهبت تسأل موظفة أعلى منها رتبة ثم ختمت على جوازاتنا ، وبعدها كان الوقوف أيضاً عند الدخول إلى قاعة المغادرة، فكان فيها موظف ينظر في بطاقات الدخول إلى الطائرة، وبعده ضابط من الجوازات يراجعها وينظر هل الأختام عليها صحيحة.

وأما التفتيش للأمن فإن فيه فوضى مسموعة، إذْ يصيح الفاحص الكهربائي بالذي مر معه شيء معدني، فلا يلتفتون إليه، ولا يتحققون منه، بل إن الموظف الذي كان عند الفاحص ذهب وتركه وترك الناس يدخلون منه كيفما شاؤوا.

وأما قاعة الخروج إلى الطائرة فإنها مليئة بالركاب، وقد تجمعوا حول بوابة الخروج التي ستقوم منها رحلتنا حتى اختلطوا بركاب طائرة من باب خروج مجاور، ولذلك تكوموا أمام موظفة روسية ثقيلة، هي بطبيعتها عابسة ، وقد زادتها الفوضى التي عليها الركاب وتكومهم أمامها عبوساً واكفهراراً ، حتى انفلت منها الزمام فصارت تصرخ وتتكلم بالروسية بانفعال لا يكون إلا في الأماكن غير المحترمة ، ونحن لا ندري ما تقول ، والسبب الذي جعل الناس يزدحمون على بوابة الخروج أن البطاقات ليس فيها أرقام المقاعد ، بل من سبق حصل على المقعد الذي يريد ، ومن تأخر كان عكس ذلك.

والغريب أن هذا الصراخ والزعيق من الموظفة بالناس لم أر له على وجوههم صدى، بل الجميع ساكن، والمفروض في مثل هذه الحالة أن يقابل

الصياح بالصياح كما في المثل العربي القديم: «ابدأهم بالصراخ يفروا» ولكن الظاهر أن القوم في هذه البلاد بعد التربية الشيوعية التي كانت تتسم بالعنف والقسوة صاروا لا يشكون ولا يتذمرون.

وقد سألت مرة أحد العقلاء من أهل البلاد عن سبب عدم شكوى القوم مما نعتبره موجباً للشكوى والاحتجاج فقال: إلى من يشتكون؟ إنه لا أحد يسمع شكواهم.

وحتى عندما وصلت الموظفة وكنت أمام رفاقي وليس معنا مترجم قالت لي بالروسية شيئاً لم أفهمه، ثم انتهرتني بصوت مرتفع نبهني أحد السائحين الأجانب إلى أنها تقول بالروسية: أرني تذكرتك!

ولم تكن تتكلم الإنكليزية، وكيف لي أن أفهم ما تريده مني بالروسية، وكنت استبعدت أن تطلب مني رؤية التذكرة في هذا المكان الذي هو بوابة الخروج.

ومما يسجل لها أنها كانت ترفع صوتها وتصرخ بلهجة تدل على الانتهار للجميع، أي لم يكن السب مقتصراً على بني قومها دون غيرهم «والمساواة في الظلم عدل» كما يقول المثل.

وعندما انتهيت منها وهي تبطئ في إنجاز عملها، وفرحت بأنني سوف أخرج من هذا الزحام الذي يخشى فيه المرء من عطسة أو سعلة قد تكسبه زكمة هو في غنى عنها في هذا السفر الذي يتسم بالحط والترحال أوقفني ضابط كان في البوابة من جهة ساحة وقوف الطائرات، وأخذ يتأمل بطاقة الصعود للطائرة (البوردنغ باص) ثم أخذها مني وتركني بدون بطاقة، هكذا بلا أي ورقة تدل على أننا راكبون مما يريد المسافر أن يحتفظ به، وإلا فإنهم الآن يعرفون المسافرين، ولا يخشى أن يختلط بهم غيرهم.

فأسرعت أعدو إلى الحافلة القريبة، ووقفت قرب بابها لعلمي أن الناس سوف يسارعون إلى الخروج منه عند الصعود إلى الطائرة، وتبين أن أناساً كثيراً كانوا مثلي يعرفون ذلك، وبعضهم كان يحمل معه أمتعة عرقلت دخول الداخلين.

وعند الصعود إلى سلم الطائرة تزاحم القوم وفيهم نساء لا مباليات، كنت أنا أتعاهد نفسي أن أبعد عنهن لئلا أحتك رغماً عني بسبب الزحام بإحداهن، وذكرت بهذه المناسبة طيبة الذكر في هذا الأمر غير الطيب، وهي الطائرات النيجيرية الداخلية التي يتراكض الناس إلى الصعود إلى طائراتها كما يفعل الأطفال، وسبب ذلك ليس مجرد اختيار المقعد المطلوب، وإنما ذلك -أيضاً- لكون الموظفين قد يعطون بطاقات الصعود إلى الطائرة لعدد أكبر مما تسمح به مقاعدها، فيبقى بعضهم واقفاً حتى ينزله المضيفون من الطائرة، وقد حصل ذلك بالفعل أكثر من مرة لمن نعرفهم من إخواننا العرب في نيجيريا.

وكنا من المزاحِمين - بكسر الحاء - المزاحَمين - بفتحها - فحصلنا على مقاعد في القسم الأمامي من الطائرة التي هي طائرة روسية نفاثة لا أدري اسمها، لأننا لم نجد أي شي يدل على ذلك من كتابة أو بطاقة، فجيوب المقاعد خالية من أي شيء يقرأ.

ولكن الطائرة مكتوب عليها أنها تابعة لجورجيا، ولا شك في أنها من نصيبهم من الطائرات التي كان يملكها الاتحاد السوفيتي، ثم تقاسمتها الدول التي انفصلت عنه.

هذا وقد امتلأت الطائرة بالركاب، ولم يبقَ في مقاعدها مقعد خالٍ مع أنها مقاربة المقاعد، ولذلك يتضايق من يحمل شيئاً في يده مثلي، إذْ أحمل حقيبتي اليدوية لا غيرها، ولم أجد مكاناً داخل المقاعد، ورفوف

الطائرة ليس عليها أبواب، لذلك يخشى من سقوط الحقائب فيها على الركاب إذا تمايلت الطائرة.

وأكثر الركاب من أهل القوقاز الذين منهم الكرج وهم الجورجيون، يظهر ذلك من جمال في الخلقة، وقرب من سكان البلدان العربية الشمالية بالنسبة إلى الروس.

درجت الطائرة في مطار مليء بالطائرات التي كتب عليها اسم مؤسسة الطيران السوفيتية (أيروفلوت)، كأنما عرضت عرضاً لكثرتها، وبعضها يظهر عليه أنه لم يتحرك منذ مدة، وتماثل الطائرات، أو تزيد عليها كثرة أسراب من الغربان تسرح وتمرح في المطار، ولا شك في أنها تهدد الطائرات فيما إذا دخل طائر كبير في محرك الطائرة فإنه يعطله، لأن المحرك يجذبه في أول الأمر حتى يدخل في المحرك.

عندما رأيت بعض الراكبات الكرجيات، نسبة إلى جورجيا، ذكرت ما هو معروف عندنا من جمال الجواري الكرجيات، مما حدا بشعراء العامية إلى التغزل بجمالهن، وقد ذكرت شيئاً من ذلك في «معجم الألفاظ العامية». وبالمقارنة مع الروسيات، بل بمقارنة الروس بالكرج كان جمال الكرج يتمثل في تناسب الخلقة، وتقاطيع الجسم، واللون الوردي، وأما الروس فإنهم بيض، إلا أنه بياض غير رائق في أكثر الأحيان، والتناسب في تقاسيم الوجوه ليس بالكثير.

وقد كان الشعب الكرجي (الجورجي) هدفاً للمغيرين والطامعين في بلاده بدون أن يستطيع صدهم أو ردهم في أكثر الأحيان، وما بالجمال تبنى الأوطان، ونحن إنما نذكر ما شاهدناه أو استنتجناه مما شاهدناه، وأما بواطن الأمور فليست مما نتوخاه، فقد ذكر المتكلمون على جمال الخلقة في بني الإنسان أن أجمل أهل الأرض هم أهل القوقاز، وأن أجملهم

الجورجيون والشراكسة.

قامت الطائرة من مطار موسكو في الخامسة والنصف عصراً متأخرة نصف ساعة عن الموعد المحدد لقيامها في الأصل، وقد نهضت متثاقلة فلم ترتفع بسرعة كما هي عادة الطائرات النفاثة، وصارت تطير فوق ريف موسكو الأخضر الذي لا ينتفعون من خضرته بمثل ما ينتفع أهل البلاد المعتدلة بخضرة بلادهم، ذلك بأن هذه الخضرة سريعة الزوال، وهي لا تنبت ما تنبته الأرض المعتدلة من قمح أو غذاء، وإنما هو علف الحيوان، وشيء من البطاطس غير الجيد، إضافة إلى الأخشاب من الغابات الملتفة، ولذلك يرى المرء أكثر ما يرى في ريف موسكو تجمعات المنازل التي هي قرى أو شبيهة بالقرى من بيوت المنتجعات الصيفية، وأما الحقول الزراعية فإنها قليلة، وحتى الطرق الإسفلتية قليلة.

وكان الإعلان بالجورجية والروسية، لذلك لم نفهم منه شيئاً، وقد اخترقت الطائرة وهي تحلق سحاباً كثيفاً حجب عنا رؤية الأرض، مع أن الجو في موسكو اليوم معتدل، بخلاف أمس حيث كان بارداً بالنسبة إلى فصل الصيف، وقد تجولت اليوم في قلب موسكو فرأيت الناس فيها عليهم ملابس الصيف التي رقت على النساء حتى كادت لا تستر، بل صارت تظهر أكثر مما تخفي.

وقد شعرت بالضيق والتعب، لا سيما أن جاري في المقعد معه أمتعة يدوية ضيقت عليه المقعد وعليَّ، مع أن تذاكرنا التي أعطيناها الشركة هي بالدرجة الأولى قطعتها لنا الخطوط السعودية من جدة، وهذه الطائرة ليست فيها درجة أولى بل كلها سياحية ضيقة، ولم يعطونا ما يشهد بأنهم أركبونا في السياحية لنستعيد الفرق من السعودية، ولكننا في حالة نحب فيها أن نسافر إلى جورجيا بصفة عاجلة محافظة على الوقت.

وانصرف النظر إلى داخل الطائرة ليجده مزدحماً، ومستوى الركاب هو المستوى الروسي في اللباس، ومظهر الغذاء على الوجوه.

ثم قدموا الضيافة وهي خبزة سمراء مغلفة، ولحم خنزير معه جبن أصفر، حسن المنظر، لم نستطع الاقتراب منه لما قاربه من الخنزير، وزبدة. فأكلت الخبزة بالزيدة فقط، ورأيت جارتي في المقعد وهي عجوز تنظر إلى صحني الذي بقيت فيه أشياء لم تمس، فأخذته ودسته في حقيبتها.

وأما الشراب فإنه لا يوجد إلا مبيعاً، وأعجب لطائرة تبيع على ركابها الشراب، ولو كان ذلك مقتصراً على بيع المشروبات الكحولية لكان هذا الأمر موجوداً عند بعض شركات الطيران، وإن كان الأكثر منها قد تجاوزه الآن وصار يقدم المشروبات بالمجان، ولكنهم في هذه الطائرة الجورجية يبيعون الكوكاكولا والماء المعدني وشراب الفاكهة.

وأما المضيفون فإنهم امرأتان وفتى، تظهر عليهم الملامح القوقازية المميزة، وفيهم شبه من اللبنانيين لولا أن هؤلاء الجورجيين يترددون في الأمور، ولا يعملون بسرعة، والمراد بذلك ترددهم في أداء عملهم السهل المعتاد.

هذا ولا منظر خارج الطائرة، إلا منظر السماء والشمس، وأما السحاب فإنها قد تجاوزته مرتفعة فصارت تسبح في جو شامس يشبه جو بلادنا الصافي في الصيف، وهي متجهة جهة الجنوب، لأن هذا هو موقع جورجيا بالنسبة إلى موسكو، وإن كان ذلك يميل قليل إلى الشرق.

واستمر السحاب تحت الطائرة، حتى إذا وجدنا فرصة منه للإطلال على الأرض وجدنا منظرها منظر الحقول المزروعة والحقول المراحة، وهي التي تركت بدون زرع استعداداً للموسم القادم، وبعض الحقول تبدو خالية

وهي حقول قمح حصيد.

في مطار تفليس:

بدأت الطائرة التدني بعد أن قضت ساعتين إلا عشر دقائق من الطيران، وإن كانت لا تزال فوق السحاب، ومع ذلك لم نشعر بأي اهتزاز أو اضطراب أثناء التدني ولا أثناء الطيران، فهكذا الطائرات الروسية النفاثة هي أكثر ثباتاً في الجو من الطائرات الغربية النفاثة، ولا تزال إشارة ربط الأحزمة مضاءة، وظني أن ذلك منهم عدم مبالاة، لأنني رأيت الناس لا يبالون بها، فهم يقومون ويقعدون، وبعضهم يسيرون داخل الطائرة.

وكذلك ظلت إشارة (التدخين ممنوع) مضاءة، ولكنهم يدخنون لا يبالون بذلك، ولم أجد المضيفين يلقون له بالاً.

مشاعر الأسى:

كانت الطائرة تتدنى وهي تتدلى من الأعالي استعداداً للهبوط في مطار تبليس، وأنا تفكيري في واد غير الوديان التي فيها ركاب الطائرة، فكنت أفكر في هذه البلاد التي نحن قادمون عليها، وكيف كانت بلاداً عربية مسلمة لأكثر من أربعة قرون، ثم خرجت منا خروجاً كلياً، حتى أصبح قومنا المتعلمون - فضلاً عن غيرهم - لا يعرفون ذلك.

وقد اختلطت مشاعر الأسى والأسف على ذلك بمشاعر السرور والابتهاج بزيارة بلاد الكرج (جورجيا) التي لم تتسنَ لي زيارتها من قبل.

وقارنت في نفسي بين قدومي الآن لها بمنة امتن بها أهلها عليَّ بأن منحوني سمة الدخول على جوازي بالمجان لكونه جوازاً (دبلوماسياً) سعودياً، وبين قدوم أسلافنا العرب المسلمين إليها الذين قدموا إليها من

بلادهم البعيدة التي تبعد شهوراً عن منطلق الدعوة الإسلامية في مكة المكرمة والمدينة المنورة، وهم قادمون على غير ما يعرفونه من بلاد أو عباد، ويعرفون أنهم في جهاد، وأنه لا بد من حرب وجلاد.

ومع ذلك نجحوا وأفلحوا، وأدخلوا في دين الله كل هذه البلاد، وإن كانوا تركوا الخيار لمن لم يسلم من أهلها إن شاء أسلم فصار له ما للمسلمين وعليه ما عليهم، وإلا دفع الجزية التي هي أقل بكثير من ضريبة الاحتلال التي يتقاضاها الغالبون من المغلوبين على أمرهم في هذه الأزمان، بل هي أعدل أيضاً، فهي لا تؤخذ من فقير ولا عاجز عن العمل ولا عن طفل، ومع ذلك فإنها ليست بدون مقابل، وإنما هي في مقابل أن يحمي المسلمون أهل البلاد المفتوحة من غير المسلمين، ويؤمنوا السبل، ويضمنوا لهم أن لا يعتدي أحد عليهم في عرض ولا مال.

وتأملت حالنا اليوم، فآلمني أن الدهر انعكس بنا حينما عكسنا أعمالنا الصالحة إلى طالحة ﴿ إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم ﴾ فصرنا الآن نرى عرباً مسلمين تؤخذ منهم الجزية باسم الضريبة في بلادهم، يتقاضاها المحتلون لبلادهم، ومن هم أولئك المحتلون؟ إنهم أضعف الأمم، بل إنهم لم يكونوا يؤلفون أمة لقرون طويلة، إنهم اليهود المغضوب عليهم، قتلة الأنبياء، وأكلة الربا.

ومع ذلك يطيب لبعضنا لأن يهنأ بعيشه، بل أن يتبجح ويفخر بنفسه، وبقومه، ولو تأمل تاريخنا وأمعن النظر في أمجاد أسلافنا لعرف أنه ينبغي أن يخجل من نفسه، وأنه يسعى لتصحيح يومه ليكون كأمسه، ولا حول ولا قوة إلا بالله العظيم.

وفيما يتعلق بهذه البلاد الجورجية بالذات صرنا لا نعرفها إلا بأنها

التي كانت تجلب منها الجواري الجميلات، والجميع يعرفون أنهن لم يسبين في حرب، وأنهن حرائر من الحرائر غير المسلمات، مثلهن مثل الأوربيات والأمريكيات.

واخترقت الطائرة طبقة السحاب التي تلي الأرض فاتضحت المنطقة، منطقة حقول من القمح الحصيد.

وحولها بحيرة لا نعرف عنها شيئاً، لأنهم لم يوضحوا شيئاً من مكبر الصوت أو نحوه في الطائرة، وحتى لو كانوا تكلموا فإن ذلك سيكون بلغتهم أو بالروسية، وهو ما لا نفهمه، وكان الأولى وهم يحملون سياحاً أن يكون لهم إعلان بالإنجليزية ولو كان مختصراً.

ورأينا نهراً يجري في وادٍ من أرض جبلية، ثم أصبحت المنطقة جبلية، ولا غرو في ذلك، لأن جورجيا كلها واقعة في منطقة جبال قبج كما كان أسلافنا العرب يسمونها، وهي بلاد القوقاز كما تعرف الآن.

واستمر النهر يجري وكأنما كنا نطير في اتجا سيره، فهبط من أرض جبلية غير عالية كلها معمورة بالزراعة، حيث كثرت القرى حوله.

وقد وصلنا إلى منطقة جبلية تشبه الجبال التي رأيتها في داغستان، حيث زاد ارتفاعها، وصارت الغابات تجلل سفوحها، والوديان الضيقة بينها.

ثم تجاوزت الطائرة الجبال العالية متجهة جهة الجنوب فوق سفوح جبلية خضر غير مرتفعة، حيث بانت مدينة تفليس التي نقصدها، وكان أكثر الأبنية فيها ظهوراً (العمارات) الضخمة التي بنتها الحكومة الشيوعية شققاً صغيرة للإسكان العام، حيث لا يستطيع الشخص أن يبني لنفسه بيتاً منفرداً في المدينة.

وانحدر نهر إلى الجزء القديم من المدينة في وادٍ متسع نوعاً ما، وما

زالت الطائرة مرتفعة وهي تقصد المطار، لذلك تمكنا من رؤية المدينة وما حولها، ومن ذلك جزء من المدينة متعلق بسفح جبل أخضر، وأجزاء أخرى منها خارج الوادي الذي فيه المدينة القديمة.

ومن المناظر الجميلة منظر جبل أخضر غير عالٍ، ولكنه قاتم الخضرة يشرف من جهة الجنوب على المدينة القديمة.

وقد بدت مدينة تفليس واسعة متعددة الضواحي، ممتدة في عدة اتجاهات، كما اتسع النهر وهو الوادي الذي يسير فيه النهر حيث بدت خصوبته من الخضرة حوله.

هبطت الطائرة في مطار تفليس في الساعة السابعة والنصف وخمس دقائق، ومازالت الشمس حية بعد طيران استغرق ساعتين وخمس دقائق.

وهو مطار واسع المساحة، والمراد بذلك ساحات وقوف الطائرات طويل المدارج، تحف بمدارجه أعشاب برية غير كثيفة ولا نضرة، بل بعضها مصفر لقلة المطر أو لحرارة الجو، لا سيما أننا قادمون من موسكو حيث الأعشاب البرية هناك خضر كثيفة، كما أن المدارج نفسها ليست سلسة تحت عجلات الطائرة، بل تبدو كما لو كانت أرض المدرج خشنة.

وعندما وقفت الطائرة رأيت موظفة في الطائرة تدخن داخل الطائرة قبل أن ينزل الركاب، ورجلاً أخر يدخن أيضاً، ولكن لا أدري أهو من الملاحين أم من غيرهم.

هذا والناس كلهم وقوف متراصون في الممرات قبل أن يفتح باب الطائرة للنزول.

أغرب مكتب للجوازات:

خرج الركاب من الطائرة بدون نظام، ووجدنا عند بابها قبل النزول في السلم، بل في أعلاه ضابطين من ضباط الجوازات ينظران في جوازات الركاب، فإن كان الراكب من أهل البلاد تركوه يمر بدون ختم بعد أن يلمحا جوازه، وإن كان أجنبياً، وغالباً ما يكون الأجنبي من الروس أو مواطني الدول التي كانت سوفيتية، ختموا على جوازه، كل ذلك وهما واقفان، ولا توجد منضدة للكتابة، وإنما يعتمد الضابط على كفه إذا أراد ختم الجواز أو الكتابة عليه. رأى أحدهما جوازاتنا فأراها الآخر، فبحث حتى وجد سمة الدخول التي حصلنا عليها من سفارتهم في موسكو اليوم، فختم جوازاتنا ونزلنا مع سلم الطائرة، فوجدنا على الأرض ثلاثة ضباط واقفين أيضاً عند سلم الطائرة اطلعوا على جوازتنا وقيدوا ما تحتويه في أوراق معهم، ثم أعطونا إياها. وهذا آخر إجراء في المطار وأوله، لأن الدول التي كانت داخلة تحت الاتحاد السوفيتي واستقلت قد اتفقت فيما بينها على إزالة الحواجز الجمركية، أي ليس هناك تفتيش أو مراقبة جمركية بينها.

تركنا الطائرة نسير على أقدامنا بعد أن سألنا مضيفة أرضية عن كيفية الحصول على حقائبنا فقالت: اذهبوا وسنحضرها لكم.

ولما وصلنا أبواب قاعة الوصول اعترضنا عدة أشخاص يعرضون سيارة الأجرة، وقال أحدهم: سوف أذهب بكم إلى الفندق بـ٢٥ دولاراً أمريكية، فقلنا: هذا كثير، فقال: بعشرين.

ولم أثق بكلامه حيث كان طلب مبلغاً رضي بدونه مما يدل على أنه كان قد زاد في السعر أولاً، وكان عدد من الضباط كبيري الرتب قد اصطفوا أسفل سلم الطائرة ومعهم بعض الجنود لغرض المحافظة على الأمن

إن استدعى الأمر كما فهمنا ، قد جاءوا إلى المكان الذي نحن فيه من باب قاعة الوصول مما يلي المطار ، فسألتهم من باب التوثيق عن الفندق المناسب في المدينة وعن أجرة النقل إليه ، وهنا قال سائق التاكسي: سأنقلكم إلى هذا الفندق بخمسة عشر دولاراً أمريكياً ، فقال كبير الضباط: سيأخذكم هذا الضابط ، ويكون كالتاكسي بخمسة عشر دولاراً إلى الفندق.

وقد سررنا بذلك ، لأننا لم نكن على ثقة من حالة الأمن ، والذهاب مع ضابط بلباسه العسكري وسيارته الرسمية أفضل.

حمل الضابط إحدى حقائبنا ، وحملنا الباقي إلى حيث سيارته.

وسألته بالإشارة وبكلمات لاتينية كثيراً ما تكون أو ما يكون بعضها بالروسية عن المسافة ما بين المطار والمدينة فأجاب: إنها ثلاثون كيلومتراً.

لقد شعرنا بالأمان معه ، ولكنني تحفظت فلم أخرج المصورة من غمدها حذراً من أن يفسر التصوير على أنه لغرض من أغراض غير مشروعة.

ولاحظت من ألوان الجميع أنهم أقرب إلى السوريين واللبنانيين من الروس والأوكرانيين ، إلا أنهم أصفى ألواناً من العرب الشماليين ، وأكثر بياضاً ، وفي أجسامهم سِمَنٌ.

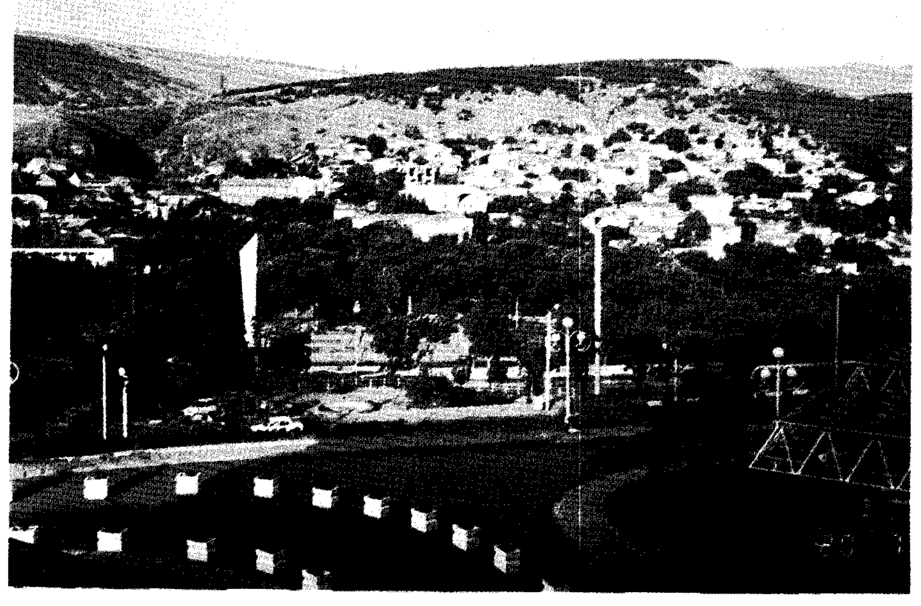
في مدينة تفليس:

سار الضابط بسيارته مع طريق ضيق ، ما لبث أن اتسع ، وقد رأينا الشرطة يوقفون السيارات في الطريق من السيارات الخاصة وسيارة الأجرة ،

وأما سيارتنا فلم يوقفوها لكونها سيارة ضابط معروف لهم.

وقد صار الطريق ينحدر منذ فارقنا المطار الذي يقع في مكان مرتفع بالنسبة إلى موقع مدينة تفليس القديمة التي هي في وادٍ منخفض، ولكن كل شيء حولك من المناظر التي تحيط بالمدينة جميل، إذْ يطل عليها من جهة الجنوب الغربي جبل معترض مثلما يطل جبل قاسيون على دمشق، إلا أنه خَضِر نَضِر.

ورأينا أحياء المدينة قد خرجت من الوادي الذي فيه القسم القديم منها إلى سفوح أماكن مرتفعة تقع فوقه.



صورة لجانب من تفليس التقطتها من شرفة غرفتي في الفندق

ووقف الضابط عند فندق فخم جميل يقع على مرتفع إلى الشمال من المدينة القديمة، ويطل عليها وعلى واديها العميق، ومقابلاً لهذا الجبل الأخضر الذي يقع إلى الجنوب منها، واسم الفندق (ميتيشي) وهو من

مجموعة فنادق ماركومولو الأسترالية، وقد كتبوا عليه مستواه، وانه ست نجوم، وهذه أول مرة أنزل فيها في فندق من ذوات النجوم الست بدلاً من الخمس نجوم المعتادة، إلا إذا كنت نزلت في شي منها، ولم أفطن لرقمه النجمي.

والحقيقة أن الفندق يستحق أن يكون أعلى من ذلك، لأن كل ما فيه أعلى مما هو في الفنادق العالمية المشهورة مثل هيلتون وإنتركونتننتال، ما عدا السعة، فباحاته الداخلية غير واسعة، ولكنه مبني بطريقة جميلة جيدة، حتى إن مصاعده من الزجاج المذهب في الجهة التي تقابل القاعة التي فيها مكتب الاستقبال في الفندق، وكنت رأيت مثل ذلك في فنادق (حياة ريجنسي) المشهورة.

وأجرته على مستواه، فهي (٢٢٠) مائتان وعشرون دولاراً أمريكية، نقصوا منها ٢٠٪ من أجل الجواز (الدبلوماسي) الذي نحمله.



تفليس من بوابة فندقي فيها

ومن الاحتياطات فيه أنهم جعلوا في داخله عند الباب بوابة فيها فاحص كهربائي، لا يستطيع أي داخل للفندق إلا أن يمر تحتها هو وأمتعته ليتأكدوا من كونه لا يحمل أسلحة أو أدوات حادة، وعندها موظفان بلباس الحرس، وذلك كله للمحافظة على سلامة النزلاء.

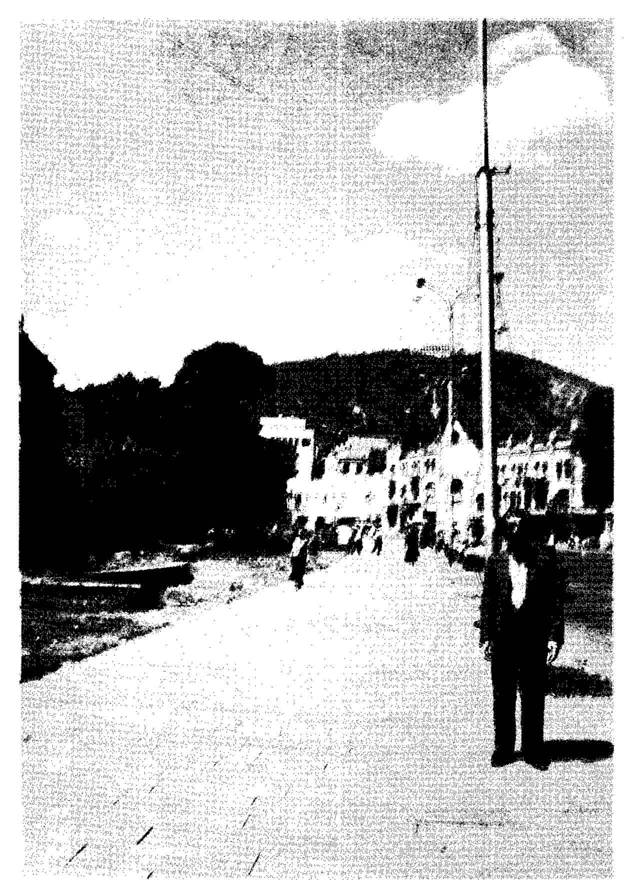
أما باحته الداخلية والغرف مع أروقتها التي تطيف بها فإنها عشر طبقات، وفي وسطها فسقية وهي البركة الصغيرة، فهو ذو طراز فريد، مثل كونه ذا موقع جميل متميز، وقد طلبت الموظفة دفع أجرة يوم واحد مقدمة قبل أن تعطينا مفاتيح الغرف.

وكانت غرفنا في الطابق الرابع ذوات شرفات تطل على المنظر الجنوبي الجميل.

ومع ذلك فيه وجه نقص ظاهر، فقد أردنا أن نتصل هاتفياً بمفتي أجاريا، وهو الإقليم المسلم ذو الاستقلال الذاتي داخل جورجيا، وأغلب أهله مسلمون، فذكرت موظفة الفندق أنه لا يمكن الاتصال من الفندق إلا داخل مدينة تفليس، وأما خارجها فلا، وإنما يمكن أن تذهبوا إلى مكتب البريد في المدينة، وتستطيعون منه أن تتصلوا بباطومي، وهي عاصمة إقليم أجاريا الذي هو أحد أقاليم جورجيا.

وسألنا عن سيارة أجرة توصلنا إلى مكتب البريد في داخل المدينة فقال أحد الموظفين: أنا تاكسي، وهو ليس كذلك، وإنما أراد الانتفاع بالأجرة مثلما فعل الضابط الذي نقلنا من المطار إلى المدينة بخمسة عشر دولاراً، وتبين لنا بعد ذلك أنها هي الأجرة المقررة لهذه المسافة.

ركبنا مع موظف الفندق، ولا يعرف أي حرف من اللغات التي نعرفها إلا حروفاً متنافرة من الإنكليزية، لا يستطيع أن يركب منها جملة مفيدة.



المؤلف في مدينة تفليس

ولم نستطع الاتصال أيضاً بباطومي حتى من مكتب البريد الذي أعطانا الخط، ولكن هاتف المنتي لم يجب، فرجعنا إلى الفندق وقد قاربت الساعة أن تصل إلى الثانية عشرة منتصف الليل، والناس في الشوارع في هذه الساعة، ولم نجد في مكتب البريد كثير أناس، وكلهم يرتدون الملابس الصيفية الخفيفة، وهي القميص قصير الكمين، والسروال الغليظ (البنطال).

يوم الخميس: ٢٢/ ٢/ ١٤١٦هـ - ٢٠/ ٧/ ١٩٩٥م.

صباح تفليسي:

وكدت أكتبها تبليسي فراراً من لفظة (تفليس) التي تدل في العربية على الإفلاس، وعدم الحصول على المطلوب، وتفليس في لغتهم تبليسي، ووجدت أن معناها بالعربية: أفظع من معنى تفليس، لأنه لو كان عربياً لكان مشتقاً من الإبلاس وهو الخيبة واليأس من جهة، ومنه اشتق اسم إبليس.

وعلى أية حال فإن اللفظ غير عربي، وقد أخذه أسلافنا العرب عن أسلاف هذه البلاد فصبوه في قالب يتماشى مع قوالب العربية.

وسيأتي ذكر معنى الاسم، وسبب التسمية فيما بعد بإذن الله.

خرجت إلى شرفة الغرفة بعد شروق الشمس، فكان المنظر بديعاً هو منظر الوادي الذي تكاد تغوص فيه مدينة تفليس مع نهرها الذي يجري في الوادي، والجبل الأخضر الأنيق، وشيء غريب في الشرفة وهو أن طيوراً مهاجرة قد بنت أعشاشها في الشرفة، وهي الخواطِف -جمع خاطوف- الطائر الذي لا يكاد يرى واقعاً على الأرض في بلادنا، بل هو مستمر في التحليق كما نراه، وقد رأيت الآن منه أسراباً تحلق في الجو وتنزلق على الهواء بمرح، وبقايا قلاع قديمة على متن الجبل الأخضر، فكأنما جمع التاريخ القديم والحديث ممثلاً في هذا الفندق ذي النجوم الست.

وأما المنازل التي ترى من هذه الشرفة فهي مجموعة من (العمائر) البيض، وبيوت منفردة ذات سقوف من الأجر الأحمر، أو الصفيح الأبيض في صفوف منتظمة.



صورة من شرفة الفندق في تفليس لجزء من المدينة

والشمس صاحية والجو ربيعي جميل، وإن كانوا يعتبرونه صيفياً حاراً، لأن درجة الحرارة قد لامست ظهر أمس الثلاثين.

وهذه المناظر الطبيعية وما فيها من منشآت يتجلى فيها الجمال أكثر مما تتجلى الفخامة، ثم كان طعام الإفطار في مطعم الفندق سخياً وافراً، ذكرني بفنادق البرازيل عمرها الله تعالى، وذلك خلاف جميع البلاد الروسية التي مررنا بها في هذه السفرة التي لا تكون فيها موائد الإفطار مفتوحة، بل لا يكون في أكثرها مطاعم لتناول الفطور، وإنما هي المقاصف أو الأماكن الصغيرة، وكلها تبيع الإفطار بيعاً، أما في هذا الفندق فإن الإفطار داخل في أجرة الغرفة، والعاملات هنا يتحلين بذوق رفيع، وقد اختاروهن من غير الطراز الروسي الثقيل من عاملات الفنادق والمحلات العامة.

سمعنا في المطعم قوماً يتكلمون العربية فقال شاب منهم إنه لبناني اسمه روجيه مطر، وأنه مقيم في هذه البلاد، وإن لديه مكتباً في المدينة، وإنه مستعد لأن يطلعنا على ما نريد الاطلاع عليه فيها بعد أن ينتهي موعده من مقابلة حكومية مع هؤلاء السادة يقصد الذين معه، ولا يكون ذلك إلا بعد الثانية عشرة، ثم أعطانا عنوانه وهاتفه وقال: سأمر بكم بنفسي في الثالثة من بعد الظهر، ولكن الوقت ثمين بالنسبة إلينا، ولا نريد أن نبقى إلى الثالثة من دون فائدة.

جولة في مدينة تفليس:

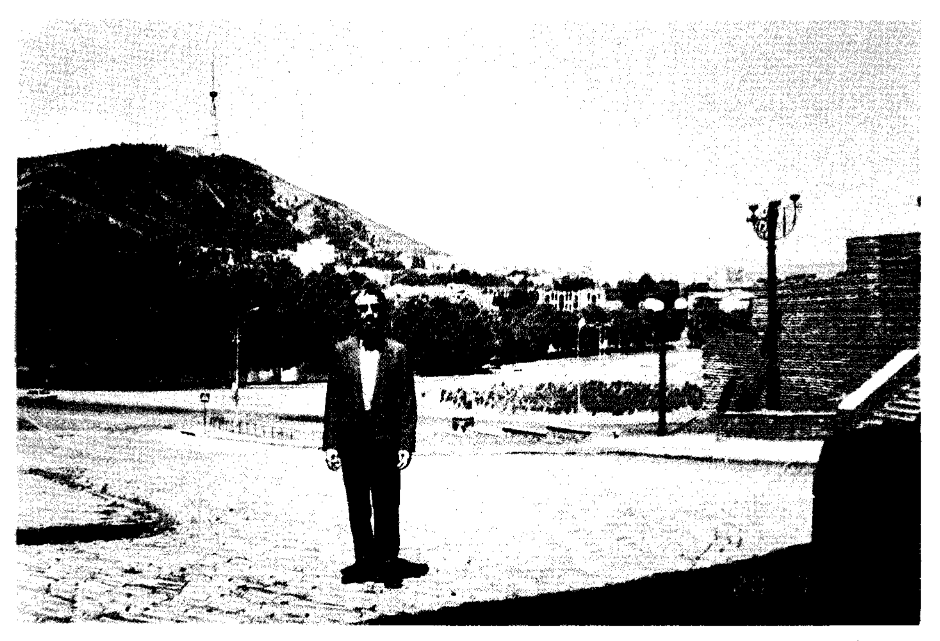
طلبنا من إدارة الفندق أن تنظم لنا جولة مع دليل سياحي يعرف بالإنكليزية، وليكن ذلك عاجلاً لأننا سوف نذهب إلى إقليم أجاريا الذي يسكنه المسلمون، وقد جئنا إلى جورجيا من أجل زيارتهم والاطلاع على أحوالهم، ومساعدة مشروعاتهم الإسلامية.

وقد بدأت الجولة على سيارة صغيرة لمكتب سياحي فيها سائق لا يعرف شيئاً من اللغات، ودليلة سياحية مهذبة تجيد الإنكليزية إجادة تامة، وهي خبيرة بما نريد أن نعرفه من أمور هذه البلاد، وكان انطلاقنا للجولة في العاشرة والنصف.

تاريخ المدينة ومعنى اسم الدولة:

أوقفت الدليلة السيارة في منطقة مرتفعة بالنسبة إلى المدينة القديمة وواديها الضيق الذي يجري فيه نهرها، فهي تطل عليها إطلالاً وهي منخفضة عن الجبل الأخضر وما في متنه من أبنية قديمة وحديثة، ومن أقدم الأبنية فيه بقايا قلعة فارسية، ذكرت الدليلة أن تاريخها يرقى إلى

القرن الخامس الميلادي وأنها تسمى (ناركالي)، ومما يجدر ذكره أن الفرس دخلوا المنطقة أكثر من مرة، وربما هذا التاريخ تاريخ أول بناء لهذه القلعة، ثم جددت بعد ذلك.



المؤلف في المرتفع الذي يطل على تفليس القديمة

ومن الأبنية الحديثة المهمة التي ترى من هذا المكان مرتفعة عن هذه المنطقة المرتفعة منظر مسجد ذي قبة ومنارة شامختين، لكون موقعه مرتفعاً، وسوف يأتي الكلام عليه فيما بعد عندما نزوره إن شاء الله.

والحداثة هنا نسبية، ذلك بأنه قد أسس قبل الثورة الشيوعية، وقد مضى على بنائه مائة سنة على وجه التقريب.

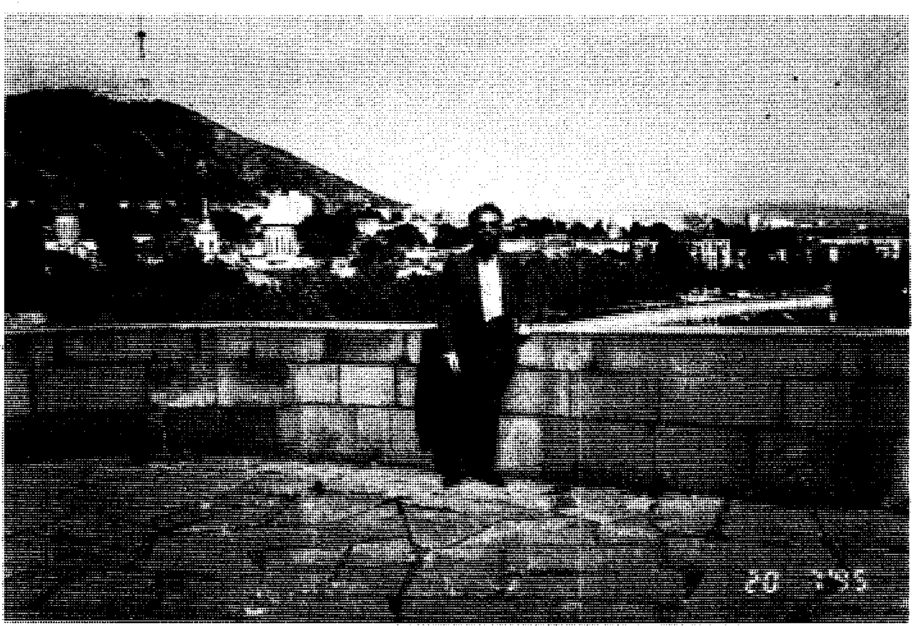
ومن مناظر الأبنية الحديثة أيضاً حداثة نسبية منظر كنيسة شامخة معتنى بها، وقد بنيت في القرن التاسع عشر.

وسألتها بهذه المناسبة عن المساجد والآثار الإسلامية من العهد العربي

أبقي منها شيء معروف؟

فذكرت أنه لم يبقَ منها، وأن آخر ما بقي منها هدمه الشيوعيون أو غيروا معالمه، مع أن الذي نعرفه من تاريخنا أنها كانت كثيرة منتشرة في البلاد.

ولا شك عندي في أنها تقصد بذلك المساجد والآثار الإسلامية التي بنيت في العهد الإسلامي تحت الحكم التركي، وأما الحكم العربي فإنه قديم العهد مضى عليه نحو ثمانمائة سنة، وتولى الحكم بعده مسيحيون متعصبون تعمدوا محو أثره، ثم تعاقبت أمم على حكمها، منها أمم إسلامية ومنها غير ذلك، ولكن الحكم الإسلامي فيها لم يلبث فيها في الطول والشمول كما لبث الحكم العربي الأول، كما سبق لنا ذكر ذلك في النقل عن المصادر العربية.



المؤلف في المرتفع السياحي في تفليس

وتحدثت الدليلة عن إنشاء مدينة تفليس نفسها، فذكرت أنها أنشئت

في القرن الخامس الميلادي، وأن سبب إنشائها أن أحد الملوك أصيب بجرح لم يستطع أطباء زمانه له دواء، فجاء إلى عين حارة في هذا المكان، ولبث فترة يداوي جرحه بمائها الحار حتى شفي، فاختارها مكاناً لعاصمته، وكانت العاصمة قبل ذلك تقع على بعد ٢٧ كيلومتراً من تفليس، وسماها (تبليس) بمعنى الينبوع الحار، يريد مدينة الينبوع الحار. وذلك في القرن الخامس الميلادي كما سبق.

وأما العاصمة القديمة التي تبعد ٢٧ كيلومتراً عن تفليس، فإنها أسست في عام أربعمائة قبل الميلاد، وظلت عاصمة للمنطقة حتى إنشاء مدينة تفليس، قالت: وقبل ذلك لا نعرف شيئاً عن مدينة هنا أقدم من ذلك.

أقول: الينبوع الحار الذي ذكرته، وأن المدينة سميت به، ذكره أسلافنا العرب، بل نوّهوا بذكره حتى قالوا: إن دخوله كان مقتصراً عليهم دون غيرهم، وسيأتي نقل ذلك عن ياقوت الحموي رحمه الله.



طراز البيوت القديمة في تفليس

وعندما انتهينا من الحديث عن اسم المدينة وتاريخها ، انتقلنا إلى الحديث عن اسم البلاد (جورجيا)، وكنت ظننت من قبل أن قومنا أسموها بلاد الكُرْج بضم الكاف وإسكان الراء تحريفاً للاسم القديم (جورج)، ولكن تبين أن الأمر ليس كذلك.

قالت الدليلة وهي مختصة بهذه الأمور، مطلعة على خلفياتها: أخذ اسم جورجيا من لفظ (سان جورج)، وذلك في القرن الرابع الميلادي، عندما اعتنق أهل البلاد الديانة المسيحية، أما قبل ذلك فإن اسمها كان (سكرس بيلي).

وأما لفظ (كُرْج) فإن الفرس هم الذين أطلقوه اسماً على هذه البلاد، وأصله مأخوذ من لفظ (كرستيان) بمعنى مسيحي.

أقول: وعنهم نقل قومنا العرب هذا الاسم عندما فتحوا البلاد.

قالت: وأما الروس فإنهم أسموها (قروزيا) ولا يزال.

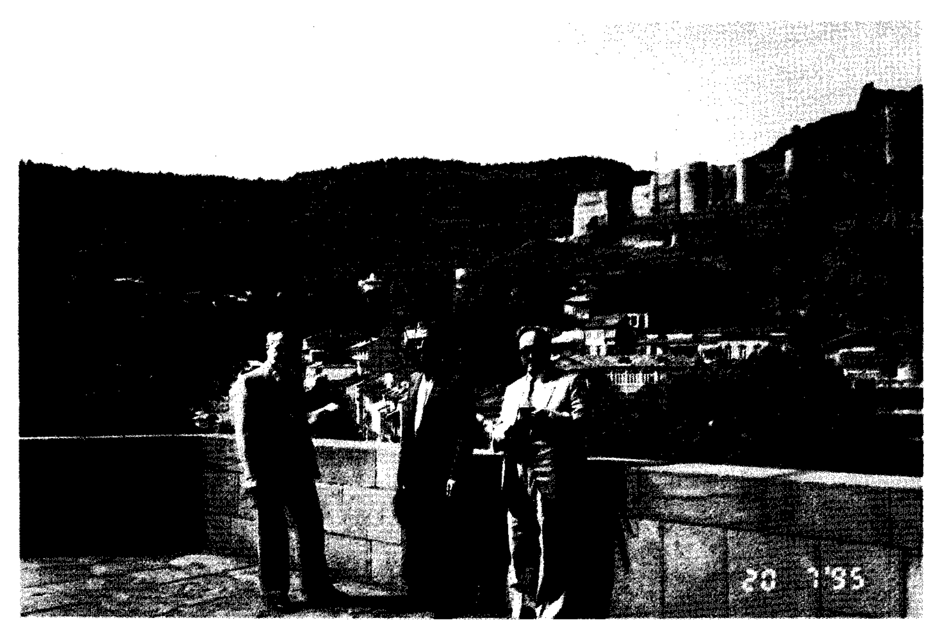
وقد سألتها عما إذا كانت تعرف شيئاً عن تاريخ العرب في هذه البلاد وقد امتد حكمهم لها أربعمائة سنة، وكان حكماً عادلاً لم يقصد منه التسلط والسيطرة، وإنما هو هداية الناس إلى دين الله، والسير بهم على طريق العدل والإحسان.

فذكرت أنها لا تعرف شيئاً بالتفصيل لكونها نشأت في حكم شيوعي علمهم أكثر ما علمهم تاريخ الشيوعية وزعمائها، ولم يهتم حتى بالتاريخ الوطني للبلاد.

وسألتها عما تعرفه عن عدد المسلمين هنا فأجابت: إنها لا تعرف، لأن الشيوعيين لم يكونوا يهتمون بالدين، ولكنها تعرف أنه يوجد مسلمون بالآلاف من جورجيين وأذربيجانيين وغيرهم.

قالت: إنها تعرف أن جد عمتها كان مسلماً ويعرف التركية، وهو جورجي أصلي من أجاريا.

ولم تذكر شيئاً عن المسلمين الذين يؤلفون أغلبية السكان في إقليم أجاريا المتمتع بالحكم الذاتي داخل جمهورية جورجيا، وسوف نزوره فيما بعد إن شاء اللّه تعالى زيارة موسعة.



مع الرفيقين في المكان الذي تشرف عليه الآثار القديمة كالقلعة الفارسية في الأعلى وجامع تفليس أخفض منها

هذا ويبلغ عدد سكان مدينة تفليس مليونا ومائتي ألف نسمة من مجموع سكان جمهورية جورجيا الذين يصل عددهم إلى أربعة ملايين نسمة.

قال ياقوت الرومي:

تفليس - بفتح أوله ويكسر -: بلد بأرمينية الأولى، وبعض يقول

بأرّان، وهي قصبة ناحية جُرْزان قرب باب الأبواب، وهي مدينة قديمة أزلية، طولها اثنتان وستون درجة، وعرضها اثنتان وأربعون درجة. قال مِسْعَر بن مُهَلْهل الشاعر في رسالته: وسِرْتُ من شِرْوان في بلاد الأرمن حتى انتهيت إلى تفليس، وهي مدينة لا إسلام وراءها، يجري في وسطها نهر يقال له الكُرُّ يصبُّ في البحر، وفيها غروب تطحن، وعليها سور عظيم، وبها حمامات شديدة الحر لا توقد ولا يستقى لها ماء، وعلّتها عند أولي النَهْم تغني عن تكلف الإبانة عنها، يعني أنها عين تنبع من الأرض حارة، وقد عمل عليها حمام، فقد استغنت عن استسقاء الماء، قلت: هذا الحمام حدثني به جماعة من أهل تفليس، وهو للمسلمين لا يدخله غيرهم.

وافتتحها المسلمون في أيام عثمان بن عفان ﷺ، كان قد سار حبيب بن مَسْلمة إلى أرمينية فافتتح أكثر مدنها، فلما توسطها جاء رسول بطريق جُرزان، وكان حبيب على عزم المسير إليها، فجاءه بطريق يسأله الصلح وأماناً يكتبه حبيب لهم، قال: فكتب لهم: أما بعد، فإنَّ رسولكم قدم عليَّ وعلى الذين معي من المؤمنين فذكر عنكم أنكم قلتم: إننا أمة أكرمنا الله وفضّلنا، وكذلك فعل الله بنا والحمد لله كثيراً، وصلى الله على سيدنا محمد نبيه خير البرية من خلقه، وذكرتم أنكم أحببتم سلمنا، وقد قوّمت هديتكم وحسبتها من جزيتكم، وكتبت لكم أماناً واشترطت فيه شرطاً، فإن قبلتموه ووفيتم به، وإلا فأذنوا بحرب من الله ورسوله، والسلام على من اتبع الهدى.

وكتب لهم مع ذلك كتاباً بالصلح والأمان، وهو: بسم الله الرحمن الرحيم، هذا كتاب من حبيب بن مَسْلَمة لأهل تفليس من رستاق مَنْجَليس من جُرْزان الهرمز بالأمان على أنفسهم وبيعهم وصوامعهم وصلواتهم ودينهم على الصغار والجزية على كل بيت دينار، وليس لكم أن تجمعوا بين

البيوتـات تخفيفـاً للجزيــة، ولا لنــا أن نفـرق بينـها اسـتكثاراً لهـا، ولنـا نصيحتكم على أعداء الله ورسوله ما استطعتم، وقِرَى المسلم المحتاج ليلة المعروف من حلال طعام أهل الكتاب لنا، وإن يقطع برجل من المسلمين عندكم فعليكم أداؤه إلى أدنى فئة من المسلمين إلا أن يحال دونهم، فإن أنبتم وأقمتم الصلاة فإخواننا في الدين وإلا فالجزية عليكم، وإن عرض للمسلمين شغل عنكم فقهركم عدوُّكم فغير مأخوذين بذلك ولا هو ناقض عهدكم، هذا لكم وهذا عليكم، شهد الله وملائكته، وكفى بالله شهيداً.

ولم تزل بعد ذلك بأيدي المسلمين، وأسلم أهلها إلى أن خرج في سنة ٥١٥ من الجبال المجاورة لتفليس يقال لها جبال أبخاز جيلٌ من النصارى يقال لهم الكُرْج في جمع وافر، وأغاروا على ما يجاورهم من بلاد الإسلام، وكان الولاة بها من قبل الملوك السلجوقية قد استضعفوا لما تواتر عليهم من اختلاف ملوكهم، وطلب كل واحد الملك لنفسه، وكان في هذه السنة الاختلاف واقعاً بين محمود ومسعود ابني محمد بن ملكشاه، وجعلها الأمراء سوقاً بالانتماء تارة إلى هذا وأخرى إلى هذا، واشتغلوا عن مصالح الثغور، فواقع الكرج ولاة أرمينية وقائع كان آخرها أن استظهر الكرج وهزموا المسلمين، ونزلوا على تفليس فحاصروها حتى ملكوها عنوة، وقتلوا من المسلمين بها خلقاً كثيراً، ثم ملكوها واستقروا بها وأجملوا السيرة مع أهلها وجعلوهم رعية لهم، ولم تزل الكرج كذلك أولي قوة وغارات على المسلمين، تارة إلى أرّان ومرة إلى أذربيجان، ومرة إلى خلاط، وولاة الأمر مشتغلون عنهم بشرب الخمور وارتكاب المحظور، حتى قصدهم جلال الدين منكبرني بن خوارزم شاه في شهور سنة ٦٢٣ وملك تفليس، وقتل الكرج كل مقتلة، وجرت له معهم وقائع انتصر عليهم في

جميعها، ثم رتب فيها والياً وعسكراً وانصرف عنها، ثم أساء الوالي السيرة في أهلها فاستدعوا من بقي من الكرج وسلموا إليهم البلد، وخرج عنه الخوارزمية هاربين إلى صاحبهم، وخاف الكرج أن يعاودهم خوارزم شاه فلا يكون لهم به طاقة فأحرقوا البلد، وذلك في سنة ٦٢٤، وانصرفوا، فهذا آخر ما عرفت من خبره.

وينسب إلى تفليس جماعة من أهل العلم، منهم: أبو أحمد حامد بن يوسف بن أحمد بن الحسين التفليسي، سمع ببغداد وغيرها، وسمع بالبيت المقدس أبا عبد الله محمد بن علي بن أحمد البيهقي، وبمكة أبا الحسن علي بن إبراهيم العاقولي، روى عنه علي بن محمد الساوي، قال الحافظ أبو القاسم: حدثنا عنه أبو القاسم بن السوسي، وخرج من دمشق سنة ٤٨٣.

وقال صاحب الروض المعطار:

تفليس: أول حدود أرمينية، بينها وبين قالي قلا أربع مراحل، وهي على نهر، وبها سوران من طين، وهي في غاية من الرفه والخصب، وأهلها أهل مروات، ولها حمّامات مثل حمّامات طبرية، مياهها حامية من غير أن يوقد عليها نار، وأسعارها رخيصة، والعسل والسمن بها كثيران جداً.

وفي سنة ثمان عشرة وستمائة استولى التتار على مدينة تفليس، وكانت قبل للمسلمين وأكثر منازلها من خشب، فأطلقوا فيها النار حتى صارت جمرة واحدة.

الديانة في جورجيا:

ذكرت الدليلة أن في جورجيا ٢٧ مذهباً من المذاهب الدينية، ولا شك في أن هذا إحصاء شيوعي قصد منه تهوين أمر الدين، وأن المتدينين متفرقون فرقاً كثيرة مما يصلون به إلى أنه ينبغي على الشعب أن يترك

الدين ويعتنق الشيوعية التي هي مذهب واحد كما يزعمون.

وقد سقطت الشيوعية الآن، وسقطت معها حججها الواهية التي تبرر بها الإلحاد ومحاربة الأديان. ولم نطلع من الدليلة على تفصيل هذه الديانات أو المذاهب الدينية السبعة والعشرين.

ولكنها قالت: إن سكان البلاد يتألفون من ٦٧٪ من الأرثوذكس، ويليهم في الكثرة الأرمن حيث يؤلفون ٧٪ من مجموع السكان.

أقول: هذا ناشئ من قرب أرمينيا، بل مجاورتها لها، حتى عد بعض مؤرخينا القدماء جورجيا جزءاً من بلاد أرمينية، وذكروا مدينة تفليس في هذا الصدد، وأنها مدينة في أرمينية.

ولا شك في أن اسم أرمينية قد توسع وتقلص مرات عديدة على مدى السنين، نتيجة للحروب، وتداول الدول وما كان في وقت من الأوقات أضيق منه الآن إذا اعتبرنا هذه القطعة من الأرض التي تقوم عليها الآن جمهورية أرمينيا النى كانت إحدى جمهوريات الاتحاد السوفيتي السابق، واستقلت عنه أخيراً.

ومن المعلوم تاريخياً أن أرمينيا كانت أرضاً إسلامية عربية، غير أن الأرمن ارتدوا وانقلبوا على المسلمين، حتى حاربوا المسلمين في العصور الوسيطة أكثر مما حاربتهم أية أمة من الأمم المجاورة لهم.

وقالت الدليلة وهي تشير إلى جهة المسجد: إن الأديان تتعايش هنا بسلام، ويمكنكم مشاهدة المعابد للأديان المختلفة، فهذا المسجد غير بعيد عن الكنيسة، وهناك معبد يهودي وأشارت إلى مبنى أبيض الطلاء أحمر السقف ليس جيد المظهر، وقالت: هذا مركز لليهود القدماء من أهل جورجيا، وهناك معبد آخر لليهود .

وذكرت بهذه المناسبة أن اليهود يؤلفون ١٪ من مجموع شعب جورجيا، وأنهم كلهم من القدماء في البلاد، وانهم الآن قد انخفضت نسبتهم هناك لأن بعضهم هاجر عن البلاد في الأزمنة القريبة.

ثم عادت لتقول: إن المسيحيين هنا ذوو مذاهب متعددة، ولكل منهم كنيسة، فهناك كنائس الكاثوليك والبروتستانت والأرثوذكس.

دين الدليلة:

سألت الدليلة بهذه المناسبة عن دينها، بمعنى ما تعتقده هي، وليس دين أبويها، فذكرت أنها نشأت شيوعية لا تؤمن بأي دين، وأنها لا تعرف الله - والعياذ بالله- كما أنها لا تذهب إلى الكنيسة، ولا تؤدي أي شعيرة من شعائر الدين المسيحي الذي كان دين أجدادها.

وقالت: إن أبويها لا يمارسان أي شعيرة، وليسا متدينين، لكنهما يذكران أن جدها كان يذهب إلى الكنيسة ويؤدي الشعائر الدينية المسيحية.

فسألتها عما إذا كانت قرأت شيئاً عن الإسلام فأجابت: لا، فقلت لها: إننا على استعداد لأن نرسل لك بالبريد كتباً إسلامية بالإنكليزية لأنها تجيد الإنكليزية، فقالت بطريق المجاملة: شكراً. هذا وهي جورجية أصيلة في منتصف العمر اسمها (كيما ليشفلي).

وتذكرتِ الآن أنها كانت قد رأت في خريطة أثرية مواقع ثلاثة أو أربعة مساجد في تفليس، إلا أنها لا تدري كيف تهتدي لتلك الخريطة، وأنها لا تعرف الآن إلا هذا المسجد الذي نراه الآن. وسوف نزوره فيما بعد بإذن الله.

وهـذا الـذي ذكـرتـه كلـه يـراه المـرء مـن هـذا المرتفـع مرتفعـاً عنـه أو مساوياً له، ولكنـه يـرى مـن الجـانب الآخـر مـن هـذه المنطقـة المرتفعـة الـتي يصح أن تسمى بالسياحية، لأنه لا بد للسـائح مـن رؤيتـها إذا كـان يريـد أن يرى البلد، فيرى من جهة الشمال مدينة تفليس القديمة من وادٍ ضيق يشقه نهر (كُورَى) هكذا يلفظون باسمه بضم الكاف وفتح الراء وهو الاسم الذي ذكره به أسلافنا العرب في كتبهم قبل ألف سنة بلفظ كُرّ، قال ياقوت الحموي في معجم البلدان:

كُرّ: - بالضم، والتشديد - بلفظ الكُرّ من الكيل المعلوم وهو ستون قفيزاً، والكُرّ في اللغة: الحِسْيُ العظيم، والجمع كِرَارٌ، قال:

بها قُلُبٌ عاديّة وكرار

وقال السكّري: الكُرّ هو القليب الذي يكون في الوادي، فإن لم يكن في الوادي فليس بكر، قال الأديبي: هو موضع بفارس، والمشهور أن الكُرّ نهر بين أرمينية وأرّان يشق مدينة تفليس، وبينه وبين بَرْذعة فرسخان، ثم يجتمع هو ونهر الرّسّ بالجمع ثم يصبّ في بحر الخزر وهو بحر طبرستان، وقال الإصطخري: الكُرّ نهر عذب مريء خنيف يجري ساكناً، ومبدؤه من بلاد جُرزان، ثم يمر ببلاد أبخاز من ناحية اللان من الجبال، فيمر بمدينة تفليس ثم على قلعة خُنان، ثم إلى شكى ومن جانبيه جنزة وشمكور ويجري على باب برذعة إلى بَرْزنج إلى البحر الطبري[1] بعد اختلاطه بالرّسّ، وهو نهر أصغر من الكر.

ونهر الرس الذي ذكره ياقوت الحموي هو يسمى الآن (أراراس)،

---

(١) البحر الطبري: نسبة إلى طبرستان، هي بحر قزوين الذي كان أسلافنا يسمونه بحر الخزر.

وقد وقفت على شاطئه في مدينة نخجوان في أذربيجان. وذكرت ذلك في كتاب ((رحلة الشمال)).

وقال المسعودي في (مروج الذهب):

وأما نهر الكر فيبتدئ من بلاد جزران من مملكة جرجين، ويمر ببلاد أبخاز حتى يأتي ثغر تفليس، ويشق في وسطه في بلاد السياوردية حتى ينتهي على ثمانية أميال من برذعة، ويجري إلى برادج من أعمال برذعة، ثم يصب فيه مما يلي الصنارة نهر الرس، ويظهر من أقاصي بلاد الروم من نحو مدينة طرابزنده حتى يجيء إلى الكر، وقد صار فيه نهر الرس، فيصب في بحر الخزر، ويجري الرس بين بلاد البدين -وهي بلاد بابك الخرمى- من أرض أذربيجان، وجبل أبي موسى من بلاد الران، ويمر ببلاد ورثان، وينتهي إلى حيث وصفنا، وقد أتينا على وصف هذه الأنهار أيضاً، والنهر المعروف بأسبيذروج، وتفسير ذلك النهر الأبيض على التقديم والتأخير بين اللغتين وهي الفارسية والعربية، وممره وجريانه في أرض الديلم نحو قلعة سلار، وهو ابن أسوار الديلمي بعض ملوك الديلم، وقد ظهر في هذا الوقت المؤرخ به كتابنا تغلب بلاد أذربيجان، ثم يمر هذا النهر من الديلم إلى الجيل، ويصب فيه نهر آخر في بلاد الديلم، يقال له: شاهان روذ، فينتهي مصب الجميع إلى بحر الجيل، وهو بحر الديلم والخزر وغيرهم مما ذكرنا من الأمم المحيطة بهذا البحر، وعلى هذه الأنهار أكثر هؤلاء الديلم والجيل الذين قد ظهروا وتغلبوا على كثير من الأرض.

وقال ابن حوقل في كتابه (صورة الأرض):

فأما الأنهار بهذه البلاد التي تجري فيها السفن فنهر الكُرّ، وهو نهر كبير، ويكون كالزابي الأصغر الخارج إلى دجلة، وكجيحان والبردان في أرض الثغر، ونهر الرّس وهما متقاربان في غُزر الماء وكثرته، ونهر

سيذروذ الذي بين أردبيل وزنجان فنهر يصغُر عن جري السفن فيه، والكر نهر عذب مريء خفيف يخرج من ناحية جبل القبق على حدود جنزه وشمكور مقبلاً من ناحية تفليس، وقبل أن يمر عليها يمر على قلاع في بلدان الكفر منصباً إلى بحيرة الخزر على نواحي برذعة، ونهر الرس أيضاً نهر عذب خفيف طيب يخرج من نواحي أرمينية الداخلة حتى ينتهي إلى باب ورثان، ثم يمر فيقع بعضه في الكر وبعضه في بحيرة طبرستان، وهو الرس الذي ذكر الله تعالى ما فعل بقومه، وهو إذا تأمله المتمكن منه ومر على جانبيه من مدينة ورثان صاعداً ونازلاً رأى عليه آثار مدنٍ قد قلبت وخسفت، وهُوِّر بعضها وقلب أعاليها أسافلها، وهي في أقبح مرأى ومنظر تصديقاً لقوله: ﴿وعاداً وثموداً وأصحاب الرس وقروناً بين ذلك كثيراً وكلاً ضربنا له الأمثال وكلاً تبرنا تتبيراً﴾.

عود إلى كلام الدليلة:

قالت الدليلة وهي تشير إلى أسفل بدلاً من أن تشير إلى أعلى: هذه هي تفليس القديمة، أو هي القلب القديم لتفليس، إنها تقع على الضفة اليسرى لنهر (كُورَى) هذا الذي ترونه وهو قادم من تركيا، وقد استمتعنا برؤية هذا النهر الذي رأيته من الطائرة، يأتي من أماكن مرتفعة وينصب مسرعاً في هذا الوادي من دون أن يتسع مجراه، فهو ضيق هنا بحيث لا يبدو نهراً كبيراً، ومع ذلك صار له ذكر قديم عظيم.

ويستمر هذا النهر في جريانه مخترقاً جبال القوقاز عن طريق وديان بينها، حتى ينتهي به المطاف في بحر الخزر المعروف الآن ببحر قزوين، وما قزوين إلا مدينة واحدة من المدن التي تقع عليه لا يصح أن ينسب إليها،

وهي واقعة الآن في القسم الجنوبي من بلاد أذربيجان التي تؤلف جزءاً من بلاد العجم (إيران).

والعجيب أن بحر الخزر، وهو بحر مغلق لا يتصل بأي بحر آخر، تصب فيه مياه عذبة ضخمة، ومنها مياه نهر إيتل (النولقا) العظيم، ولكنها تضيع فيه كما تضيع الكرامة عند اللئام، وكما ينقلب كل شيء وقع في الملاحة إلى ملح.

ميدان الحرية:

أردنا أن نكثر من السؤال عما نراه الآن في المدينة، فأشارت الدليلة إلى السيارة قائلة: سنذهب إلى هناك، فانحدرنا إلى شارع قديم مرصوف بالحجارة لكونها لا تنزلق عنها السيارات في الأمطار والثلج، بخلاف التبليط بالزفت، وهو ذو أرصفة على جانبيه جيدة بالنسبة إلى المدن الروسية التي رأيناها في هذه السفرة، وقد زرنا عدداً من الأقاليم الروسية الجنوبية، فوصلنا منه إلى ميدان مهم كان اسمه (ميدان لينين)، وقد غيره القوم بعد أن استقلت جورجيا عما كان يسمى بالاتحاد السوفيتي، فأسموه ميدان الحرية، إلا أن كثيراً من الناس ما يزالون يسمونه (ميدان لينين) جرياً على العادة.

وهو ميدان مهم في القسم القديم الجيد من المدينة، وهذا ظاهر من تسميته، إذْ اعتاد الشيوعيون على أن يسموا أحد الميادين في المدينة إن لم يكن أكثرها أهمية باسم (ميدان لينين).

هذا ما جرت عادتهم به في كل المدن الشيوعية التي كانت تتبع الاتحاد السوفيتي، سواء أكانت داخل روسيا أم خارجها من الدول التي صارت داخل ما تسمى الآن (رابطة الدول المستقلة).

ويوضح أهمية هذا الميدان أيضاً وجود بلدية تفليس عليه في بناء متميز يرفرف عليه العلم.



ميدان الحرية (لينين سابقاً) في تفليس عليه البلدية يرفرف فوقها العلم الجورجي

ولم يكن من الممكن الوقوف في هذا الميدان، لأنه مركز الحركة وليست فيه مواقف للسيارات، ومع ذلك أوقفت الدليلة السيارة بناءً على إلحاحي بالتقاط صورة للميدان، وما أسرع أن جاء شرطي المرور مستنكراً وقوف السيارة، فتكلمت معه الدليلة مشيرة إليّ لأنني نزلت من السيارة لالتقاط الصورة فسكت، وانتهينا من التقاط الصورة بسرعة.

انطلقنا من هذا الميدان: ميدان الحرية مع شارع جيد عليه مبانٍ رئيسية كبيرة، ويقع عليه داخلاً عنه مسرح الأوبرا، وللمسرح عند الشيوعيين مقام عظيم، لأنه من الناحية المظهرية قام عندهم مقام الأبنية

الدينية أو الثقافية القديمة، ومن الناحية الفعلية كانوا يستغلون المسرح للدعاية الشيوعية والإلحاد عن طريق تمثيل المسرحيات والأوبرا والباليه.

وهو واسع نسبياً، لأن السيارات تتقابل فيه، يفصل بين الذاهب منها والآيب خط أصفر لأنه ليس ذا اتجاهين.

ثم وصلنا مبنى (البرلمان) على هذا الشارع أيضاً، ومكتب رئيس الجمهورية والبريد المركزي.

وانتقلنا منه إلى شارع آخر من قلب المدينة القديم الجيد الذي لا تزال جودته باقية، ونوهت الدليلة بأن هذا الشارع موجود منذ القرن الثامن عشر.

بلاد الشاي:

لاحظت كثرة السيارات في هذا الشارع وغيره من قلب المدينة، وهي سيارات روسية، أكثرها ظهوراً (اللادا)، وهي تشبه الفيات، ووصفها أحد إخواننا السعوديين بأنها سيارة بدائية، يريد أنها وقفت عند مستوى معين دون تطوير، في الوقت الذي كانت فيه السيارات اليابانية والأمريكية يدخلها التطوير والتحسين، وذلك أن الناس في الاتحاد السوفيتي كان همهم الحصول على سيارة أية سيارة، لأن ذلك الأمر عسير بالنسبة إليهم، والذي يصنع السيارات هي الحكومة، وتنهال عليها الطلبات من الناس لشراء السيارات على أية حال كانت، فما الذي يدعوها إلى التطوير والتحسين.

ومررنا بمكان متميز سألناها عنه فقالت: إنه (شاي خانة) بلغتنا، وهذه مأخوذة من التركية التي أخذتها من الفارسية، وعربيتها التي وضعناها لها وأمثالها (مقهاة) أو مقهى بصيغة التذكير، وذلك لكونه

المكان الذي تصنع فيه القهوة وتباع، ويشرب فيه الشاي أيضاً.



الشاي على التلال في منطقة أجاريا في جورجيا

(تصوير المؤلف)

ولو سميناها (مشهاة) لما أبعدنا من اللفظ، ولكنا وافقنا قالباً لفظياً عربياً، والمراد بذلك مثل هذا المكان المخصص لبيع الشاي وشربه.

وخانة : مكان أو منزل، وهي لفظة دخلت العربية من الفارسية قديماً، ولا تزال تستعمل في بلادنا لبعض الأمور على قلة في ذلك، ومنها في العربية القديمة (الخان) كما قال الشاعر :

قوم إذا نزل الأضياف دارهم ... لم ينزلوهم ودلوهم على (الخانِ)

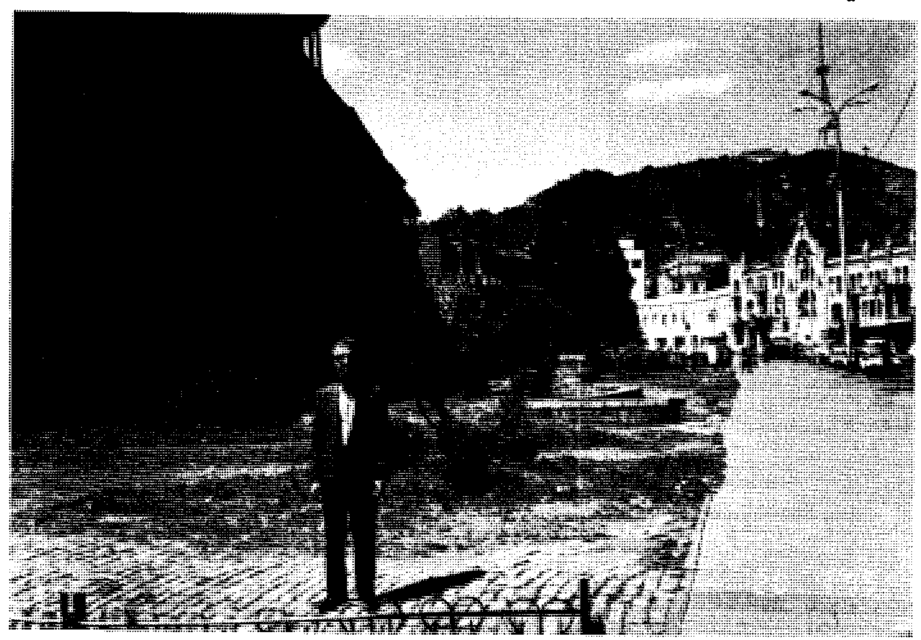
وقال شاعر آخر :

يا أيها السائل عن منزلي ... نزلت في (الخان) على نفسي

والخان هنا هو النُّزُل - بضم النون والزاي - وهو أشبه ما يكون

بالفندق، والخان في البراري والمفازات يجد فيه المسافر مكاناً وطعاماً له، ومأوى وعلفاً لدابته.

ومما يجدر ذكره أن (جورجيا) هذه تنتج مقادير كبيرة من الشاي، وكانت الجمهورية الوحيدة في كل الاتحاد السوفييتي السابق التي تنتج له الشاي بمقادير جيدة.



المؤلف في شارع في تفليس القديمة

ومن مشاهدة جموع من السكان في هذه الأماكن المزدحمة شعرت بأننا قد خرجنا فعلاً من المحيط البشري الروسي بخصائصه المظهرية المميزة، وطباع أهله الأكثر تميزاً، إلى منطقة أشبه ما تكون بمنطقة البحر الأبيض المتوسط، لولا أن الجمال فيها أغلب على أهلها في الوجوه والأشكال من أهل بلاد البحر الأبيض المتوسط، فمثلاً يرى المرء في الروس البياض ولكنه تخالطه صفرة في أكثر الوجوه، ويشينه في أغلبها ثقل في الأجسام بغيض، وكثيراً ما يجتمع مع الثقل التغضن في الوجوه،

والارتخاء في الأجسام، رغم ما قيل من كون القوم يحرصون على ممارسة الرياضة، أو نوع منها في أكثر الأحيان.

شارع الكاتب:

وصلنا إلى شارع رئيسي آخر (جفجا نازه)، ذكروا أنه كاتب وأديب مشهور أسموا على اسمه هذا الشارع، ووضعوا له تمثالاً ونُصُباً نقشوا عليه بياناً بأحواله، وهذا يدل على اهتمامهم بالكتاب والأدباء والمؤلفين، وهو اهتمام رأينا مثله في عديد من الدول الأوربية، وبخاصة في الشمالية منها.



شارع الكاتب (جفجا نازه) في تفليس

وورد إلى ذهني السؤال عن الحال عندنا، وهل أسمينا شوارع أو ميادين بأسماء الكتاب والمؤلفين عندنا، والمراد بذلك بلادنا السعودية، وإذا لم يكن الأمر كذلك، فهل مرده إلى انه لا يوجد لدينا كتاب ومؤلفون يستحقون أن تسمى على اسمهم شوارع أو ميادين؟ والجواب أن

الأمر ليس كذلك، فالكتاب والمؤلفون موجودون وإن لم يكونوا كتاباً عالميين، ولكن لا يشترط لتقدير الكاتب أو المؤلف في بلد أن يكون عالمياً، وإنما المهم أن يكون كاتباً مؤثراً أو مجدداً، أو طارقاً بقلمه موضوعات لم يطرقها غيره بذلك القدر، بدليل أن هذا الكاتب (جنجا نازه) ليس كاتباً عالمياً.

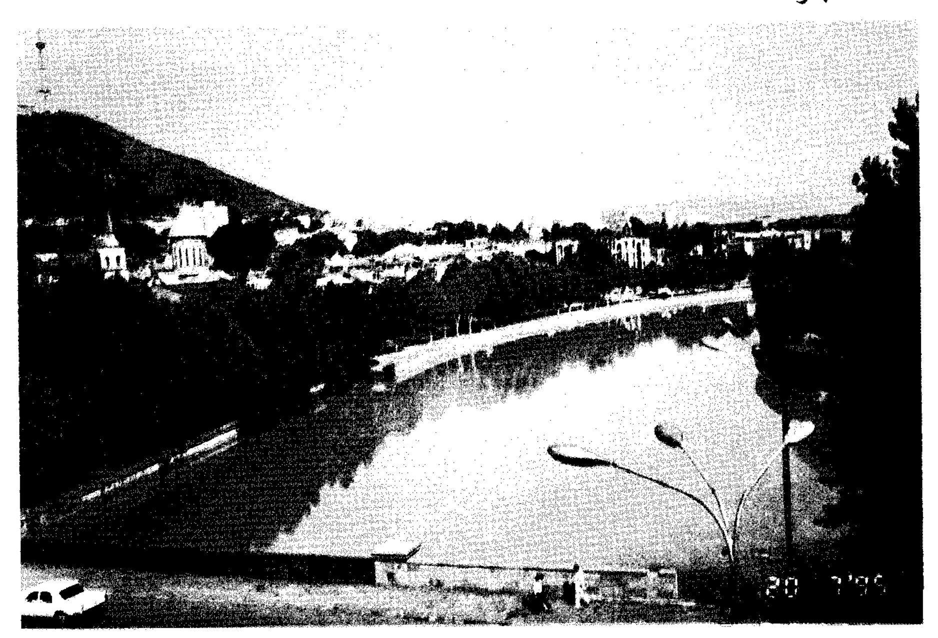
وعلى ذكر الكاتب واللغة التي يكتب بها، سألتها عن الطلاب العرب أموجودون في بلادهم؟

فأجابت بأنها تذكر أنهم موجودون، وأنه صدرت نشرة تقول: إن عددهم في جورجيا (١٠٠)، وذلك قبل فترة، وأما الآن فلا تعرف عن أمرهم شيئاً، وظني أن ذلك عندما كانت الدراسات الجامعية باللغة الروسية، حيث كانت جورجيا تعتبر ثقافياً جزءاً من الاتحاد السوفيتي الذي تسيطر فيه اللغة الروسية، وإن كان ذلك لم يتغير الآن، لأن اللغة والثقافة ليست كالثوب الذي يخلع بسهولة، بل لا بد من مضي وقت طويل حتى يذهب أثرها من البلاد، وفي رحلتنا هذه زرنا عدداً من الجمهوريات والأقاليم في جنوب روسيا، منها تتارستان وجوفاش و(ماري ايل) وارنبورغ وسمارا واستراخان فوجدنا أنها كلها يوجد في جامعاتها عدد من الطلاب العرب في الوقت الحاضر، سألت أحدهم عن السبب في اختيارهم لهذه البلاد مع أنها الآن صارت لا تقدم منحاً دراسية، كما كان عليه الحال زمن الاتحاد السوفيتي، فأجاب بأنهم قدموا إليها لرخص نفقات الدراسة فيها بالنسبة للدول الغربية، وبعضهم يختار فرعاً من فروع المعرفة متقدم عن غيره في روسيا، مثل الهندسة والدراسات العسكرية.

وعلى شارع (الكاتب) هذا توجد حديقة واسعة جيدة.

على ضفاف النهر:

رغم كوننا انحدرنا في الأصل لهذا الذي مررنا به في المدينة القديمة من المكان المرتفع الذي كنا فيه من قبل، فإننا نزلنا الآن نزولاً مع طريق مشقوق في مرتفع جبلي، وذلك إلى حيث مستوى مجرى النهر الذي تقع على ضفتيه أحياء من أحياء مدينة تفليس، وسلكنا شارعاً طويلاً مستقيماً في هذه المنطقة من المدينة اسمه (شارع كاسيدي)، وعيبه أنه ليس واسعاً إلا أنه مشجر.



نهر كورى (الكُر في المراجع العربية) في تفليس

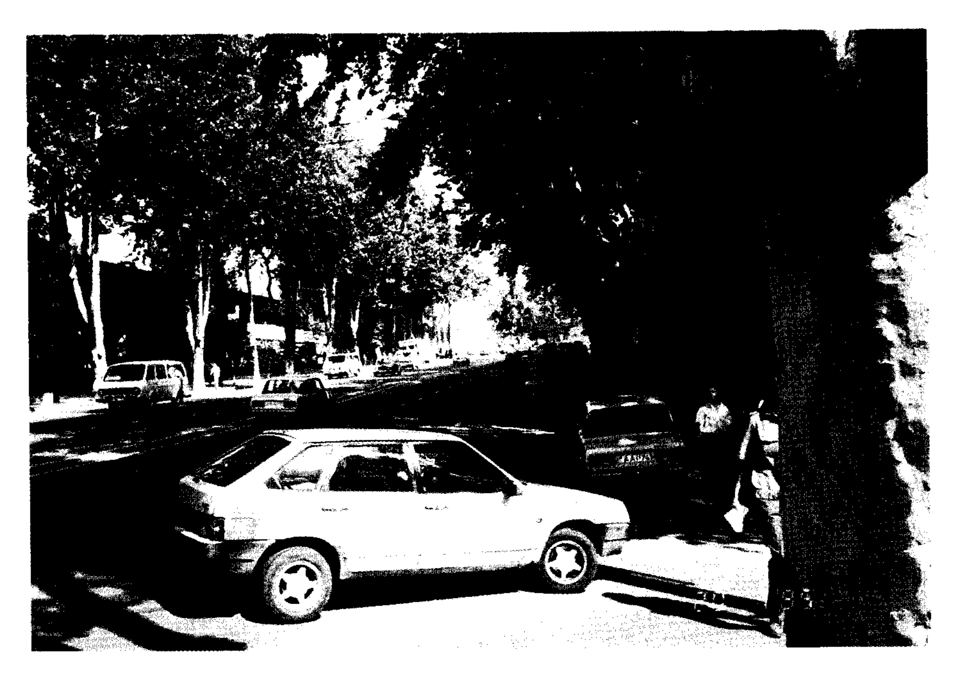
(تصوير المؤلف)

ثم وصلنا إلى كلية الهندسة ومدخلها ذو أقواس عربية، والتدريس الأساسي فيها بالروسية وعلى ذكر الروس نقول: إنه لا يزال يوجد عندهم مستوطنون روس، إلا أنهم الآن صاروا من حاملي الجنسية الجورجية.

وقد ابتليت هذه البلاد الجميلة بغزوات الغزاة والمغيرين، فكان اليونانيون هم الذين عرف أنهم احتلوها مدفوعين بدافع البحث عن الذهب، حيث كان فيها مناجم غير كبيرة للذهب، وكذلك غزاهم الرومان والفرس، ثم جاءهم الفتح العربي، وبعده حكومات من المنطقة كان من أهمها جيرانهم الأبخاز الذين طردوا حكام العرب المسلمين، وكان الأبخاز آنذاك نصارى، ثم تتابع الغزاة حتى كان أخرهم الأتراك قبل الروس.

ويذكر الجورجيون بمرارة كيف أجبروا على الخدمة في القوات الروسية، وكيف أنهم ماتت منهم أعداد كبيرة دفاعاً عن الاتحاد السوفيتي الذي هو في الحقيقة دفاع عن روسيا، لأن الروس هم المسيطرون على هذا الاتحاد، ذكرت لنا الدليلة أن أربعمائة ألف من الجورجيين قتلوا في الحرب العالمية الثانية دفاعاً عن الاتحاد السوفيتي الذي كان يحكم بلادهم بالقوة والإكراه عن طريق الشيوعيين، ومن أشهر الشيوعيين الجورجيين جوزيف ستالين الذي أصبح دكتاتور الاتحاد السوفيتي، وقتل بأمره على أيدي أتباعه عشرات الألوف من المواطنين، ثم اشتهر في الحرب العالمية الثانية بقيادته الاتحاد السوفيتي إلى الحرب ضد ألمانيا، وقد ولد في بلدة (فورى) في شمال جورجيا.

سارت السيارة السياحية في شوارع تفليس، وقد عرفت الدليلة شدة رغبتنا في المعلومات، فصارت تحدثنا عن أشياء لم نطلب أن تحدثنا عنها، ومن ذلك أننا وصلنا إلى المحطة المركزية للقطارات، فذكرت أنها مهمة لهم، غير أن القطارات التي تنطلق منها لا تسافر إلى موسكو، وإنما كان على من يريد السفر إلى موسكو أن يذهب بالقطار من هنا إلى أذربيجان المجاورة ومن هناك يركب القطار إلى موسكو.



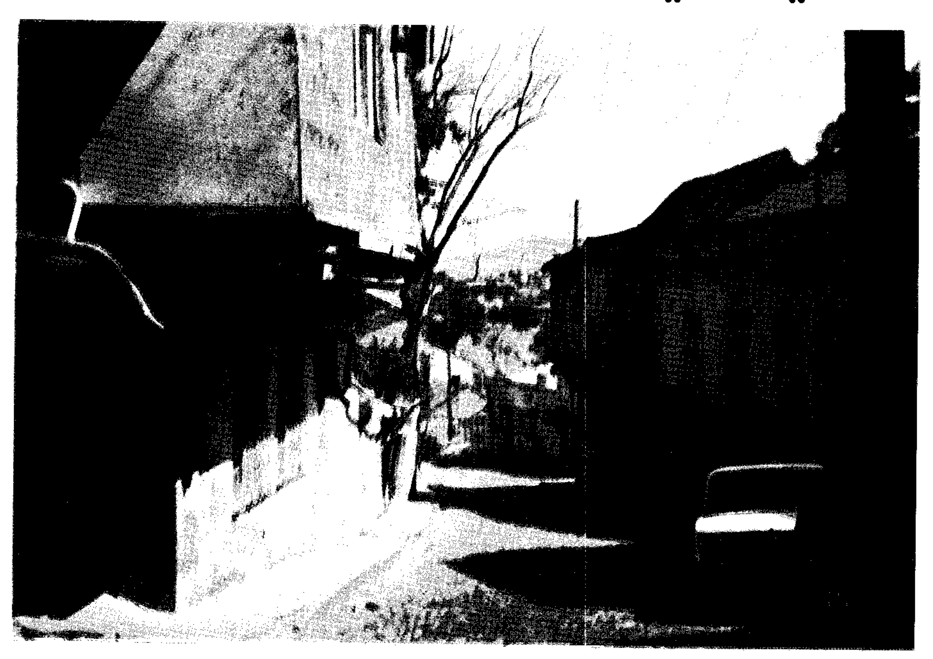
الشارع الرئيسي الذي ينطلق من ميدان الحرية في تفليس

وعلى ذكر أذربيجان وما حصل من الخلاف بين بلاد القوقاز بعد انفراط الاتحاد السوفيتي ذكرت أن العلاقات بين جورجيا وأذربيجان جيدة رغم كونها متوترة، بل هي متفجرة ما بين أذربيجان وأرمينيا نتيجة للحرب التي نشبت بين البلدين، واحتل فيها الأرمن أراضي واسعة من جمهورية أذربيجان حتى قال بعضهم: إنها قد تصل إلى ٢٠٪ من أراضي أذربيجان.

وأما جورجيا فإنها ابتليت بجيرانها من هذا الشعب الأبي (الأباظه) التي تسمى بلادهم أبخازيا، وكانت بلادهم إقليماً ملحقاً بجورجيا زمن الاتحاد السوفيتي، إلا أن الأباظه ثاروا على الجورجيين، وأخرجوهم من بلادهم بقوة السيف، واستقلوا بأمورهم فعلياً، وإن لم يعلنوا ذلك رسمياً. وكان أشد ما على الجورجيين في هذه الحرب أن أكثر من (٣٠٠) ألف

جورجيَ كانوا يسكنون في أبخازيا قد فروا منها بعد أن هزم جيش جورجيا إلى الحدود الجبلية بين البلدين، وصاروا عبئاً على الحكومة الجورجية في هذه المرحلة الحرجة من الناحية الاقتصادية، حيث تشهد بلادهم التحول الاقتصادي من الشيوعي المسير من الدولة إلى اقتصاد السوق الحر، حيث تواجه البلاد نقصاً خطيراً في العملات الأجنبية نتيجة لانفصالها عن الاتحاد السوفيتي واعتمادها في اقتصادها على نفسها.

الحي الألماني:



زقاق في تفليس القديمة

وصلنا إلى حي من منطقة المدينة الواقعة على شاطئ النهر اسمه (الحي الألماني)، وهو حي معتاد وليس فاخراً، ذكروا أن الألمان جاؤوا في القرن التاسع عشر إلى المدينة، وعاشوا في هذا الحي، ولهم أيضاً قرية

خارج العاصمة، غير أن (ستالين) نفاهم إلى أواسط أسيا بعد الحرب العالمية الثانية بحجة تعاونهم مع الغزاة الألمان، وقد عاد بعضهم الآن بعد تفكك الاتحاد السوفييتي، وهم يتكلمون الجورجية، وبعضهم اختلطوا بالجورجيين.

وعلى ذكر الأجانب ذكرت الدليلة أنه لا يوجد مواطنون عرب في جورجيا في الوقت الحاضر، وإنما يوجد بعض رجال المال والأعمال التجارية ممن يقيمون إقامة مؤقتة في البلاد.

ومررنا بسوق للخضرات والفاكهة، فأردت أن أنزل وأدخله، ولكن الزحام كان بالغاً، ولا يوجد موقف للسيارات إطلاقاً، وقد عجبت من كثرة الزحام سواء من الأناسي والسيارات، ويرجع ذلك إلى ضيق الشوارع وإلى كثرة الجورجيين الذين كانوا يعملون خارج بلادهم، فعادوا إليها بعد الاستقلال، وأعادوا بعض ما يملكون إليها.

ثم دخلنا شارعاً رئيسياً في هذه المنطقة، واسمه فيما أتذكر (شارع ديفيد) وفي هذا الشارع ثلاث سفارات هي التركية والأوكرانية وسفارة دولة اليهود التي يسمونها (إسرائيل).

ومن المفجع أنه لا توجد في هذه الجمهورية القريبة من البلدان العربية أية سفارة لأية دولة عربية، وفي هذا الصدد يتبادر إلى الذهن السؤال عن كيفية الرد على ما يسيء إلى العرب إذا وجد في هذه البلاد مادام أنه لا توجد فيها سفارة لأية دولة عربية، كما أن السؤال الذي لا يخطر ببال كثير من المسؤولين في البلدان العربية هو من الذي يرد على المفتريات التي يحيكها اليهود، أو غلاة النصارى ضد الإسلام والمسلمين؟

ثم سلكنا شارعاً يسمى (مشرالي فيلكس خوجا) عليه منازل قديمة

ذات شرفات خشبية من طراز جورجي قديم لا شك في أنها متأثرة بفن البناء العربي القديم، إما عن طريق الحكم التركي، أو من آثار الحكم العربي القديم، وأعتقد أن الأول هو الصحيح.



حي قديم في تفليس

وقد وقفنا في هذا الشارع لتصوير هذه البيوت والاطلاع على قسم من سور قديم ظل باقياً منه قطعة صانوها ورمموها وفق ما كانت عليه فيما قالوا.

وكان وقوفنا مصادفة عند بائعة أسكريم على عربة يد صارت تنظر إلينا بإعجاب، ثم تكلمت الدليلة فذكرت أنها قالت لها: إنها تحب العرب، ولم تكن مسلمة، وإنما كان مبعثه الإعجاب بشيء لا نعرفه مع أنها في منتصف العمر، فاشترينا منها (أسكريماً) وأطعمنا منه الدليلة والسائق.

والتقطنا فيه صوراً تذكارياً وصوراً للمباني القديمة.

جامع تفليس:

وهـذه التسمية مـن عنـدي لكونـه الجـامع الوحيـد الموجـود في هـذه المدينة في الوقت الحاضر، صعدنا إليه تلة جبلية غير عالية، وكنا رأيناه على البعد بسبب ارتفاع موقعه فوجدناه مغلقاً، وذلك لكون وقت صلاة الظهر لم يحن بعد، ووجدنا عنده امرأة مسلمة تتكلم الآذرية التي هي لغة أذربيجان المنبثقة من اللغة التركية القديمة، وانضم إليها شخص عاجز يسير على عكازين وبيته مجاور للمسجد، تبين فيما بعد أنه شيعي تكلم بالآذرية أيضاً، وأخبرنا أن المسجد يفتح في الثانية عشرة والنصف، وأنه هو المسجد الوحيد في هذه المدينة، إلا أن عدة قرى قريبة منها فيها مساجد، وذكر أسماء أربع قرى.



جامع تفليس.

نزلنا من الهضبة التي فيها المسجد إلى منطقة أسفل منها ذات بيوت شعبية، وذلك من أجل الاطلاع عليها إلى أن يحين موعد فتح المسجد، فبدأنا أولاً بالذهاب إلى مكتبة مخصصة ببيع الكتب والمنشورات الإعلامية، وذلك لشراء شيء من الأوراق المتعلقة بتاريخ هذه المدينة.

وجدنا المكتبة خالية إلا من صاحبتها، فاشترينا منها بنحو عشرين دولاراً، وعندما خرجنا من عندها خرجت تودعنا، ثم تكلمت مع الدليلة بشيء ابتسمت له الدليلة، وأوضحت لنا بقولها: إنها تقول: إنك امرأة طيبة لأنك أحضرت هؤلاء السادة الذين اشتروا مني هذه الكتب التي لم أبع مثلها منذ مدة، لكون الأحوال المالية واقفة كما تعلمين.

وهذا شاهد على مدى الركود الاقتصادي التي تعاني منه البلاد، وقدمنا شاهداً آخر على ذلك في كون الضابط الكبير يحملنا بسيارته ويرضى بأجرة (التاكسي)، وكذلك الموظف الذي حملنا بسيارته لداخل البلد طمعاً في أجرة زهيدة.

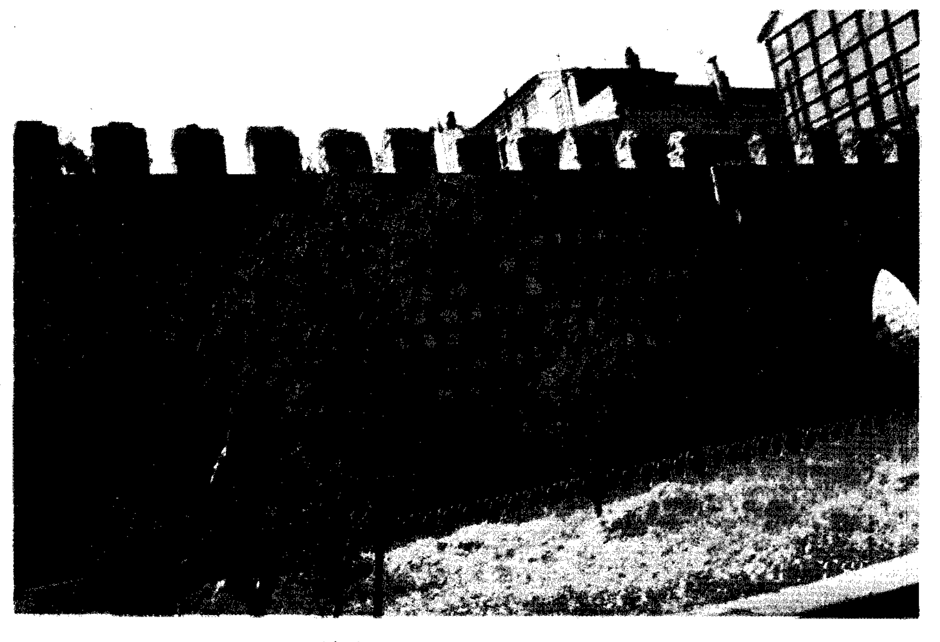
وقد رأينا عند هذه المكتبة جداراً غريب البناء قديماً، مبنياً بطريقة الآجر المعترض المال.

ثم ذهبنا لشارع باركا: كاسنلي، وفيه جزء من سور المدينة، ذكروا أنه بني في القرن الخامس عشر، وتغلق هذا الشارع من جهة الغرب في النظر تلة جبلية خضراء، فالتقطنا صورة هناك.

وتجولنا في أزقة على أقدام هذه القلعة، فوجدنا بيوتاً قديمة مبنية بالآجر على أزقة ضيقة غير مستقيمة.

ولاحظت أن بعض المحلات التجارية، أو حتى في المنازل فيها مكيفات للهواء، فسألتها: أيأتيكم حر تحتاجون إلى تركيب هذه

الأجهزة؟ فأجابت : نعم ألا تحس بالحر اليوم، درجة الحرارة تكون في وسط النهار ثلاثين، وهي قد تصل إلى ٣٥ ولكن ذلك نادر.

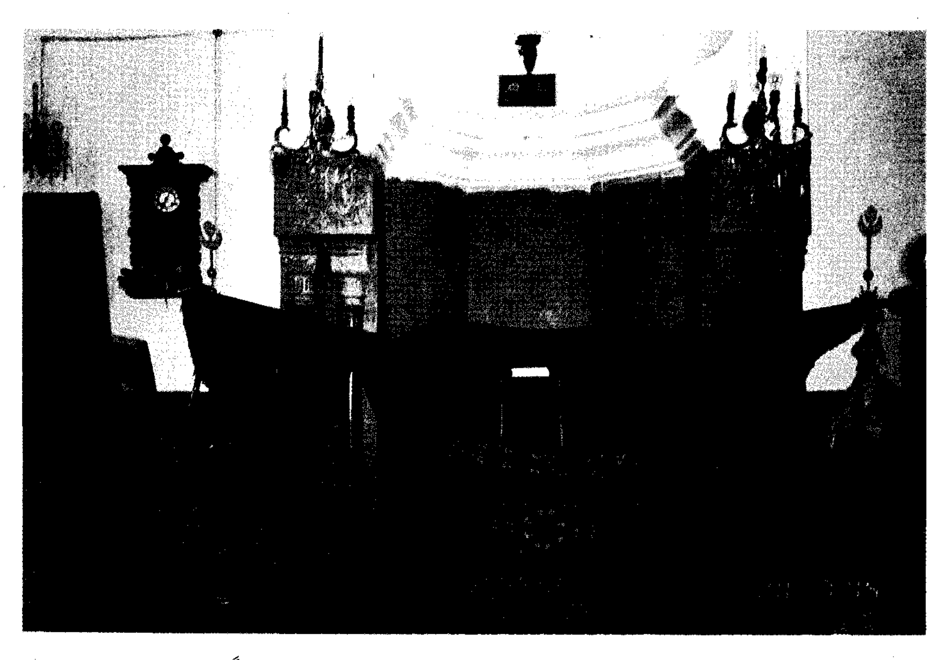


جزء من السور القديم لتفليس

هذا ولم أحس بالحر الذي ذكرته، وإنما هو فصل الربيع بالنسبة إلينا.

اقتسام المسجد:

عدنا إلى المسجد الذي وجدناه مفتوحاً، فكانت أولى المفاجآت فيه أن رأيناه مقسوماً بقماش بين الأعمدة إلى قسمين، ورأينا امرأة فيه كلمها رفيقنا في الوفد الأستاذ رحمة الله بن عناية الله بالتتارية، فأخبرته أن هذا المسجد مقسوم إلى قسمن بالفعل، أحدهما صار مسجداً لأهل السنة والثاني للشيعة.



محراب القسم الشيعي في جامع تفليس مجللاً بالسواد

مع أنه حضر عدد قليل من أهل السنة ذكروا أن هذا المسجد كان يسمى مسجد الجمعة أو (جمعة مسجد)، وهو لأهل السنة بناه التتار السنيون، ولكن المسجد الذي كان للشيعة هدم، فقسم هذا المسجد بين الطائفتين، أو لنقل إن الشيعة أخذوا نصف المسجد، وكان الأولى بهم ألا يقسموا المسجد، بل يصلون مع أهل السنة، لأن قسمة المسجد وهو مسجد مبني بمثابة الوقف على أهل السنة تشعرهم وتشعر غيرهم بأنهم لا يتفقون مع إخوانهم أهل السنة، على أداء الفرائض الدينية معهم.

وقد تفقدنا القسم السني من المسجد الآن -إن صح التعبير- فوجدناه كمساجدنا دون فرق، سواء في المحراب أو في اللافتات العربية الكثيرة المعلقة أو المكتوبة على حيطانه.

من اللافتات والكتابات فيه الشهادتان: لا إله إلا الله محمد رسول

الله، و(هذا من فضل ربي) وشجرة أسماء الله الحسنى، أي أن الأسماء الحسنى وهي أسماء الله ﷻ مكتوبة على هيئة شجرة، والآية الكريمة ﴿ألا بذكر الله تطمئن القلوب﴾، والآية الأخرى ﴿وأن ليس للإنسان إلا ما سعى﴾ كتبوها (وليس للإنسان إلا ما سعى)، وهو تحريف للآية إلا إذا قصدوا بذلك كتابة حكمة بهذا اللفظ مستوحاة من الآية الكريمة، فهم لم يقولوا فيها قال تعالى ... إلخ.

ولافتة بالتسبيح والتحميد (سبحان الله والحمد لله) ولافتة أخرى تقول: (حب الوطن من الإيمان)، وهذا قول مشهور صار مثلاً، وليس حديثاً نبوياً صحيحاً كما يفهم من كلام بعض الناس.

وقد ذكرت هذه اللافتات فيه من باب المقارنة بينه وبين ما في القسم الشيعي من المسجد.

أما مسجد الشيعة، وهو القسم المأخوذ من هذا المسجد الذي بناه أهل السنة، فإنه ليست فيه آية ولا لافتات عربية، وإنما فيه عوضاً عن ذلك أشياء مبتدعة غريبة، من ذلك صورة كتبوا عليها أنها صورة الحسين بن علي رضي الله عنهما! ومن الذي منهم رأى الحسين بن علي حتى صوره، وليست صورة قديمة حتى يقال إنها موروثة عن الأقدمين، مع أنها لو قيل كذلك لكان الواجب التحقق من قدمها قبل قبولها.

ومن المعلوم أن المسلمين في الصدر الأول، ولا يزال الحريصون على أمور دينهم، يمنعون التصوير الذي نهى عنه الرسول ﷺ وأوضح أن أشد الناس عذاباً يوم القيامة المصورون الذين يضاهون خلق الله.



اثنان من الشيعة في محراب القسم الشيعي من الجامع

وأما التصوير الشمسي الموجود الآن، فإنه ليس تصويراً في الحقيقة، لأنه لا يأتي بصورة تضاهي خلق الله، بل هو يعكس الصورة التي خلقها الله فيمسكها ويعرضها، فليس فيه من معنى التصوير المحرم شيء.

وإن كان الأمر أشكل على بعض طلبة العلم فلم يتضح لهم هذا الفرق، وطبقوا الأحاديث الواردة في النهي عن التصوير الشمسي مع الفارق الذي ذكرته.

ولم يقتصروا على تعليق الصورة التي زعموها صورة الحسين رضي الله عنه، بل علقوا صورة أخرى لأئمة الشيعة الاثني عشر، وهذه أيضاً صور خيالية

مصطنعة، وصورة أخرى لسيف علي بن أبي طالب ﷺ، واسمه (ذو الفقار) كتبوا تحته: محمد علي فاطمة الحسن.

وكتابة أخرى (علي ولي الله)، ولم أرهم كتبوا (لا إله إلا الله ولا محمد رسول الله) ولا آية قرآنية. مع أن الكتابة في المسجد وتعليق اللوحات فيه ليس مطلوباً شرعاً وإنما نحن نبين ما رأيناه.



صورة علي بن أبي طالب – بزعم الشيعة – في تفليس معلقة في القسم الشيعي من المسجد

لم يقتصر فعل هؤلاء الشيعة بتعليق الصور الخيالية في حيطان المسجد، وإنما زادوا الأمر شناعة بأن مثلوا جنازة بالحجم الطبيعي للجنازة، ووضعوها في المسجد على هيئة تابوت مجلل بالسواد، ظننته أول

الأمر جنازة حقيقية لامرأة أحضروها للصلاة عليها في المسجد، ولكن كانت الدهشة في أول الأمر أن الجنازة والمراد الميت قد أخرجت يديها من الصندوق، وهذا ما مثلوه بأن أخرجوا يدين من صدر الصندوق وجعلوهما ممدودتين ولا أدري لماذا يرمزان.

وكان أحد الشيعيين من أهل المسجد وهو متولي المسجد، أي رئيس الجمعية المشرفة عليه واسمه مهدي أوغلو، والمراد بذلك القسم الذي اقتطع للشيعة من المسجد، ولا أدري من فعل ذلك، فهم لم يوضحوه، قد قال لي: إن هذه هي جنازة الإمام الحسين في كربلاء.



صورة معلقة في القسم الشيعي من جامع تفليس

تمثل أئمة الشيعة بزعمهم

وهذا أمر مستهجن عند العقلاء، إذ كيف تمثل جنازة مضى عليها أربعة عشر قرناً وتوضع في المسجد بين المصلين؟

ومثل ذلك ما رأيناه في محراب هذا القسم الشيعي من المسجد، وهو قماش أسود قد جللوه به، علامة على الحداد على الحسين بن علي رضي الله عنهما.

وقد ذكرني هذا بما روي عن أحد المستشرقين أنه زار منطقة فيها شيعة في أول محرم، فرأى عندهم مظاهر الحزن والبكاء على مقتل الحسين ﷺ فسأل عن ذلك فقيل له: إن القوم قد أقاموا الحداد على مقتل ابن بنت نبيهم فقال: متى مات؟ قالوا: منذ ألف وأربعمائة سنة، فقال: كيف لم يعلموا بموته إلا الآن؟ يظن أنهم أقاموا النوح والعزاء لمرة واحدة كما يفعل أكثر الناس في هذه الأزمان.

وذكر الحاضرون وهم قلة أنه كان يوجد في مدينة تفليس قبل الشيوعية ثلاثة مساجد، اثنان لأهل السنة، أحدهما هذا، وواحد للشيعة، والآن لا يوجد إلا هذا المسجد المقسوم بين الطائفتين.

والمسلمون السنة هنا أكثرهم من التتار، أما الشيعة فأصلهم من أذربيجان، إلا أنهم قالوا ما عرفته من قبل من أن الآذريين أي أهل أذربيجان فيهم شيعة وفيهم من أهل السنة، وهذا شيء ذكرته موضحاً في كتابي: « **جمهورية أذربيجان** »، وأحب أن أنوه هنا أن الأكثرية من أذربيجان هم من الشيعة، إذ تبلغ نسبتهم ٧٢٪ من جميع المسلمين، والبقية أهل السنة.

وقد سألت أخاً سنياً، أو لنقل تتارياً كما اعتادوا أن يقولوه، لأن التتار هم من أهل السنة، ولم يكن معه غيره، إلا امرأة مسنة لا تفهم كثيراً في هذه الأمور إذ قالت لنا: إنه لا فرق بين السنة والشيعة، فقلت لها: إذاً لماذا قسمتم المسجد إلى قسمين! فسكتت. قال ذلك الأخ: إن الناس لا يصلون كثيراً، فلا يزيد عدد المصلين يوم الجمعة على ٢٠ - ٣٠ مصلياً.

وقال المتولي الشيعي: الناس في أول محرم يأتون إلى المسجد بكثرة، ويريد بلك الشيعة، هذا ولم نلتق بالإمامين السني والشيعي، وإنما ذكروا لنا أن الإمام السني اسمه (صلاح الدين)، وأن الشيعي اسمه (حاجي محمد علي).



في محراب مسجد الجمعة في تفليس مع الأستاذ حسن إزميرلي

العودة إلى الفندق:

كانت الساعة قد بلغت الواحدة والنصف، وفي مثل هذه الفنادق الكبيرة، وبخاصة في البلدان المتخلفة كالهند، لا يسمحون بأن يبقى النزيل بعد الثانية عشرة في الغرفة، وإلا طالبوه بأجرة يوم كامل، أو بأجرة نصف يوم إذا كان الفندق يأخذ بنظام نصف اليوم.

ولكن القوم سامحونا عن التأخير، فأخرجنا أمتعتنا من الغرف، ووضعناها في مستودعهم، لأننا سوف نغادر مدينة تفليس في الخامسة

عصراً، إذْ شفينا النفس من مشاهدتها في هذا الضحى.

وجلسنا في مقهاة الفندق وهي في غاية الجمال، إذ هي مرتبة مزينة بالزهور، وواجهتها زجاجية واسعة، تطل على الجزء الحديث من مدينة تفليس الذي يحتضنه الجبل الأخضر، فأكلنا فيها طعاماً خفيفاً، وسوّدت أوراقي بما تقرأه الآن.

ومن الطريف أن عاملة المائدة، وهي فتاة جورجية مهذبة، وإن شئت الإغراق في توهم صورتها قلت: إنها (كرجية) أصيلة، إذْ الكرجيات عندنا كن مضرب المثل في الجمال في القديم، قد قالت لي عندما رأتني أكتب وأكثر الكتابة: كيف تستطيعون أن تقرؤوا وتفهموا هذه الكتابة؟ فقلت لها: يا هذه، إن هذه الكتابة التي ترينها، والألفاظ التي تدل عليها كانت لغة العلم والحضارة في بلدتك هذه طيلة أربعة قرون، حتى صارت بلادكم بسببها أرقى من أية بلاد تقع عنها شمالاً في ذلك الوقت.

ثم قلت لها: ألم يحدثك محدث عن ذلك؟ فقالت: لا.

وهذا من العجب أن يبلغ التعصب في أمة هذا المبلغ الذي أملى عليها بأن تمسح من تاريخ بلادها صفحة مشرقة، وإذا كانت - على سبيل الفرض - لا تعتبرها مشرقة، فإنها صفحة بل صفحات إن طواها الزمان، ستظل معروفة مجلجلة في تاريخ المنصفين.

ومن التافه الطريف أن أهل هذه البلاد فيهم لطف وظرف، ويبتسمون للغريب، بخلاف ما عرفناه عن الموظفين الروس من رجال ونساء الذين لا يجد المرء في وجوههم غير العبوس.

مغادرة تفليس:

في الرابعة والنصف كنا نضع حقائبنا في سيارة تابعة للفندق، كتبوا في أوراقه أن أجرتها إلى المطار هي خمسة عشر دولاراً أمريكية.

سلك السائق طريقاً غير الرئيسية التي جئنا معها من المطار التماساً للقرب، وسيارته (لادا) الروسية، فكانت الشوارع مليئة بالحفر، لأن الزفت فيها متآكل، بل جزء منه ساقط، ولا تبعد حالتها عن سوء حال أسوأ الطرق في البلدان المتخلفة، وظلت هذه حالته حتى دخل الطريق الرئيسية للمطار، وهي مزدوجة في أكثر امتدادها بين طريق الذاهب فيها والآيب جزيرة فيها عشب لم يزرع، وعليها الأبنية السكنية التي بنتها الحكومة شققاً سكنية لأبناء الشعب، وأسميتها في عديد من كتبي بالعمائر الشيوعية، لأنه لا يكاد يوجد لها نظير في البلدان الحرة التي نعرفها، بمعنى أن الأبنية العالية المتعددة الطوابق (العمائر) كلها بنتها الدولة، ولا يوجد منها شيء بناه رأس المال الخاص، ويملكه غير الدولة، كما أن الأفراد في المدن الشيوعية لا يستطيعون أن يبنوا لهم مساكن منفردة، لأنه لا يبني المساكن إلا الدولة، فتعوض الناس عن ذلك ببناء هذه الشقق في أبنية عالية، تكاد تكون على طراز واحد، وإن اختلف طلاؤها.

وعلى عادة المدن الشيوعية التي تكون الأحياء فيها متفرقة غير متلاصقة، فقد انتهت أبنية المدينة، ووصلنا لمنطقة ريفية ضيقة، ما لبثت العمائر (الشيوعية) أن عادت إليها، فصارت حياً منفرداً، ولكنه مربوط بغيره بوساطة طريق المطار هذا.

وصلنا المطار ولكننا وجدنا الأمر فيه كغيره من المطارات الشيوعية، لا يصح وصفه بغير الفوضى، ولم نستطع أن نعرف مكتب الترحيل إلى (باطومي)، وهي عاصمة إقليمية داخلية إلا بالسؤال، وحتى

بالسؤال لم نستطع معرفة ذلك إلا بأن ذهبت معنا امرأة من المسافرات أو المودعات وأرتنا إياه، فاللافتات على قلتها كلها بالروسية، وليس منها شيء بالإنكليزية، مع أنه يركب وينزل في مطارهم هذا ركاب لا يعرفون من اللغات العالمية إلا الإنكليزية.

وجدنا في مكتب الترحيل امرأة مثل غيرها في المطارات الروسية تبطئ في العمل، ولا تبالي بالناس، فطلبت منا دفع أجرة خمسة كيلات قالت: إنه زائد في أمتعتكم، مع أننا ثلاثة، أي كل واحد زاد في أمتعته أقل من كيلوين اثنين، وهذا شيء تافه لا تلقي الشركات له بالاً في العادة.

وليس المهم عندنا هو دفع أجرة هذه الكيلات الخمسة فهي ضئيلة، ولكن المشكلة هي أن الموظفة لا تأخذه منك، وإنما تعطيك ورقة وتطلب منك أن تذهب إلى مكتب هناك ليعمل معاملة لك، ثم تذهب إلى الخزانة فتدفع المبلغ، وتعود بالإيصال إلى الذي عمل لك المعاملة، فيوقعه ويرسلك ثانية إلى موظف الترحيل.

والأدهى من ذلك أنها لم تتسلم الحقائب والأمتعة عندما وزنتها وأخذت أجرة الوزن الزائد فيها، وإنما قالت: عليكم أن تحملوا أمتعتكم معكم إلى الطائرة، فنحن لا نتسلمها منكم.

وهذه عادة قبيحة عانينا منها في مطارات عديدة من مطارات الأقاليم التي زرناها في هذه السفرة في جنوب روسيا، ومنها من قازان إلى أورنبورغ ومن أورنبورغ إلى أورسك، ثم إلى اورنبورغ، ثم إلى سمارا، ومن سمارا إلى (أستراخان)، كل ذلك كنا نحمل أمتعتنا معنا من مكاتب الترحيل إلى الطائرة، ونضعها في الطائرة، ثم ننزلها منها بأنفسنا!!

ذهبنا نسحب أمتعتنا سحباً حقيقياً، لأن للحقائب عجلات صغيرة

تسير عليها عند السحب، والذي ليس له عجلات نحمله حملا، ووصلنا إلى ضابط جوازات مع أن الرحلة داخلية، فنظر في الجوازات وقال: هذه رحلة داخلية، وأنا هنا أعمل في رحلة خارجية، إلا أنه تلطف عندما رأى أسماءنا في الجوازات وقال: أنا من عائلة (رجبي)، واسم (رجبي) من أسماء الأسر الإسلامية. فسألته: أنت إذاً مسلم؟ فلم يرد بصراحة وإنما قال: أنا من أسرة رجبي، وقد تركناه قليلاً ثم سألته عن اسمه الأول فقال: أمير، وهنا عرفنا أنه من أسرة مسلمة، وقد تحققنا من أصله الإسلامي بشيئين: أحدهما أنه قال جاداً: إنني أود أن أذهب معكم إلى بلادكم، والثاني: أن شكله يشبه أشكال الألبانيين الأصلاء، فهو ذو أنف أقنى مقوس كأنف الصقر، وهو الأنف القريب من الأنف الروماني، ورأينا مثله بعد ذلك كثيراً من المسلمين في إقليم باطومي.

ولم يسمح لنا بالدخول إلى القاعة، لأن هناك رحلة مسافرة إلى موسكو، وقال: عليكم أن تنتظروا حتى ينتهي الآخرون، ووقفنا معنا أمتعتنا في ممر ضيق، وجاءت مضيفة أرضية فسألناها حلاً لمشكلتنا فنحن نريد أن ندخل قاعة الترحيل لنجلس ونستريح، وأنا أريد أن أستفيد من الوقت فأكتب، فقالت: عليكم الوقوف هنا حتى نخبركم.

وتبين أنه ليست لديهم إلا قاعة واحدة فيها ركاب الخارج لموسكو، ولا يريدون أن يختلط ركاب الرحلة الداخلية الذين نحن منهم بهم.

ورأينا بعض ركاب موسكو يحملون بأيديهم أكياساً فيها فاكهة من الخوخ الذي هو رخيص، لأن البلاد تنتج الفاكهة بكثرة، وهي قليلة في موسكو، إلا ما كان منها مستورداً غالياً.

ثم أدخلونا إلى قاعة المغادرة، ولكنهم كانوا يفتشون الركاب تفتيشاً دقيقاً جداً، لا يتسامحون في ذلك مع أن الرحلة داخلية، فامتنعنا أن

يفتشـونا قـائلين: إن جوازاتنـا (دبلوماسـية) ولا نسـمح بـالتفتيش، وكـان المفتشـان رجـلاً وامـرأة ظـلا وقتـاً يتراجعـان وهمـا يحملقـان في الجـوازات الدبلوماسية، ثم أرسـلا رسولاً إلى ضابط كبير أيضاً قبل أن يأتي، ويرطن معهما ثم يغيب ونحن واقفون، وانتهى الركاب كلهم، وأخيراً جاء موظف آخر وسمح لنا بالدخول من دون تفتيش، وقد بلغ عدد الموظفين الذين رأيناهم يتشاورون في موضوعنا، لأنهم كانوا يطلعون على الجوازات ستة، غير من ظنناهم من المستشارين لهم.

ثم حملنا أمتعتنا مع درجة تصل إلى بوابة الخروج إلى الطائرة، وكان عندها مما يلي ساحة وقوف الطائرات حافلة رفعنا إليها أمتعتنا بصعوبة.

وعند الطائرة أنزلناها ورفعناها للطائرة، حتى وضعناها في رفوف الأمتعة في ذيل الطائرة.

من تفليس إلى باطومي:

الطائرة صغيرة نفاثة من طراز (ياك ٤٠) الروسي، فيها ٣٤ مقعداً، ومع ذلك لها ثلاثة محركات نفاثة صغيرة، ولذلك اشتهرت بالقوة والأمان، إلا أن مدخلها ضيق، إذ وضعوا درجة الصعود إليها في ذيلها ضيقة، ومع ذلك لا بد للراكب فيها أن يرفع أمتعته إليها بنفسه ولو كانت ثقيلة.

ومع قلة المقاعد في هذه الطائرة النفاثة، فإن الركاب فيها غيرنا لم يزيدوا على أحد عشر راكباً فيهم طفل.

وسبق أن جربت الركوب فيها فوجدتها مريحة، فهي أكثر راحة من ناحية الطيران في الجو وقلة الاهتزاز من الطائرات الغربية النفاثة، وفي مرة من المرات كنا في مدينة نلتشك عاصمة جمهورية (قبرداي بلغار) القوقازية

الداخلة في جمهورية روسيا الاتحادية، فلم نستطع أن نجد طائرة مسافرة إلى داغستان، فاستأجرنا هذه الطائرة النفاثة الصغيرة كلها بألف دولار من نلتشك إلى محج قلعة عاصمة داغستان، وكنا أربعة ولم يكن معنا فيها غيرنا، وقد استغرق طيرانها آنذاك ساعة وخمس دقائق.

وأقلعت الطائرة من مطار تفليس في السادسة و٧ دقائق عصراً متأخرة ٧ دقائق عن موعد قيامها في الأصل وهو السادسة.

لم ترتفع الطائرة في الجو بسرعة، مما مكننا من مشاهدة مدينة تفليس مرة أخرى من الجو، حيث بدت من الطائرة متفرقة الأحياء، في مساحة خارج الوادي المنخفض الذي كانت فيه المدينة القديمة وما بقربها من جنبات الوادي، بحيث إنها بدت أكبر من عدد السكان الذين يسكنون فيها، وهم مليون ومائتا ألف نسمة.

ثم ارتفعت الطائرة فوق الجبل الأخضر الذي يطل على تفليس من الناحية الجنوبية الغربية، فرأينا فيه حياً شعبياً ذا منازل سقوفها من الصفيح الأبيض، وبدا نهر كورى الذي ذكره أسلافنا العرب في كتبهم عندما كانت هذه البلاد عربية مسلمة باسمه (الكر)، وهو يغادر وادي تفليس - إن صح التعبير - متجهاً جهة الشمال الغربي، يتتبع المواطن المنخفضة، وسوف يظل كذلك حتى ينعرج مجراه شرقاً فيصل في نهاية سيره إلى بحر الخزر الذي يسمى الآن (بحر قزوين).

ثم رأينا حياً آخر في منخفض من الأرض خلف الجبل أشبه ما يكون بالقرية، لولا أنه متصل من جهة الوادي بالمدينة.

ثم بدا جبل تفليس المتواضع صغيراً عاجزاً عن النهوض بالنسبة إلى جبال من جبال القوقاز عالية خضر وصلتها الطائرة، وكلها مجللة

بالغابات، وبخاصة في أكتافها وحواشيها، وقد تجنبت الطائرة القمم العالية من هذه الجبال، وهي تطير قاصدة جهة الغرب التي تقع فيها مدينة باطومي عاصمة إقليم أجاريا، غير أنها تتفادى القمم الجبلية فتحيد عنها قليلاً جهة اليمين أو جهة اليسار، والركاب كلهم من القوقازيين البيض، وفيهم نساء زانهن لون وردي مطبوع غير مصنوع، إلى جانب تناسب التقاسيم في الوجوه والأجسام، فهم في هذا - عدا اللون - يشبهون العرب، أما ألوان البشرات والعيون فمختلفة، فالعيون هنا تتراوح بين الزرقة والشهلة، والعيون الشهلة - واحدتها شهلاء - هي التي بين السواد و الزرقة، أو هي السود بلون أزرق خفيف.

واستمرت الجبال البالغة الاخضرار تحت الطائرة، وأحياناً تكون قممها محاذية لها لارتفاعها، وكون الطائرة تطير محاذية لها، مجانبة لأعاليها.

وبين هذه الجبال وديان عميقة، تختلف بين الضيق والاتساع القليل، وفيها قرى ومساكن.

وليس في جيوب المقاعد في الطائرة جرائد ولا مجلات ولا أوراق تبين وجهة الطائرة، والأماكن التي تمر بها من مواقع خريطة تكون في مجلة الشركة التي تسير الطائرة في العادة.

وهذا أمر عرفناه من الطائرات الروسية التي تقوم من مطارات الاتحاد السوفيتي السابق إلى مطارات أخرى، كما أنهم أراحوا أنفسهم من عناء تقديم أي ضيافة للركاب.

ولم يكن في ظهور المقاعد موائد للطعام يمكن أن تستعمل للكتابة، لذلك عدت أنظر إلى ما تحت الطائرة من جبال القوقاز العتيدة.

جبال القوقاز:

جبال القوقاز اسمها عند أسلافنا العرب جبال (قبق) أو (قبج)، ذكرها بذلك طائفة من بني قومنا العرب الأولين ليس هذا مجال ذكرهم، ولكنني بهذه المناسبة كنت نقلت نصاً بل نصوصاً لبعضهم في بعض الكتب التي ألفتها مثل كتاب: (**بلاد الداغستان**) المطبوع، وكتاب (**رحلة الشمال**) الذي لا يزال مخطوطاً، وذلك لمناسبة زيارتي لتلك الجبال، لأبين أن أسلافنا كانوا عرفوها معرفة اليقين، وذكروا اسمها واضحاً، إلاّ أن المحدثين من بني قومنا قد التمسوا المعرفة بها من أناس غيرنا، فجاءوا لنا بالصيغة التي صارت مشهورة عندهم وهي القوقاز، أو القفقاز، أو القفقاس، جهلاً أو تجاهلاً بما سماها به أسلافهم الأماجد.

هذا وقد اتسعت السهول بين الجبال، وبدا نهر نزر المياه، يتسع مجراه في أحدها، ونحن الآن فوق سحاب منخفض تحت سحاب مرتفع، ثم عادت الجبال إلى تكويمها، وهذه من صفات هذه الجبال القوقازية، لأنها في أكثر الأحيان تتخذ شكل الأكوام من الجبال، وليس شكل السلاسل الجبلية المنقادة.

وغنا الركاب كما غفونا عن أمجادنا التي ورثناها عن أجدادنا، فهل نصحو ؟.

وران على الأرض سحاب منخفض لم أر منه إلا ظهوره التي تلي السماء بيضاً، بل ناصعة البياض، لأن الشمس تنعكس فوقها فتزيدها نوراً على بياض.

ثم انجلى السحاب أو انجلت الطائرة عنه، حيث أمعنت في سيرها جهة الغرب، فرأينا تحتنا وادياً عميقاً يشقه نهر كبير، عليه مدينة

متوسطة لم يخبرنا مخبر من أمرها شيئاً، وحتى مضيفة الطائرة لا تعرف الإنكليزية، وإلا لكنا سألناها سؤالاً عن المناظر تحتنا.

ثم تكاثف السحاب مرة أخرى إلى أن صار حجاباً منيعاً، وسداً محكماً دون الأرض، إلا ما كان من قمم هذه الجبال القوقازية التي لم يستطع السحاب أن يقنع أعاليها.

وبقي هذا السحاب حائلاً بيننا وبين الأرض، وحتى عندما تدنت الطائرة وهي تتدلى كانت تفعل ذلك وهي في لجة سوداء من السحاب الكثيف، إلى أن خيل إليّ أنها قاربت الوصول إلى الأرض وهي كذلك، ولكن تبين أنها كانت تحلق فوق مياه البحر الأسود، وكان المطر يهطل، وقد بدا السحاب والطائرة تحته أسود كثيفاً، إلا أنه تزينه قطع من الرباب -وهو السحاب الأبيض - المتنرق يكون تحت السحاب الأسود الكثيف، ويبدو من الأرض كأنما هو ملتصق بالسحاب، على حين أنه منفصل عنه كما نراه الآن، لأنها عكست لون السحاب الأسود فوقها، والماء كما قال الأقدمون لا لون له، وإنما يكتسب لونه من لون الإناء الذي فيه.

وهدأت محركات الطائرة قليلاً حيث تستعد للهبوط، وزاد المطر وإن كنا لا نحس به من الطائرة إلا كما تكون الخيوط الحريرية البيض التي تتكون حول الطائرة في لحظة، ثم تتلاشى في أسرع من ذلك.

ورأيت أهداب السحاب وهي تتدلى حتى تكرع في مياه البحر، مع أن البحر لا يشرب، ولكن ذلك كان في مرأى العين، ورأيت ساحل أجاريا على البحر الأسود أخضر شديد الاخضرار ذا ربى جميلة بل فاتنة، فقلت في نفسي: أين الشعراء؟

أين الملك الضليل امرؤ القيس بن حُجْر الكندي، وأين الأعشى

المنفوحي، وأين عنترة الأسود العبسي، وأين كعب بن زهيرالقصيمي؟ لا شك في أنهم لو رأوا هذه المناظر مع مناظر الغانيات الكرجيات، لطالبوا بأن يمحوا شعرهم في بيت الشَّعَر ووصف البَعَر وسرعة البعير وغدائر الغانيات المستشزرات إلى العلا.

ولكن هكذا أكثر الأمور في هذه الحياة هي نسبية للشعور والإحساس بها أكثر مما لها في الحقيقة نفسها من مكانة أو مكان.

وطارت الطائرة لهنيهة طيراناً منخفضاً فوق ساحل البحر الأسود الضحل الأخضر اللون، تليه أرض خضراء كثيفة الخضرة، مما ذكرني بمناظر المناطق الاستوائية في العالم.

وقد رأيتها في قاراته جميعاً: في شمال أستراليا وجنوب آسيا، وسواحل إفريقية، وفي بلاد الكاريبي بين الأمريكيتين الشمالية والجنوبية، وقلت في نفسي: ما لتلك البلاد الحارة الكدرة بهذه البلاد الباردة النضرة؟ ثم قلت: الله سبحانه وتعالى يعطي ما يشاء لمن يشاء.

وهذا البحر الذي يعرف الآن بالبحر الأسود كان قومنا الأقدمون يسمونه اسماً منقولاً عن الأعاجم، وهو بحر ينطس، وسماه بعضهم (بحر طرابزنده)، و(طرابزنده) هي المدينة التي تعرف الآن بطرابزون، وتقع على هذا البحر داخلة في جمهورية تركيا الحالية، وسوف يأتي ذكر لها عندما نمر بها بعد الانتهاء من زيارة (أجاريا).

قال العلامة أبو الريحان البيروني عن البحر الأسود هذا: ثم في وسط المعمورة في أرض الصقالبة والروس بحر يعرف ببنطس عند اليونانيين، وعندنا يعرف ببحر (طرابزندة) لأنها فرضة عليه، ويخرج منه خليج يمر على سور القسطنطينية، ولا يزال يتضايق حتى يقع في بحر الشمال الذي

على جنوبه بلاد المغرب إلى الإسكندرية ومصر، وبحذائها في الشمال أرض الأندلس والروم، ويريد بالخليج مضيق البوسفور، وببحر الشمال ما يسمى الآن بالبحر الأبيض المتوسط.

وقال الإدريسي في نزهة المشتاق وسماه بالبحر البنطسي - نسبة إلى (بنطس) - مع أن هذا كان اسمه عند بعض البلدانيين من العرب القدماء:

إن الذي تضمن هذا الجزء الخامس من الإقليم السادس قطعة من البحر البنطسي بل أكثره، وما على ساحليه معاً من البلاد المدنة والمعاقل المشهورة والمراسي الممكنة والجزائر العامرة والغامرة.

ونحن نريد تبيان ذلك كله بإيضاح من القول وإيجاز معنى فنقول: إن هذا البحر البنطسي هو بحر خليجي كبير طوله من المغرب إلى المشرق ثلاثة عشر مجرى، وأما عرضه فمختلف، وأعرض موضع يكون فيه ستة مجار.

ومبدؤه من جنب القسطنطينية من الخليج الواصل إليها من البحر الشامي (يعني البحر الأبيض المتوسط) المتصل بالبحر المظلم (يريد به المحيط الأطلسي)، وذلك أن فوهته عند مدينة القسطنطينية تكون سعته ستة أميال، وطوله من القسطنطينية إلى أول اتصاله بالخليج البنطسي ستون ميلاً، وعند أول خروجه من بحر بنطس عليه مدينة تسمى مسناة.

ويخرج هنالك منه جون في جهة المشرق[1]، وينعطف انعطاف النون، وعليه هناك مدينة نقموذية، ومدينة خلجدونية، ويتصل فم الخليج المذكور وطوله كما قلنا ستون ميلاً إلى بحر بنطس.

---

(١) يقصد به بلاد القرم.

والطريق من مدينة القسطنطينية مساحلاً إلى مدينة أطرابزندة الساحلية المجاورة لأرض أرمينية من القسطنطينية إلى مدينة مسناة التي على فوهة الخليج، ومن هناك يسير مشرقاً مع الضفة الجنوبية إلى جزيرة دفنيسية مائة ميل، وهي جزيرة صغيرة غير عامرة، وبينها وبين البر ميل واحد.

جمهورية أجاريا

(ذات الحكم الذاتي)



جمهورية أجاريا

تقع في شمال القفقاس على الساحل الشرقي للبحر الأسود بين جورجيا وتركيا، وتبلغ مساحتها ٣٠٠٠ كيلومتر مربع، ويقدر سكانها بنحو ٣٩٣٠٠٠ حسب إحصاء عام ١٩٨٩م، ويظن أن عددهم الآن قد وصل إلى ٤٥٠ ألفاً، ويتألفون من القوميات التالية:

٨٠٪ من الأجار.

٩,٨٪ من الروس.

٤,٦٪ من الأرمن.

والبقية من قوميات أخرى.

الأجار من هم؟

شعب كرجي اعتنق الإسلام خلال الحكم العثماني على غرب جورجيا إلى ان احتله الروس بموجب مؤتمر برلين ١٨٧٨م، والمسلمون الأجاريون هم من أهل السنة على مذهب الإمام أبي حنيفة النعمان بن ثابت، ومع أنهم كانوا زمن الاتحاد السوفيتي يتبعون الإدارة الدينية لما وراء القفقاس التي يرأسها الشيخ الله شكر باشا زاده، وهو شيعي آذاري مقيم في باكو، إلا أن لهم إدارة دينية يديرها الشيخ داود بن وزير كابودزة، ومقرها باطومي عاصمة أجاريا، ويقدر عدد المساجد في أجاريا بنحو ١١٠ مساجد.

المدن التي زارها وفد الرابطة:

مدينة باطومي عاصمة أجاريا التي تقع على ساحل البحر الأسود، ويقدر سكانها نحو ١٣٦٠٠٠ نسمة، أغلب المسلمين فيها من الأجاريين، ثم الأتراك والأذاريين والتتار.

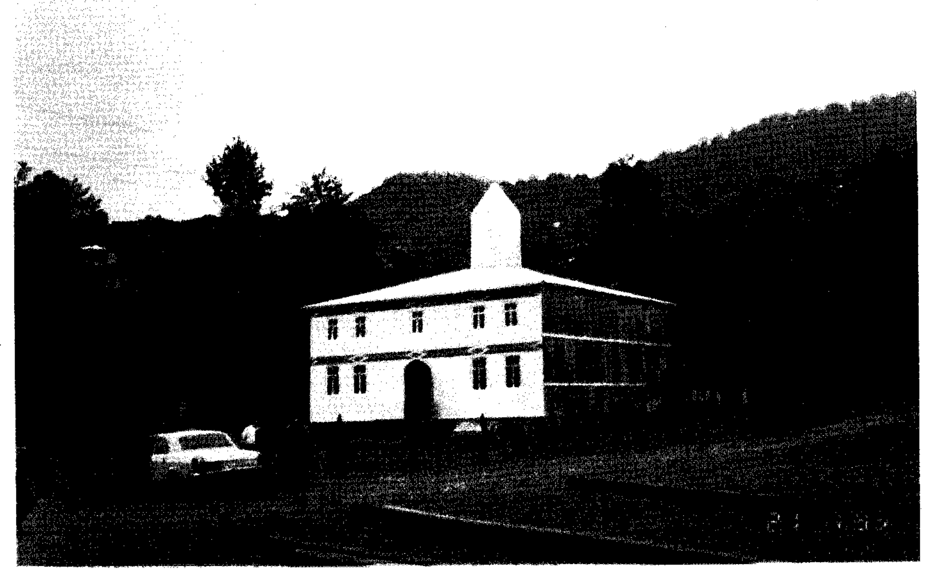
وقد زار وفد الرابطة فيها ما يلي:

١-الجامع الأوسط، ويقال له أورته مسجد، ويقع في وسط المدينة، ويطل على شارعين رئيسيين، وبجانب المصلى مبنى من دورين، وغرف وفي الدور الأرضي: حمامات وأماكن وضوء، والدور الثاني يتخذ سكن ومكاتب؛ حيث الشيخ داود بن وزير كابودزه، ويعرف بالقاضي، وهو رجل مسن ولكنه مرهوب ومطاع، ثم الشيخ محمود حسين كوما شيدزه، وهو أصغر سناً منه.

٢-إنكيسا قرية على بعد ١٢كيلومتر من باطومي، والمسجد صغير يقع بجوار مقابر المسلمين، ويبني المسلمون غرفة بجواره لاتخاذها مدرسة إسلامية، ويقول الإمام عمر بن عوني مجادزه بأن مبنى المسجد يرجع إلى ما قبل ١٥ عاماً، وأن ٨٠٪ من سكان القرية مسلمون.

٣-قرية إخالى سوبالى تبعد بحوالي ١٨ كيلومتراً، والمسجد المسمى باسمها جديد من دور واحد، بني عام ١٩٩٢، ومساحته ٨×١٢ وكان أحد الطلاب واسمه رولاندى بن محمد باكودزه يقرأ القرآن الكريم لمجموعة من الجالسين قبل صلاة الجمعة، وإمام المسجد هو عثمان بن سليمان موكودزه، والمتولى هو إدريس بن مراد زودزه، ويقصد أبناء القرية المسجد لدراسة العلوم الإسلامية، وعددهم ٢٥ طالباً.

قرية تشارنالى، تبعد نحو ٢٥ كيلومتراً عن باطومي، يبلغ عدد سكانها نحو ٤٠٠ أسرة أجارية مسلمة، ويبني المسلمون مسجداً جديداً أقيم معظم أركانه بمساعدة محلية، وتبرع قليل من بعض الأتراك، كما يقول الإمام رامز بن حمدى توتدزه.



مسجد تشارنالي بلونه الأبيض والهضاب الخضر خلفه

٤-قرية خلوه شاووري على بعد ١٤ كيلومتراً من باطومي، يستوطنها ٢٠٠٠نسمة من المسلمين، ويؤدي المسلمون صلاتهم في مسجد قديم بني منذ اكثر من ١٥٠سنة، كما يفيد الإمام سليمان بن اسكندر كوماشيدزه، ويحتاج إلى ترميم وإصلاح وبناء منارته، ويتعلم الطلاب في مبنى مجاور وعددهم حوالي ثلاثين طالباً.

٥-قرية كنويو على بعد عشرة كيلومترات من باطومي، وسكانها ٥٢٥

أسرة مسلمة، يصلي المسلمون في مسجد مؤقت، ويبنون مسجداً من دورين، وقد أقيم معظم جدار الدور الأرضي، ويعملون بمساعدة المسلمين المحليين، كما يقوم الإمام زكريا تور ماندزه على إتمام بنائه.

٦-قرية خه قرو، تقع على بعد ١٢كيلومتراً من باطومي، وعدد سكانها ٨٠ أسرة مسلمة، تحيط بها مزارع الشاي، ويشرف الأخ إبراهيم بن محمد تولوندزه على بناء مسجد جديد على قطعة أرض مساحتها ١٠×١٢متراً، وقد وضع أساس المسجد، وينتظر البناء.

٧-ضاحية بريا تقع خارج باطومي بنحو ٢ كيلومتراً، يسكنها ٣٥٠ أسرة، منهم ٨٠٪ مسلمون، وتؤدى الصلاة في مسجد صغير على طرف الشارع الرئيسي، ويعود بناؤه إلى ما قبل تسعين عاماً، ومنارته عبارة عن ماسورة في خارج المسجد، والمسجد مكتمل البناء، ولكن يحتاج إلى أماكن وضوء، واستغلال مبنى صغير من دورين بجواره ليكون مكاناً للوضوء.

المسلمون في أجاريا:

دخل الإسلام إلى أجاريا إبان الحكم التركي للمنطقة في القرن السادس عشر الميلادي.

تبلغ نسبة المسلمين من سكان أجاريا كلها ٨٠٪ ، إلا أن عاصمتها (باطومي) تتدنى فيها هذه النسبة حتى لا تزيد على ٣٢٪ ، فقد هاجر إليها، أو هُجِّر طوائف من غير المسلمين من ساكني الاتحاد السوفيتي

السابق، فيهم روس وأرمن إلى جانب المواطنين النصارى من أهل جورجيا.

وكانت تعرف باسم (أجارستان)، وهذا لفظ تركي حافظ عليه المسلمون في أجاريا، فظلوا ولا يزالون يسمون بلادهم فيما بينهم (أجارستان).



في فناء المسجد الجامع قبل الصلاة في باطومي

(تصوير المؤلف)

وتعني كلمة (أجاري) مسلماً في هذه البلاد، وفي أجاريا أقلية مسلمة من غير الأجار من أذربيجان وبلاد القفقاز، وبخاصة من أبخازيا، وفيها ١١٠ مساجد في الوقت الحاضر، إذ أسرع المسلمون إلى بناء المساجد عندما أتيحت لهم الفرصة بعد سقوط الشيوعية، ولكن المشايخ فيها يشكون من قلة الإقبال على الصلاة في المساجد في الوقت الحاضر كما سيأتي، ولا

شك أن مرجع ذلك إلى التربية الشيوعية الإلحادية التي كانت حرمت التعليم الديني حتى في البيوت، وعلاج ذلك يكمن في التربية الإسلامية القوية التي من أهم مقوماتها إنشاء مدارس إسلامية تعلم الناس مبادئ دينهم الإسلامي الحنيف بطريقة سهلة مبسطة.

ويبلغ عدد السكان في العاصمة (باطومي) (١٣٦) ألف نسمة، وفيها مسجدان فقط وهما جامعان، فيهما دروس كما هي في أكثر المساجد.

اللغة:

لغة المسلمين في أجاريا هي (الجورجية) لغة سكان جمهورية جورجيا، ويتكلم بعض المسلمين من غير الأجاريين الأصلاء - على قلة عددهم فيها - اللغات الآذرية - لغة أذربيجان - والروسية والتركية.

موجز تاريخ أجاريا:

لخصنا موجز تاريخ (أجاريا) من مقالة لخبير روسي مقيم في بريطانيا هو قسطنطين ماتنييف، قال:

الأجار شعب فريد من نوعه يقطن جورجيا، وتتجلى فرادته في التاريخ المشترك الذي يتقاسمه مع الجورجيين المسيحيين، فضلاً عن الثقافة والعادات والتقاليد المشتركة، وكان الأجار أنفسهم مسيحيين إلى القرن السادس عشر عندما اعتنقوا الإسلام في العهد العثماني، فانفصلوا منذ ذلك الحين عن الجورجيين الذين تمسكوا بديانتهم.

يعيش الأجار في واحدة من أجمل بقاع العالم في الزاوية الجنوبية الشرقية للبحر الأسود، وتبلغ مساحة الأجاريا ٣ آلاف كيلومتر مربع، أي

أقل ثلاث مرات من مساحة لبنان، ولا يزيد عدد سكانها عن نصف مليون نسمة، وعاصمتها باطومي أكبر مرافئ جورجيا على البحر الأسود.



منظر في ريف أجاريا

وأجاريا هي إحدى جمهوريات الحكم الذاتي في جورجيا، دخلها العرب في القرن السابع، ولم يتمكنوا من البقاء فيها إلى وقت طويل بسبب المقاومة القوية المستمرة التي أبداها السكان، وأجبروهم على الجلاء عنها، ولم يستطع العرب أن ينشروا الدين الإسلامي في تلك الفترة، وبقي الأجار مسيحيين.

بعد ثمانية قرون في النصف الثاني من القرن السادس عشر، دخل العثمانيون أجاريا، وبسطوا سيطرتهم إلى نهر جوروخ، ولا يزال هذا النهر يفصل تركيا الحديثة عن أجاريا، وبدا الإسلام منذ ذلك الحين ينتشر

بينهم.

وفي الفترة بين القرنين السابع عشر والثامن عشر أكملت السلطنة العثمانية سيطرتها على أجاريا، ونشرت الإسلام في كل أرجائها، لكن الأجار لم يقبلوا حكم الأتراك، وتمردوا عليهم باستمرار، كما تشهد على ذلك انتفاضاتهم المتعاقبة في السنوات ١٦٨٠، و١٦٨٥، و١٦٩٧، و١٧٤٤، و١٨١٩، و١٨٥٠. وأظهرت هذه الانتفاضات أن الأجار لن يتمكنوا وحدهم من الخلاص من الحكم التركي، فناشدوا روسيا مراراً أن تتدخل لمساعدتهم.



المؤلف في منطقة ريفية في أجاريا

وفي الفترة ١٨٧٧-١٨٧٨ تفجرت الحرب الروسية - التركية التي انتهت بانتصار روسيا، ونال الأجار إثر ذلك استقلالهم، وأتيحت لهم

الفرصة للعودة إلى وطنهم الأم جورجيا. استمر هذا الوضع إلى الحرب العالمية الأولى، وفي أعقاب ثورة أكتوبر في روسيا عام ١٩١٧ نالت أجاريا استقلالها كإحدى جمهوريات الحكم الذاتي التابعة لجورجيا في سنة ١٩٢١.

أدى انهيار الاتحاد السوفيتي في ١٩٩١ إلى إنعاش آمال الأجار في نيل مزيد من الاستقلال، ولا تزال هذه الآمال حية في قلوبهم، ورغم أن أجاريا لم تشهد حركات تمرد مكشوفة ضد السلطات الجورجية المركزية، فإن تفليس ترقب الوضع هناك بقلق، هل ستشهد أجاريا أحداثاً على نحو ما جرى في أبخازيا أو أوسيتيا الجنوبية؟ لا يمكن اعتبار مخاوف تفليس من دون أساس، فجذوة التذمر والاستياء وسط الأجار تستعر منذ وقت طويل، وتخشى الحكومة المركزية أن تفتح جبهة ثالثة في أجاريا (تضاف إلى جبهتي أبخازيا وأوسيتيا الجنوبية)، مما سيعرضها إلى خطر التفكك، مثل الاتحاد السوفييتي في ١٩٩١.

وتنتاب هذه المخاوف زعيم جورجيا الحالي، إدوارد شيفاردنادزه، الذي عاش تجربة انهيار الاتحاد السوفييتي، ويتخذ الآن موقفاً متشدداً تجاه أي محاولة لتفكيك جورجيا، فهو لن يسمح كما لن يسمح غيره من القادة الجورجيين للأجار بالانفصال وإنشاء دولتهم المستقلة، وإذا اختاروا السير على هذا الطريق فإن المخاوف من حرب ستكون واردة، كما بينت تجربة أبخازيا وأوسيتيا الجنوبية.

في مطار باطومي:

هبطت الطائرة في السابعة مساءً تماماً بعد طيران استغرق ثلاثاً وخمسين دقيقة، مع أن المسافة بين تفليس وباطومي هي ٦٠٠ كيلو جوي، والمطار أخضر، بل المنطقة كلها خضراء ندية، وتجلى الخصب في كل مكان، وشهد بذلك السحاب المظلم المطبق على الجو، والمطر الهاطل الذي كان يتمهل في نزوله، ربما رأفة بركاب طائرتنا الذين لم تعد لهم إدارة المطار أي شيء يقيهم من المطر، فالطائرة وقفت في ساحة بعيدة من مبنى المطار، ولم يقدموا حافلة تنقلهم، ولا مظلات يتقون بها البلل.

ومن الغريب أن مكبر الطائرة لم يعلن شيئاً عند النزول إلى المطار، ولو أعلن فإنه لن ينفعنا، لأنه سيكون بالروسية التي لا نستطيع أن نجد من يترجمه لنا، لقلة الذين يعرفون الإنكليزية من المواطنين.

كان المطر يهطل رذاذاً عندما هبطت الطائرة، وكان علينا أن نحمل حقائبنا من الطائرة إلى مبنى المطار وهو بعيد، إلا أن الفرج جاء على هيئة صبية معهم عربات تدفع باليد، فصاروا يأخذون أمتعة الركاب ويحملونها على عرباتهم، وكان من حظنا عربة معها اثنان من الصبية، أو لنقل إنهما من الفتيان، لأنهما في عمر السادسة عشرة تقريباً.

تعاون الصبيان على جر الأمتعة ووضعها في العربة، فسارت العربة وهي تقرقع لخشونة أرض المطار، وسرنا مع الركاب إلى بناية المطار، ولكن موظفاً صدنا عنها وأشار إلى جهة بعيدة عن المبنى وهو يرطن، ولكن ماذا يضير، والمسألة كلها بلل سوف يطير، فخرجنا من أسفل الساحة إلى أرض خشنة، والصبيان يتعاونان على دفع العربة وهي تتمايل

لخشونة الأرض، وفي منتصف الطريق حضر رجل قال: إنه صاحب (تاكسي)، وقد ذكرني أنفه بأنف ضابط الجوازات في مطار تفليس الذي فارقناه قبل، فهو أنف روماني معقوف كأنه منقار الصقر، مما رجح عندنا أنه مسلم، وكان الأمر كذلك إذ قال إن اسمه (جليل أوجري عثمان أوغلو)، وذوو الأنوف المرتفعة المعقوفة موجودون بقلة بين المسلمين هنا، ولكن أشكالهم معروفة، وأما سائر المسلمين فإنهم قوقازيون، وكفى بهذا وصفاً، إلا أنه ينبغي تقريبه للفهم بالقول إنهم أقرب من يكونون إلى الأتراك العثمانيين الشماليين.

ولم نمر بأية إجراءات، لأن الرحلة داخلية، إلا أن مكتباً للطيران تأكد من كون الحقائب هي حقائبنا، واطلع على جوازاتنا وتذاكرنا.

في مدينة باطومي:

أعطينا الصبيين أجرتهما دولارين، وكأنما الدولار هو العملة الرسمية المستعملة هنا، لأن كل من حدد لنا ثمن شيء حدده بالدولار، وانطلقنا مع سائق السيارة المسلم، والمسلمون في المدينة كثير، لأنها عاصمة إقليم أجاريا الذي يؤلف المسلمون ٨٠٪ من سكانه، إلا أن نسبتهم في العاصمة أقل من ذلك، لأن طوائف من غير المسلمين سكنوها.

كان السائق يتكلم التركية بصعوبة مثل كثير من المسلمين في هذه البلاد، لأن اللغة الشائعة عندهم هي اللغة الجورجية، ورفيقنا في الوفد الأستاذ رحمة الله بن عناية الله يجيد معرفة التركية.

فكان السائق يحدثنا عن المساجد وأحوال المسلمين في البلاد وغير ذلك، ومنه أن المسافة من المطار إلى قلب المدينة هي ١٠ كيلومترات، مع

طريق سيء كثير الحفر التي أظهر المطر عيوبها، وزاد من عوارها، وإلى سوء الطريق، فإن الإهمال واضح عليه وعلى ما حوله، فالنظافة فيه من حواشي الطريق الذي لا أرصفة له معدومة، بل إن بعض النفايات لا تزال ملقاة، وهناك أبقار صفر حسنة المظهر ترعى أعشاب الطريق الذي كان مثل سائر الأرض خصباً جداً من حيث وفرة الندى، وتكاثف العشب، وقد أعجبني منظر أبقارهم، وقال أحد المرافقين: إنها جميلات كنساء هذه البلاد.

ووصلنا بسرعة إلى منازل غير وجيهة، وهي خشنة منفردة يظهر من خلالها، كما لو كان أهلها لا يهتمون بها، وكنا سألنا السائق عن المفتي فوقف عند أخوين مسلمين يسألهما عما نريد معرفته عنه، أحدهما اسمه إبراهيم جدران، ذكر للسائق أن دار الفتوى في الجامع، ووصفه للسائق.

كان المطر يهطل وهم وقوف تحته، إلا أن الجو ليس بارداً.

البحث عن فندق:

طلبنا من السائق أن يذهب بنا إلى فندق جيد، وكان أحد الركاب قد قال لنا بلغة ضعيفة إن باطومي ليس فيها إلا فندق واحد جيد، ومع ذلك لا يتوفر فيه الأمن للنزيل، وقال آخر: إن مشكلة (باطومي) أنها ليس فيها فنادق جيدة.

ووقف السائق عند باب الفندق، ونزل رفيقاي في الغرفة إلى داخل الفندق والمطر يهطل، أما أنا فبقيت في السيارة، ولاحظت وجود عدد من الأطفال المشردين أمام الفندق وقد ابتلت ملابسهم المهلهلة من المطر، وهم يتحركون تحركات غير مهذبة.

وعادوا جميعاً يقولون: إن الفندق مليء، وإن صاحبه يقول: إنه لا يوجد فندق آخر يصلح أن يسكنوا فيه إلا واحد سياحي فوق الجبل، وأرسل معنا أحد موظفيه يدلنا عليه.

سارت السيارة في ضاحية من المدينة بعد أن اخترقت قلبها مع شوارع سيئة الرصف، ثم خرجت إلى منطقة ريفية جميلة أجمل ما فيها أن عرائش العنب تكسو حيطانها كلها، لا يكاد يخلو منها بيت واحد، وهي خضرة يانعة، إلا أن الطريق فيها أسوأ من المدينة، بل إنه تكسر حتى لم يبقَ منه ما يسمى زفتاً.

صعد تلة عالية عجبت من استطاعته السير فوق طريقها الخشن، وسيارته تتمايل وترتفع وتنخفض، ونحن ممسكون بأطرافها لئلا نفارق أمكنتنا، ومازال يرتفع وهو يدور حتى وصل رأس تلة هو غابة كثيفة، فوقف أمام فندق منعزل، ورأينا غرفه جيدة، وأجرتها رخيصة، إذْ هي ثلاثون دولاراً للغرفة المفردة مع وجود حمام خاص في كل غرفة، والفندق جديد نظيف الأثاث والرياش، ولكن المشكلة بعده عن المدينة، وقال السائق: توجد فنادق أخرى داخل المدينة لم تروها، فعدنا معه إلى قلب المدينة، فرأينا الفنادق كلها قذرة مظلمة، حتى إن الفرش فيها متسخة، لا يستطيع مَن يكون مثلنا أن يقاربها، وقال السائق: أنا مسلم وانتم مسلمون، فهيا إلى بيتي، ولكننا لا نعلم شيئاً عن حالة بيته، وبيوتهم صغيرة، وربما كانت فيه أسرته، ونحن لا نعرفه أيضاً، ولا نستطيع أن نركن إلى بيته في حفظ أمتعتنا، ومعنا نقود كثيرة.

واستقر رأينا على الذهاب إلى دار الفتوى وأن يبحث لنا عن مكان آمن نبيت فيه، ولو كان في دار الإفتاء، استقبلنا المفتي الشيخ (محمد

حسين أوغلو) ولم تكن له بنا معرفة سابقة، وليس لديه علم بقدومنا لأننا لم نستطع الاتصال به، فذكرنا له المشكلة التي واجهتنا في عدم وجود فندق، فذكر أنه لا يوجد أي مكان مناسب، وأنه ينصحنا بالذهاب إلى فندق الغابة المرتفع.



أشجار الشاي والأشجار النافعة الأخرى في ريف أجاريا

وهنا تمنينا الحصول على غرفة في الفنادق الروسية السيئة التي كنا نزلنا فيها في جنوب روسيا، ولم تكن تعجبنا لرداءة الخدمة فيها ورداءتها هي، إلا أنها آمنة يطمئن الإنسان فيها على سلامة نفسه وماله.

ولم يكن بأيدينا ما نفعله إلا الرجوع إلى فندق الغابة المرتفعة.

نزلنا في غرف في الطابق الرابع، ولم يكن باستطاعتنا حمل حقائبنا، فحملها قوم كانوا في الفندق تبين أن عددهم فوق ما يحتاجه

الفندق، وذلك أنه ليس في الفندق مصعد.

كانت الشمس قد غابت، وقد ضربنا موعداً مع المفتي للقاء غداً في التاسعة صباحاً، فصنعنا شاياً في الغرفة، وأسرعنا إلى النوم، ولكن المطر لم ينم، بل استمر هطوله منذ وصولنا حتى نمنا قبل منتصف الليل بقليل.

يوم الجمعة: ٢٤/ ٢/ ١٤هـ ٢١/ ٧/ ١٩٩٥م

أصبحنا على جو ماطر مظلم، ومازال المطر يهطل منذ أن وصلنا أمس، وإن كان يخف أحياناً ويزداد أحياناً أخرى، وانتهزت الفرصة فالتقت صورة من نافذة غرفتي في الفندق لجانب من المدينة ذات الطبيعة الخضراء، بل الكثيفة الاخضرار إلى حد أنها تشبه الأجواء الاستوائية، وقلت في نفسي: لو وجدت في هذه البلاد إدارة حكيمة قادرة لصارت من البلدان الغنية المشهورة بإنتاجها الزراعي الوفير، ولغدت محط أنظار السياح ورحالهم من جميع أنحاء العالم.

وذهبنا إلى مطعم الفندق لتناول طعام الإفطار في الثامنة والنصف، فذكروا أنه لا يفتح إلا في التاسعة والنصف، وذلك أن هذا الفندق أشبه بالمنتجع الذي يأتي إليه من يريدون قضاء إجازة في جو هادئ، أي بعيداً عن ضوضاء المدينة وصخبها، وقد أبعده عن المدينة وجوده في رأس هذه التلة، وإلا فإنه ليس بعيد المسافة عنها.

إلى دار الفتوى:

و(دار الفتوى) يسميها بعضهم في البلاد الروسية أو التي كانت روسية سوفيتية (الإدارة الدينية)، والقائم عليها الذي هو رئيس الإدارة الدينية يسمونه المفتي.

وجدنا دار الفتوى في غرفتين صغيرتين، يدخل لأحدهما من الأخرى، وهما في ملحق بالجامع الكبير في المدينة، كان المفتي في استقبالنا وقد عرفنا أمس، فقدمنا للموجودين عنده في مكتبه في الغرفة الداخلية، وهم القاضي (داود كوبادزه)، وهو شيخ جليل، بهي الطلعة، ارتضاه المسلمون

قاضياً يقضي بينهم إذا تراضوا بالذهاب إليه على طريقة الصلح بين المسلمين، وإلا فإنه لا يوجد قضاء إسلامي في الاتحاد السوفيتي السابق، ولا غيره من البلدان الشيوعية، وحتى الآن لا يوجد للمسلمين قاضٍ شرعي، ولا أحوال شرعية خاصة بهم، وكان عنده مع القاضي أربعة آخرون من العاملين في جمعية المسجد.

تكلمت فيهم بكلمة ترجمها إلى التركية الأستاذ رحمة الله بن عناية الله، فبينت لهم الغرض من زيارتنا لهذه البلاد، وأنه الالتقاء بالإخوة المسلمين والاطلاع على أحوالهم، والعمل على توثيق العلاقات ما بينهم وبين رابطة العالم الإسلامي التي قدمنا منها، وهي منظمة شعبية إسلامية عالمية، تساعدها الحكومة السعودية من أجل أن تساعد المسلمين في مشروعاتهم الإسلامية.

وقلت لهم: إننا أول وفد ترسله رابطة العالم الإسلامي إلى هذه المنطقة المسلمة، وليس لنا هدف آخر من زيارة البلاد غير ما ذكر، فهي زيارة لله، وفي ذات الله، إن شاء الله.

ذلك بأن رابطة الإسلام هي أقوى من رابطة النسب، ونحن نتمنى أن نراكم في بلادنا حجاجاً ومعتمرين، وقد قاطع القوم كلمتي بالتعليق عدة مرات، حيث تبين أنهم لم يتعودوا على إجراء المباحثات الرسمية، فلم يكونوا يتركونني حتى أتم كلامي، ثم يعقبون عليه، ومن ذلك أن القاضي الشيخ داود قاطعني قائلاً: إنه قد حج قبل سنتين، لا شك أنه حج ضمن حجاج الاتحاد السوفيتي السابق الذين شملتهم منحة خادم الحرمين الشريفين الملك فهد بن عبد العزيز آل سعود للحجاج السوفييت، بأن يحجوا مجاناً على ضيافته، ويصرف لهم كل شيء حتى التذاكر.

وقد جرت مناقشات معهم عن أحوال المسلمين في هذه البلاد وسكانها، استفدنا منها كثيراً لأنها غير موجودة في الكتب، وقالوا: إنكم أول وفد إسلامي يصل إلى بلادنا.

وقال أحد الأخوين المرافقين لي في الغرفة: إنه يمكن للشيخ -يقصدني- أن يتكلم في الإخوة المصلين صلاة الجمعة اليوم في المسجد الجامع، وفرحوا بذلك، غير أنهم قالوا: إن المشكلة الترجمة، فلا يوجد من يتكلم العربية حتى يترجم كلمته، فذكر لهم أن زميلنا في الوفد الأخ رحمة لله يحسن التركية، ويمكنه أن يترجم إلى هذه اللغة، فذكروا أن عامة المصلين لا يعرفون التركية، وإنما يعرفها بعض طلبة العلم منهم.

وقال أحدهم: إن هناك رجلاً عربياً يصلي أحياناً معنا، وهو يعرف لغتنا، ولكن تبين بعد ذلك أنه لم يحضر لأنه كان غائباً عن البلاد.

وقد تبيَّن إثر العزلة الطويلة فيهم جهلاً بأحوال المسلمين، حتى في جمهوريتهم هذه، فهم لا يعرفون شيئاً عن المسلمين في العاصمة تنليس، كما أنهم لا يعرفون شيئاً عن أحوال المسلمين في أبخازيا الآن، وهي كانت إقليماً ملحقاً بهذه الجمهورية، مثلها في ذلك مثل (أجاريا) هذه.

وقد تظافر الفقر وقلة ذات اليد مع العزلة السياسية المفروضة عليهم إبان الحكم الشيوعي الذي ران على البلاد ٧٣ سنة على ذلك.

واتفقنا معهم على أن نرى بعض المساجد الآن، ثم نعود لصلاة الجمعة معهم في الجامع الكبير.

جولة في القرى القريبة:

خرجنا من دار الفتوى في العاشرة والنصف والمطر يهطل، فاتجهنا جهة الغرب من مدينة باطومي مع أحياء من المدينة، أقل ما يقال فيها إنها مهملة، سواء في ذلك الأرصفة و الطريق، وحتى ابتغاء النظافة وجمال المظهر فيها معدوم كله، ومررنا بجماعات كثيرة في محطات وقوف الحافلات ينتظرونها.

وقد زاد المطر طرق البلدة وشوارعها سوءاً؛ إذِ الحفر الصغيرة التي كانت مغطاة بالطين قد أذاب المطر غطاءها فزادها ذلك سوءاً، وكان يرافقنا في هذه الجولة الأخ إسماعيل عمر أوغلو عضو جمعية المسجد، والأخ سليمان راوا أوغلو الذي كان يسوق السيارة التي نركبها، وهو سائق ماهر صبور على هذه الطرق الفاسدة.

ومررنا بمصنع للدخان، والمراد تعليبه وإعداده للاستهلاك، وقد نوه به المرافقون، وتبين أن الذي نبه إلى ذلك أول الأمر هو من المدخنين، وإن لم يدخن معنا، ثم وصلنا إلى مصنع لسيئة أخرى، وهو مصنع الخمر، هكذا سموه، وهو لتخمير الخمر وتعبئتها، ويقع على شارع (ابو تلزه).

ثم خرجنا إلى ضاحية اسمها (أتنسا)، وهي أشبه بالقرية المنفصلة شوارعها، ونحن نتكلم على الشارع الذي سرنا منه وهو الرئيسي الذي يكون في العادة أحسن حالاً من غيره، ليس فيه من حسن الحال شيء، بل إنني أعجب للقوم كيف لا يشكون منه، فالحفر فيه وفي جوانبه عديدة، وقد ملأها ماء المطر، والزفت فيه مكسر، وقد حلت محل الذاهب منه حفر صغيرة فيه.

ومع ذلك فإن أجمل ما فيه شيء رأيناه فيما بعد في أكثر ضواحي المدينة وقراها، وهو كثرة عرائش العنب الجميلة التي تكسو الحيطان كلها، وتتدلى عناقيدها لم تنضج بعد على أبواب البيوت، حتى تكاد الأبواب تختفي تحتها لكثافتها.

وزاد المنظر جمالاً أن الشوارع وأطراف البساتين والبيوت تنتصب فيها أشجار خضر باسقة.

ورأيت في شوارع هذه القرية التي يسمونها ضاحية أبقاراً سائبة حسنة المنظر.

وقربنا من شاطئ البحر فنبهوني إلى وجود مكان فيه تصلح فيه القوارب، وهو مكان صغير لا يستحق أن ينوه به.

وعندما رأيت شوارع هذه الضاحية أو القرية ذكرت الشوارع الداخلية أي الواقعة في الأحياء غير الرئيسية في مدينة باماكو عاصمة (مالي) الإفريقية، وكنت حسبت آنذاك أنه لا يوجد مثلها في السوء في العالم، ولكن تبين أن هذه الأوربية أسوأ منها.

نهير ماجنست:

مررنا بنهر صغير اسمه (ماجنست)، سألتهم بإلحاح عن اسمه، ولاحظت أنهم لا يلقون له بالا، ولا يشعرون له بأية أهمية لكثرة الأنهار، وغزارة الأمطار في بلادهم.

وهذا النهير الصغير يغذ السير إلى منتهاه في البحر الأسود القريب.

وكل المنازل الريفية الموجودة في الأماكن التي مررنا بها مجللة

بأغصان العنب النضرة، مما لم أرَ له نظيراً في العالم.

وقد أخبرنا الإخوة أن جميع أهل هذه البيوت من المسلمين.

وهذا ليس بغريب، إذا عرفنا أن نسبة المسلمين في إقليم (أجاريا) تبلغ ٨٠٪ ، وإن كانت العاصمة (باطومي) فيها عدد كبير من غير المسلمين، أكثرهم من الذين جاؤوا بعد الحكم الروسي على البلاد.

قرية أنكيسا:

كنا نقصد قرية اسمها (أنكيسا) على غاية من الخصب، فالبيوت وحتى أسوار المنازل والبساتين قد علتها فروع الأعناب الكثيرة، والمزروعات كلها خضرة نضرة، تحيط بها الأشجار الباسقة.

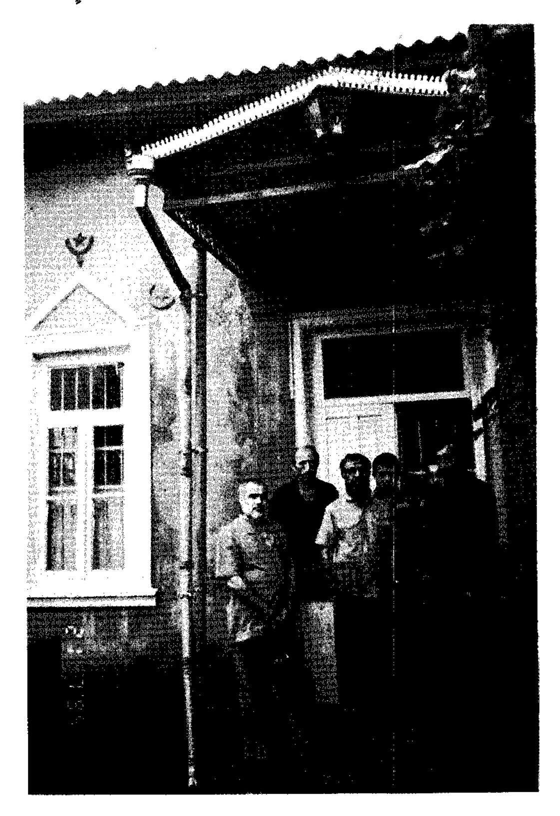
ولم يكدر علينا التمتع برؤية المنطقة إلا كون المطر كان يهطل فيفسد عليَّ ما أريده من التصوير، كما يمنعني من الكتابة بمذكرة صغيرة كنت أحملها.

وتكثر الفواكه الأخرى، أي غير العنب في القرية.

وقفنا عند مسجد القرية، فحضر الإمام وهو شاب تعلم شيئاً من العلوم الدينية في تركيا، واسمه (عمر بن عوني)، وتحدثنا معه ومع أخوين اثنين من أهل القرية، وكنا حضرنا دون موعد سابق، فذكروا أن الإمام ليس له راتب محدد من جهة معينة، وإنما يعيش مما يتبرع به المسلمون للمسجد، وقال الإمام نفسه: ليس لدي راتب، ولكن من التبرعات المتيسرة.

أما المسجد فإنه قديم يرقى تاريخ تأسيسه إلى ١٥٠سنة فيما

ذكروا، وقد صادره الشيوعيون، وبقي في أيديهم، فهدموا منارته، وبقي مغلقاً حتى استعاده المسلمون قبل ثلاث سنوات، وهو الآن بدون منارة، وهو متوسط السعة من طابق واحد، ولم أرَ له ملحقات، إلا إذا كانت قد هدمت زمن الحكم الشيوعي، فهم الآن يبنون غرفة إلى الغرب منه يسمونها مدرسة، وقد وصلوا في بنائها إلى قامة الرجل، ووقفوا لقصور النفقة، مع أنهم يبنونها بلبن الإسمنت، ولكن أمورهم المالية سيئة جداً رغم ما يوحي به منظر بلادهم من الخصب، ووفرة الفاكهة، وكثرة الأبقار، والظروف المناسبة لزيادة الأبقار من أعلاف وفيرة ومراعٍ خصبة.



عند مدخل مسجد قرية أنكيسا في أجاريا مع الإمام والسائق وعضو الجمعية الإسلامية

وفي المسجد قسم للنساء، فصلوا بينه وبين باقي المسجد بستارة من القماش.

ذكروا أن عدد المصلين في المسجد يوم الجمعة يبلغون ما بين ٤٠ إلى ٥٠ مصلياً، أما في الأوقات اليومية للصلاة فإن عددهم أقل من ذلك بكثير.

وبجانب المسجد مقبرة قديمة، ذكروا أنه يقبر فيها الآن.

وتبعد القرية عن مدينة باطومي بـ ١٠ كيلومترات فقط.

تركناهم والمطر ينزل مثلما وصلناهم، وأخبرناهم أننا سوف ندفع إليهم إعانة مالية عاجلة بما يكفي لإكمال بناء المدرسة، كما سندفع لهم مبلغاً لتسيير العمل في المسجد من نفقات الكهرباء والتدفئة بإذن الله، وأننا سوف نحدد الوقت لإعطائهم ذلك بالاتفاق مع المفتي ونبلغهم به.



المؤلف في الريف في أجاريا

مررنا بعد أن تركناهم بشوارع في منطقة ريفية بالغة الخصب، وهي كغيرها تغطي حيطانها عرائش العنب المثمر، وقد قارنت بين حجم ثمره وحجم شجرة عنب في بيتي في الطائف، فوجدت الفرق ليس كبيراً، بل يكاد يتساوى حجم حبات العنب في البلدين، وهذا عجيب، لأن الطائف أقل برداً من هذه البلاد في الشتاء والربيع، وأما في الصيف فإنهما متساويان، أو هذه أكثر حراً بسبب الرطوبة، والقياس أن يكون الطائف أبكر منها بكثير في نضوج العنب وغيره من الثمار، لأن الشتاء ينحسر عنه قبل أن ينحسر عن هذه البلاد الشمالية.

قصدنا المطار بعد هذه القرية لكونه غير بعيد منا، ولاحظنا شيئين: أولهما أن حدود تركيا من المطار لا تبعد بأكثر من عشرة كيلومترات، والثاني: أنه لا تعرف حركة الطائرات ومواعيد السفر فيها من غير المطار، فلا توجد مكاتب مجهزة بالحاسب الآلي تفيد المسافرين في المعلومات حول السفر.

وكان هدفنا من الذهاب إلى المطار أن نسأل عن رحلة جوية مناسبة إلى مدينة سيمفربول عاصمة القرم التي من المقرر أن نسافر إليها بعد انتهاء زيارتنا لجورجيا هذه.

وكان من الصعب علينا أن نفهم منهم ذلك، لولا وجود الأخ سليمان داود أوغلو قائد السيارة، الذي هو شاب ذكي سريع الفهم، فأفهمه أهل المطار أنه لا سبيل إلى ذلك إلا بأن نسافر إلى مدينة أوديسا في أوكرانيا بالطائرة، ومن هناك نسافر بالسيارة لمدة ساعتين إلى سيمفربول، وكنت جربت في أماكن كثيرة من العالم أنه إذا قيل لي إن السفر بالسيارة يستغرق ساعتين فإنه يستغرق أكثر من ذلك بكثير، لأنهم لا يعرفون

مقدار المسافة بالكيلومترات.

قالوا: وإلا فإنه يمكنكم أن ترجعوا إلى العاصمة تنليس، وتبحثوا عن رحلة مناسبة غير مباشرة، لأنه لا توجد رحلة مباشرة إلى القرم منها، وهذا معناه أن نضيع وقتاً ثميناً في شيء غير متيقن، قال الإخوة: ويمكنكم أن تسافروا من هنا إلى مدينة (طرابزون) التركية، التي تبعد عن باطومي ٣ساعات بالسيارة، ومنها بطريق الجو إلى إسطنبول، ثم من إسطنبول إلى سيمفربول عاصمة القرم.

قالوا: والسفر إلى (طرابزون) بالسيارة، فهناك حافلات تركية جيدة تسافر كل يوم، واستقر رأينا على هذا كما سيأتي.

نهر جوروكي:

عدنا إلى السير في القرى الزراعية الخصبة مع الطرق السيئة جداً التي يعجب المرء من استطاعة السيارة السير عليها، فوصلنا نهراً متوسط السعة، جم المياه اسمه (جوروكي)، ذكروا أنه يأتي إليهم من تركيا، مثلما ذكر أهل تنليس أن النهر الذي تقع عليه مدينتهم يأتي إليهم من الأراضي التركية.

قرية أخالي صوبالي:

لم نقف عند نهر (جوروكي)، ولا رأيت القوم يحفلون حتى بالحديث عنه، أو التنويه بذكره، وإنما واصلنا السير في طرق غاية في السوء، والأخ سليمان داود أوغلو، ومعناه: (سليمان بن داود)، واسم أسرته (كوبادزه)، بضغط على دافع الوقود في سيارته فتسير مسرعة، وهو يذهب بها ذات

اليمين وذات الشمال ليتفادى الحفر المليئة بمياه المطر، حتى وصلنا إلى قرية غاية في الخصب والندى، وليس ذلك من أجل المطر الذي لا يزال يهطل، وإنما من وجود أشجار من أشجار الشاي فيها ريانة نضرة، والشاي لا ينبت إلا في وجود جو رطب جداً وكثير المطر.

واسم القرية (أخالى صوبيلي) أو صوبالي، ذكروا أنها قرية حديثة الإنشاء، ومعنى اسمها بالجورجية : القرية الجديدة.



مسجد قرية أخالي صوبالي

وقفنا عند مسجدها الذي هو حديث أيضاً مثل القرية التي ذكروا أن أهلها جميعهم من المسلمين، وكلهم من الأجاريين، ويقع مباشرة بجانب مزرعة للشاي - إن صح التعبير بالمزرعة للشاي - لأننا لاحظنا أنه ينبت في سفوح التلال المرتفعة، ولا يكون في الأراضي السهلة المنبسطة، وربما كان ذلك بسبب عدم ملائمة الماء الذي يركد تحته لأشجاره.

وجدنا عدداً من الإخوة المسلمين قد بكروا في المجيء إلى المسجد، ليصلوا صلاة الجمعة، مع أن الوقت لا يزال مبكراً على الصلاة، وشاب منهم يتلو عليهم من كتاب الله، وهم ما بين منصت للقراءة، ومصلٍ في هذا المسجد.

إن منظر هؤلاء الإخوة في هذه القرية الخصبة الندية التي تحيط بها أشجار الشاي النضرة في هذه الزاوية المنزوية من إقليم أجاريا في جورجيا، لما يبعث في النفس السرور والابتهاج، وذكروا أن هذا الشاب الذي يقرأ القرآن حضر من عدة أيام من تركيا، حيث كان والده، وهو من أهل القرية حاضر معنا، قد أرسله إلى تركيا كي يتعلم ما يستطيع تعلمه من العلوم الإسلامية، وقد عاد إلى قريته لمناسبة العطلة الصيفية.



في محراب مسجد أخالي صوبالي بين أخ مسلم وولديه اللذين يتعلمان القرآن

واسم الشاب القارئ (رولاندى بن محمد باتو دزه)، ولم يكن هذا القارئ ووالده كل من حضر من الأسرة إلى المسجد، وإنما كان معهم أخ له أيضاً إذْ أحضر العبد الصالح ... ابنيه الاثنين للمسجد، وأخبرنا أن الابن الثاني قارئ للقراءات، فالتقطت معهم صورة في محراب المسجد.

أدينا تحية المسجد، ثم جلسنا في المسجد مع هؤلاء الإخوة الكرام، وأخبرناهم أننا من رابطة العالم الإسلامي في مكة المكرمة، وأننا جئنا إلى قريتهم لكي نرى المسجد، ونساعد على ما قد يحتاج إليه.

والمسجد مبني بالآجر، ومسقف بالصفيح، ومن الطريف أن الثريات هي من الصفيح، فلم يستطيعوا الحصول له على ثريات من البلور مثلاً.



في مسجد قرية أخالي صوبالي مع جماعة المسجد

ولم نمض كثير وقت مع هؤلاء الإخوة الكرام بسبب ضيق الوقت، وإن كنا شفينا النفس من التعرف إليهم، ومعرفة ما عندهم، فخرجنا من

المسجد وهم معنا حيث التقطت له صورة عامة يظهر فيها بعضهم ولأشجار الشاي التي بجانب المسجد.

مسجد شارنالي:

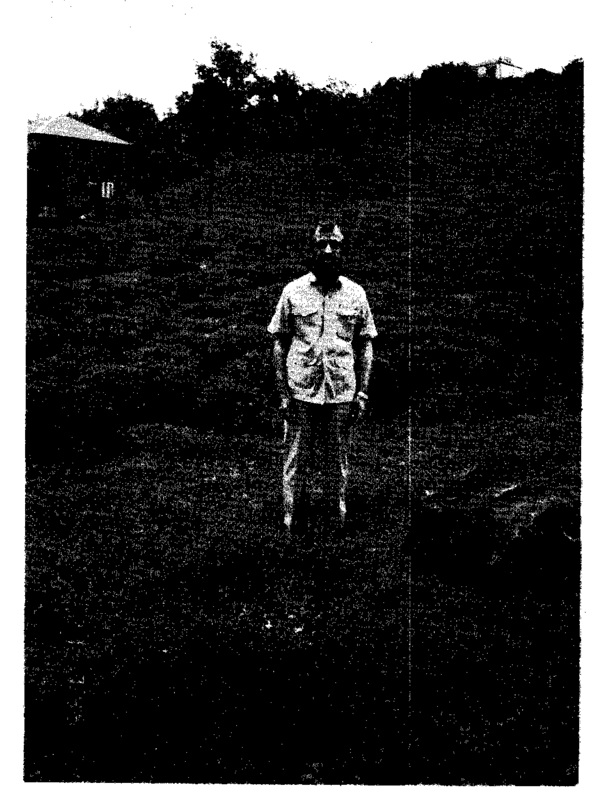
كانت مغادرتنا لقرية (أخالي صوبالي) في الواحدة، وقد بقيت ساعة ونصف على صلاة الجمعة، إذ يصلونها في الثانية والنصف، فانطلق الأخ السائق (سليمان بن داود) بسيارته، وكأنما يريد أن يقلد بساط سليمان بن داود، لولا أنها لا تسير رخاءً حيث أصاب، وإنما تقلقها الطرق السيئة، وتتمايل بها ذات اليمين وذات الشمال.

وكنت سميت لنفسي قرية (أخالي صوبالي) بقرية الشاي، لأنها أول قرية رأيت فيها أشجار الشاي النضرة بجانب المسجد، إلا أنني عدلت عن ذلك عندما رأيت أن زراعة الشاي منتشرة على سفوح التلال، أو ظهور التلال المنخفضة، مثلما أنني أعجبت أول مرة بعرائش العنب التي تجلل الحيطان في ضاحية مدينة باطومي أمس، ثم تبين لي أن المنطقة كلها كذلك، مما جعلني أتساءل عما يصنعونه بهذا العنب الكثير، لأنهم لا يمكن أن يستهلكوه في جميع أنحاء جمهورية جورجيا، إلا أنني تذكرت أن البلاد غير الإسلامية يزرعون فيها العنب ليعصروه نبيذاً غالي الثمن، رائج السوق في أوربا ومثيلاتها.

ورأينا البقر ترعى بدون راع في هذا الجو الخصب، غير مبالية بالمطر، لأن الجو كان معتدلاً ليس فيه شيء من البرد، وكيف تحتاج إلى راعٍ وهي تأكل مما تحت أقدامها، ولا تحتاج إلى رعاية أو عناية في رعيها.

عندما كنا نسير في هذا الجو الأخضر الذي تذكرت فيه جزيرة

(سرنديب) التي تسمى الآن (سريلانكا)، وكنا نعرفها قبل ذلك باسم (سيلان)، وهو اسم لها عربي قديم، ذكرها به ياقوت الحموي - رحمه الله - في معجم البلدان، فتلك الجزيرة رطبة وندية، وكثيرة الأمطار، وفيها الشاي مثل هذه، ولكنني عندما تجولت فيها، وكتبت كتابي (**أيام في مسقط قدم آدم: رحلة إلى سيلان**) الذي طبعته الجمعية العربية السعودية للثقافة والفنون، ذكرت ما قاله أحد السياح في سيلان: إن كل شيء فيها جميل إلا بني آدم.



المؤلف عند أشجار الشاي في قرية أخالي صوبالي

وهنا نقول: إن كل شيء جميل في أجاريا هذه حتى بني آدم، وهناك فرق آخر، وهي أن أجاريا هذه بلد مسلم، كان أهله كلهم مسلمين، والآن تبلغ نسبة المسلمين منهم ٨٠٪ ما عدا العاصمة (باطومي)، فإن نسبة المسلمين فيها أقل من ذلك بكثير.

كنا نسير في منطقة ريفية معمورة، كلها أو أكثرها مزروع، ولكن تختلف درجة زراعته، لأن البلاد شيوعية لم يكن يملك أحد فيها إلا البيت الذي يسكنه الرجل مع أسرته، وقطعة من الأرض صغيرة لا تكاد عائدتها تقيم الأود، وتبقى الأراضي كلها ملكاً للدولة، والدولة لا تزرع منها إلا ما كان سهل الزراعة، لا يحتاج إلى عناء في الاستصلاح، لذلك بقيت أقسام من الأرض هنا يمكن أن تصلح وتنتج.



عند الباب الخارجي لمسجد شارنالي مع بعض جماعة المسجد

وقد كثرت رؤية الكروم وأشجار الفاكهة الأخرى كالخوخ

والتفاح.

ووصلنا إلى قرية اسمها (شارنالي) غارقة في الخضرة والأشجار النضرة، إلى جانب المزروعات الأخرى، ويطرد بجانبها نهر سريع الجرية، لم يسترعِ انتباههم فيخبرونا به أو ينوهوا به، لكثرة الأنهار والمياه عندهم، واسمه (شارنالي صو) ومعناه بالتركية (نهر شارنالي) إضافة إلى هذه القرية، وأعجب لنهر ينسب إلى قرية، بدلاً من أن تضاف القرية بل المدينة إن وجدت مدينة إليه.

رأينا مسجد (شارنالي) على البعد أبيض الطلاء، ظاهر الرواء، في هذا الجو الأخضر البالغ الخضرة، وهو ذو منارة بيضاء، لأنها من الصفيح اللامع، ولكنها غير عالية، وسقفه من الصفيح المسنم، أما بناؤه فإن الطلاء الأبيض يخفيه، ولكن يظهر أنه من الآجر.

وجدنا في المسجد خمسة من الإخوة، قد بكروا إلى صلاة الجمعة، فاستدعوا لنا الإمام ورئيس جمعية المسجد الذي يسمونه المتولي، وبعضهم يقول فيه (المتولي رئيس)، وكلتا الكلمتين مما دخل من العربية إلى لغتهم.

وداخل المسجد جيد، غير أن نصفه الأمامي قد تم فرشه بالسجاد، والنصف الخالي لا يزال تحت الإصلاح، ولاحظت أنهم علقوا في سقفه ثريات من البلور اللامع، خلاف القرية التي قبلها، التي علق أهلها في مسجدها ثريات مزينة بالصفيح، بمعنى أنها مصابيح كهربائية عمل لها إطار من الصفيح.

ذكروا لنا أنهم بدؤوا عمارة المسجد في عام ١٩٩٣م، ولا يزال بعضه يحتاج إلى إصلاح، وكانوا يعملون فيه إذا تيسرت لهم النفقة، ويقفون إذا

تعذر الحصول عليها، والمراد بذلك إصلاحه من الداخل، وإلا فإنه مستكمل من الخارج، وله باب يغلق بإحكام، لأن فيه أشياء ثمينة تحتاج إلى حفظ من ثريات وسجاد ومكبر للصوت.

وفيه منبر خشبي جيد، وقد وضعوا فوق منبره ثلاثة أهلّة.

سألناهم عما إذا كانوا حصلوا على مساعدات من الخارج على بنائه، فنفوا ذلك وقالوا: إن كل نفقات المسجد من تبرعات المسلمين أهل المنطقة ما عدا مبلغا قليلاً تسلموه من أحد المتبرعين في تركيا.



داخل مسجد شارنالي مع جماعة من المسلمين أهل المسجد

وأهل القرية كلهم مسلمون، أبديت لهم إعجابي بما رأيته من الخصب ووفرة المزروعات النافعة كالشاي والعنب فقالوا: تنتج قريتنا فاكهة كثيرة غير ذلك، من أهمها المشمش والخوخ.

تبادلنا أحاديث مفيدة معهم، وأخبرناهم أننا سوف نقدم لهم مبلغاً رمزياً عاجلاً من المال إسهاماً من رابطة العالم الإسلامي في مكة لإكمال بناء المسجد، وأننا سوف نخبرهم عن موعد تسليمهم ذلك في دار الفتوى فيما بعد.

وقد شكروا ذلك، وطلبوا شيئا آخر، وهو أن ترسل لهم رابطة العالم الإسلامي برقية تخبرهم بدخول شهر رمضان وبالعيدين، لأن أهل البلاد يختلفون في تحديد ذلك، فقلت لهم: إن الرابطة ترسل برقية وفاكسات إلى جميع المؤسسات والمراكز الإسلامية في العالم التي تطلب منها ذلك، أو تتعاون في تلقيه تخبرهم به إذا ثبتت رؤيته في المملكة العربية السعودية، وهي تتعامل مع المؤسسات والهيئات الرسمية مثل دار الفتوى في هذه البلاد، لأن إرسال البرقيات والرسائل إلى أفراد المسلمين في العالم أمر صعب لكثرته.

نهر شارنالي:



المؤلف على ضفة نهر شارنالي

انتقلنا مع الإخوة الكرام من المسجد الواقع على ضفة نهر شارنالي تقريباً، بحيث لا يفصل عنه إلا نحو ١٢ متراً، فشاهدناه نهراً جمّ المياه، متدفقاً بمياه حمر تسمع لجريته صوتاً، لا شك أن ذلك من أثر الأمطار التي كانت تتساقط منذ أن وصلنا البلاد أمس ظهراً ولا تزال.

وقد أخبرونا أن قرية (شارنالي) التي أضيف إليها هذا النهر هي قرية زراعية قديمة، وليست كقرية (أخالي صوبالي) التي هي قرية جديدة، وإن كان يجمع بينهما أن السكان فيهما كلتيهما من المسلمين.

وودعنا الإخوة مسرعين، ولكننا لم نودع الخصب العظيم، وأشجار الشاي على ظهور التلال الواطئة، أو سفوح التلال العالية، وأعراش العنب، وأهم من ذلك الخضرة المطبقة على المنطقة التي يزيد الشعور بها وجود تلال جبلية عالية ومتوسطة، كلها خضراء بالغة الخضرة، يطالعها المرء أو تطالعه أينما وجه بصره.

ومررنا بقرية اسمها (تلنا) بمعنى قلعة باللغة الجورجية، وهي قرية مسلمة، لكن ليس فيها مسجد، ولك أن نتساءل عن كيفية ذلك، وهل تكون القرية مسلمة بدون أن يكون فيها مسجد، ومعنى ذلك أن أهلها لا يصلون صلاة الجمعة التي هي فرض عين على كل مسلم، ولكن هذه هي التربية الشيوعية التي ربت أجيالاً من الناس على الإلحاد وإنكار الأديان، ولولا لطف الله تعالى وأن هذا الدين الإسلامي الحنيف هو دين الفطرة، لمحي الإسلام من هذه البلاد. كما كانوا يسعون إليه ويؤملون في حصوله، غير أن ظنهم خاب ﴿ يُرِيدُونَ أَن يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَن يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ﴾.

والواجب على المسؤولين عن الأمور الدينية في هذه البلاد مثل المفتي أن يقوموا بمشروع لبناء مسجد في كل قرية مسلمة، وأن يطلبوا المساعدة عليه من إخوانهم المسلمين في خارج البلاد، لأن حالتهم الاقتصادية رغم خصب بلادهم سيئة، لا تمكنهم من الحصول على الأموال اللازمة لذلك، ونحن في رابطة العالم الإسلامي في مكة المكرمة على استعداد لمساعدتهم على كل مسجد يريدون بناءه، وإن كنا لا نقوم ببناء المسجد بأنفسنا، لأن ذلك يستدعي إدارة ومتابعة، ويكون عرضة للطمع من الباعة والتجار، بل ومن الموظفين من أهل البلاد، وقد أفهمنا المفتي ذلك فيما بعد.

وقد سألت الأخوين المرافقين وهما الأخ (إسماعيل عمر أوغلو) والأخ (سليمان بن داوا) أو سليمان داود أوغلو، وهما من العاملين في دار الفتوى عن السبب في عدم وجود مسجد في هذه القرية المسلمة، فقالا: السبب هو عدم وجود المصلين، إنه إذا قبل الناس على أداء الصلاة فإنهم سوف يبحثون عن مسجد يصلون فيه، فيبنون المسجد، وقالوا في تعليل قلة المصلين ما قلناه من تأثير التربية الشيوعية على أبناء المسلمين.

مسجد خلوا شاووري:

أسرعنا ذاهبين إلى قرية اسمها (خلوا شاووري) لزيارة مسجدها، وقد تجاوزنا منطقة مرتفعه نوعاً إلى منطقة أخرى واطئة، وسايرنا نهراً عريض المجرى، وإن لم يكن زاخراً بالمياه، اسمه نهر (شاروتي)، حتى وجدنا جسراً على النهر سرنا عليه، حتى وصلنا إلى قرية (خلوا شاووري)، وجدنا مسجدها عامراً بالمنتظرين للصلاة من الإخوة المسلمين، في مقدمتهم إمام المسجد الأخ (سليمان إسكندروف)، ومتولي المسجد الأخ إسماعيل بن

حسين قورداني جاه، حدثونا بأن المسجد قديم، يرقى تاريخ إنشائه إلى أكثر من ١٦٠ سنة، وذلك لكون القرية قديمة، وهذا ظاهر من وجودها على ضفة نهر عميق المجرى.

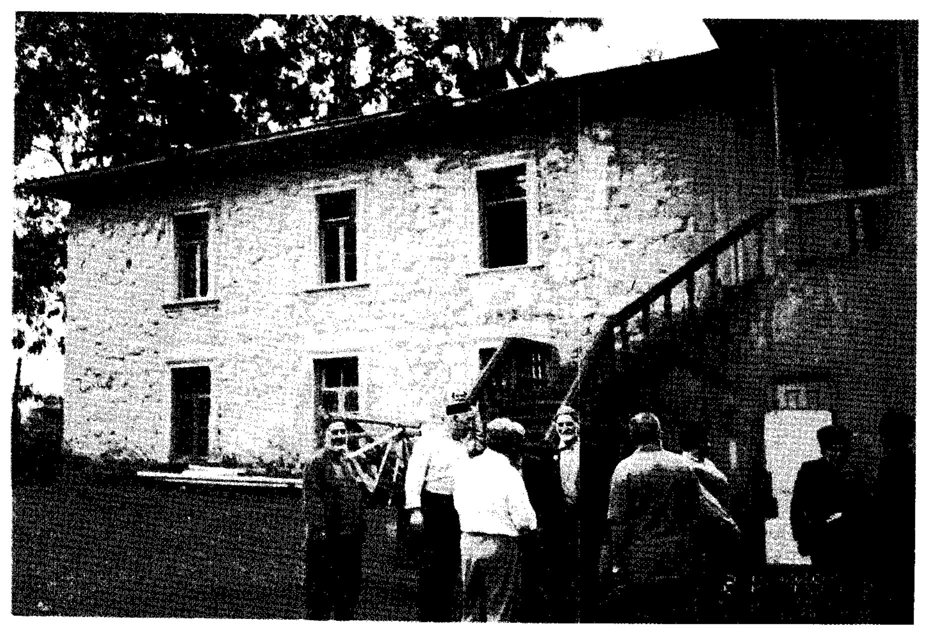


في مسجد خلوا شاووري مع جماعة المصلين

لم نر في المسجد منارة، فسألناهم عما إذا كان الشيوعيون قد هدموها مثل غيره من المساجد، فأجابوا بأنه لم تكن فيه منارة من أصل بنائه، ولذلك ينظرون الآن في بناء منارة له، غير أنهم يعجزون عن ذلك في الوقت الحاضر. وقد أخبرونا أن المسجد يحتاج في الوقت الحاضر إلى فراش وترميم أشياء فيه، فأخبرناهم بأننا سوف ندفع إليهم ما يعينهم على ذلك بإذن الله، وأن عليهم أن يراجعوا المفتي ليعرفوا منه الموعد الذي يحضرون فيه لتسلم تلك المساعدة، فشكروا ذلك وسروا به سروراً عظيماً.

ثم صعدنا مع درج عالٍ إلى شرفة في القسم الخلفي أي الشمالي من

في المسجد، وذلك لكونه عالي السقف، قد بنيت فيها غرف ضيقة يستعملونها الآن مدرسة إسلامية، رأينا فيها ٣٠ طفلاً من أبناء المسلمين يتعلمون فيها مبادئ القراءة العربية وأركان الإسلام اللازمة للمسلم.



المسلمون خارج مسجد قرية خلوا شاووري في أجاريا

ثم عدنا إلى المسجد حيث حصلنا بعض المعلومات عن الإخوة المسلمين من سكان القرية، حيث ذكروا أن سكانها يبلغ عددهم (٢٥٠٠) نسمة، وكلهم مسلمون، وذكروا أن متوسط العدد الذي يصلي الجمعة ٧٥ شخصاً قالوا ذلك، وأنا أرى عدداً لا بأس به كاد يمتلئ به المسجد منهم، وقد بقيت على وقت الصلاة بقية صالحة من الوقت.

وخرجت ألتمس زاوية أصور منها المسجد، وهو أحمر الطلاء، عالي البناء، إلا أنه لا منارة له - كما تقدم -، والتقطنا معهم صورة تذكارية.

وقد أخبرونا أن أهل قرية صغيرة يبنون لهم مسجداً، ولكن لا يوجد

طريق للسيارة يصل إليها ، وإنما يكون ذلك على الأقدام وعلى الدواب ، ويستغرق وقتاً ، وكان منهم أخ حضر إلى هذه القرية ليصلي الجمعة مع أهلها ، فأخبرناهم أننا لا نملك من الوقت ما يكفي للذهاب إلى القرية على الدواب أو الأقدام من أجل رؤية مسجدهم والمساعدة على بنائه ، وإنما يمكنهم أن يحضروا عند المفتي ويثبتوا ذلك عنده ، فإذا شهد به هو وأعضاء جمعية المسجد ، فإننا سوف نعطيهم بعض المساعدة المالية الحاضرة ، من دون أن نرى مسجدهم.



داخل مدرسة خلوا شاووري

العودة إلى باطومي:

بدأنا العودة من هذه القرية التي تبعد عنها بـ (٢٥) كيلومتراً فقط ، غير أن الطريق سيئ جداً ، وزاده هطول المطر سوءاً ، إذ كثرت فيه

المستنقعات، وزاد على ما حفره من التراب، ولكن سائقنا الأخ (سليمان بن داود) سائق ماهر، ولم أره يرفق بسيارته الروسية (لادا) التي تبين لي هذا اليوم مثلما تبين لي في مرات سابقة، داخل ما كان يسمى بالاتحاد السوفيتي أنها سيارة قوية، تصبر على الطرق الوعرة.

جمعة باطومي:

قصدنا المسجد الجامع، وكان وصولنا إليه في الثانية والنصف، ومازال الناس يتقاطرون على المسجد حتى ألفوا عدداً كبيراً ضاقت بهم أفنيته، وامتلأ بهم على رحبه.



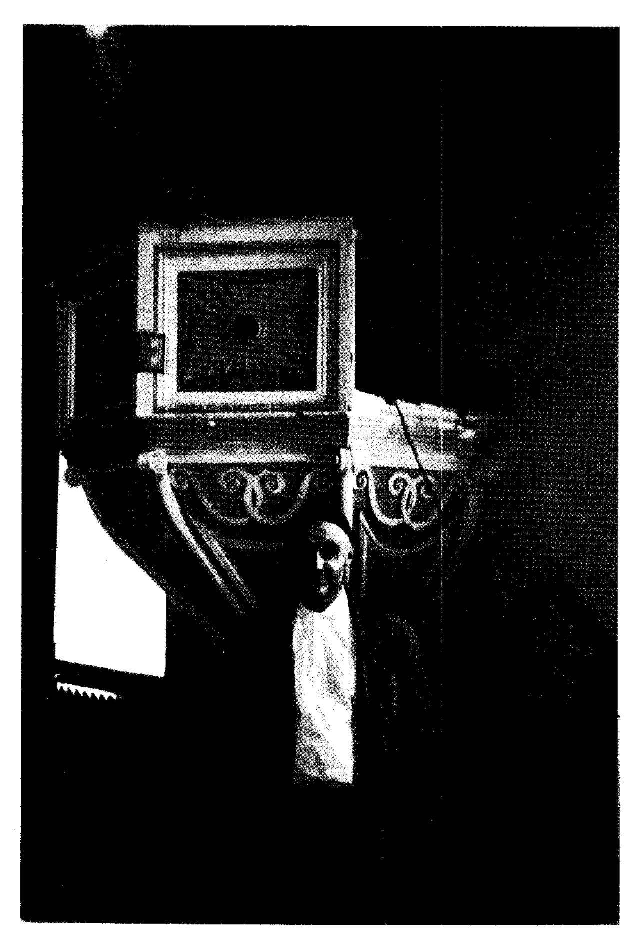
جامع باطومي الذي فيه الإدارة الدينية

وكانت المشكلة هي الحاجة إلى الوضوء، فدخلنا مراحيضهم التي هي ليست بذاك من جهة النظافة، وقد شح فيها الماء حتى وقف، فكان على من يريد استعمالها أن يحضر معه ماءً من صنبور خارجي ينزل منه ماء قليل، ويصعب إيجاد إناء الماء.

ثم دخلنا إلى الجامع، فرأيت فيه ما لم أره في مسجد جامع قبله، وهو أنهم قد أقاموا منصة عالية منفصلة عن الأرض أشبه بالشرفة المعلقة في حائط المسجد تكون إلى يسار مستقبل القبلة، ولهذه المنصة العالية أو الشرفة درج من الحديد المعلق، ورأيت المفتي الشيخ (محمد حسين أوغلو) يلقي موعظة منها وهو جالس باللغة الوطنية الجورجية، والقاضي الشيخ (داود كوبا ودزه أوغلو) وعمره ٨٢ سنة جالس في المحراب، والناس كثر قد امتلأ بهم المسجد في صفوف غير متراصة، وكلهم كبير في السن، قلما يرى المرء بينهم شاباً، ولكن الكهول والمتوسطين في العمر فيهم كثير، وكلهم عليهم القلانس وهي (الطواقي) ما عدانا نحن، فعلينا الملابس العالمية المسماة بالإفرنجية، وذلك أن القوم حنفية من عادتهم تغطية الرأس أثناء الصلاة كما هو معروف عن المعاصرين منهم.

هذا وقد أذن المؤذن من مكبر الصوت في مقدمة المسجد، وهو الأذان الأول، فلم يتوقف المفتي عن موعظته، وهي بطبيعة الحال ليست بالخطبة، وإن كانت المنصة الملصقة بالحائط أعلى من المنبر، وإنما دعا أحد الأخوة في خلف المسجد بعد أن فرغ المؤذن من الأذان الأول.

فسكت المفتي عن الموعظة ونزل حتى جلس بجانبي عند أسفل المنبر الذي كان عالياً، لذلك حالت بعض درجاته بين انتظام الصفوف الأول.



المنصة الملصقة بحائط الجامع في باطومي والمفتي واقف تحتها

فأذن المؤذن الأذان الثاني، فقاموا كلهم كأنهم رجل واحد، لم يتخلف منهم أحد يتنفلون، وقمنا معهم فصلينا ركعتين، أما هم فصلى كل واحد منهم ٤ ركعات في تسليمتين.

وبعد الفراغ من الركعات جهر شخص من آخر الصفوف بدعاء، طلب مني المفتي أن أخطب في الناس وأؤمهم في الصلاة، فاعتذرت عن ذلك، فنهض وصعد المنبر، فخطب خطبتين قصيرتين بالعربية، كان يدغم

بعض الحـروف والكلمات فيهما ببعض، ويمد صوته من غير حاجة إلى مد، ولكن الجميع لا يفهمون ما يقول، لذلك يحاول أن يُحَسِّن لفظه بمد الصوت وترجيعه في الخطبة، ولم تخل خطبته من اللحن.

وقد أشار إلى ذلك بعد الصلاة كالمعتذر يقول: اللغة العربية هنا قليل. فقلت له: المعول على العمل الصالح.

وقد أقام المؤذن الصلاة فصلى بنا القاضي الشيخ (داود كابودزه)، وهو شيخ مسن يبلغ ٨٢ من عمره كما تقدم، ولكنه نشيط، حادّ الفهم، وصلى المفتي بجانبي، ودخل في الصلاة فور انتهاء المؤذن من الإقامة، والإقامة عندهم كأنها الأذان، إلا أن التكبير فيها اثنتين اثنتين وليس أربعاً.

ثم قرأ قراءة متقنة، وصلى صلاة خاشعة، ليست خفيفة ولا ثقيلة.



بعض المصلين داخل جامع باطومي

وبعد أن سلم من الصلاة دعا بدعاء قصير، نهض بعده القوم للتنفل، فأطالوا الركوع والسجود، وذلك أنهم يصلون ١٦ ركعة في ثمان تسليمات، أما نحن فقد صلينا أربع ركعات في تسليمتين، ثم جلسنا وهم يتنفلون.

بعد التنفل استقبل الإمام المصلين فسبح الله وسكت، وذلك بقوله: سبحان الله، ثم قال: الحمد لله، وسكت أيضاً، فعل هذا أكثر من مرة، ثم دعا بلغتهم دعاء تأثروا من سماعه، لأنني رأيت ذلك بادياً على وجوههم، وكانوا يؤمنون عليه. وهذا غير ما كانوا عليه عندما يكون الدعاء بالعربية التي لا يفهمونها، وكان الإمام يدعو سراً وهم يؤمنون على ما لا يعرفونه.

ثم أعقبه دعاء باللغة العربية، صاروا يؤمنون عليه، أي يقولون: آمين، وهم لا يعرفون معناه. ثم انتهت مراسم الصلاة، وقاموا بعضهم يسلم على بعض، وبعضهم ينصرف.

وقد أسميتها مراسم الصلاة مع أنها كلمة لا أحبها لمثل هذه الأمور، لأن الصلاة موضحة بأمر الشارع الحكيم، ليس فيها مراسم، إلا أن القوم مثلهم في ذلك مثل كثير غيرهم من سكان البلدان الشمالية، صارت لهم عادات لا يخلون بها، يأتون بها بعد الصلاة أو قبلها، حتى صارت كأنها جزء منها.

وقد ذكرت بهذه المناسبة أنني عندما كنت في زيارة لمدينة (بيوا ستك) في بولندا، سألني الإمام عن عدد ركعات الظهر فقلت: إنها أربع، فقال: بل عشر، ركعتان قبلها ثم هي أربع ركعات، ثم أربع بعدها، وقد جهدت في أن أوضح له أن الصلاة المفروضة هي أربع ركعات، وأما هذه

التي قبلها والتي بعدها فإنما هي من النوافل التي من أداها صار له أجر على ذلك، ولكن من تركها لم يأثم بتركها.



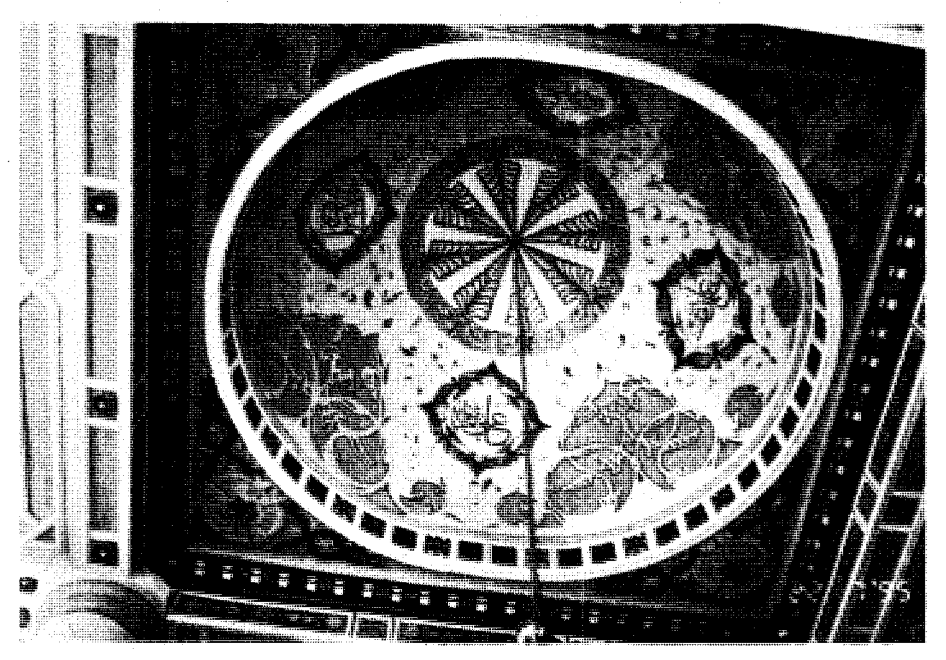
مع مفتي أجاريا في محراب الجامع في باطومي

هذا وقد ذهبت أتأمل المسجد بعد الصلاة، فوجدته واسعاً، وعجبت حين رأيت انتشار القوم خارجه كيف وسعهم، وأخبرني المفتي أن شرفة واسعة في مؤخرة المسجد، بمثابة الطابق الثاني، قد امتلأت بالمصلين من الرجال، وذلك لكون المسجد يضيق بهم، وحزرت في نفسي عدد المصلين اليوم بأنه يصل خمسمائة مُصَلٍّ، وقال المفتي: أعتقد أنهم يزيدون على خمسمائة بقليل، قال ذلك من دون أن أخبره بما قدرت من العدد، إلا أنه قال: إن العادة أن عدد المصلين عندنا لا يقل عن خمسمائة مصلٍّ في كل جمعة، وفي أكثر الأحيان يزيد على ذلك.

والواقع أن هذا ليس بغريب على مدينة باطومي، التي وإن لم يكن

للمسلمين الآن الأغلبية بين سكانها الذين يبلغ عددهم ١٣٦ ألفاً ، فإنها عاصمة إقليم أجاريا الذي يسمى في أكثر الأحيان (جمهورية أجاريا) المتمتعة بالحكم الذاتي في داخل جمهورية جورجيا ، وهذا الإقليم هو إقليم مسلم، كان أهله مسلمين كلهم، وتبلغ نسبة المسلمين فيهم الآن ٨٠٪ ، وأما العاصمة فإنهم لا يؤلفون فيها إلا ٣٢٪.

ثم جلسنا جلسة خفيفة بعد الصلاة حضرها القاضي الشيخ (داود كابوزده)، وتحدث فيها المفتي حديثاً مهماً فقال: لم تكن المساجد متوفرة إبان الحكم الشيوعي، لأنه كان قد هدم بعض المساجد ، وصادر بعضها ، والآن المساجد موجودة ، لكن معظم المسلمين لا يصلون، وإننا نحتاج إلى منح دراسية لأبنائنا حتى يفهموا الدين الإسلامي فهماً صحيحاً ، ويعودوا إلى بلادهم ليفهّموا إخوانهم المسلمين فيها ما يجهلونه من أمور دينهم.



قبة الجامع في باطومي من الداخل

فقلت لهم: إن التعليم الإسلامي هو أهم شيء وألزمه لكم في هذه المرحلة، فقال: نحن ما عندنا علماء ولا أناس يعرفون اللغة العربية، فقلت: إن علاج هذا في إرسال أولادكم للتعلم في البلدان العربية والإسلامية، ونحن في رابطة العالم الإسلامي مستعدون للمساعدة في هذا الأمر، وأخبركم الآن أننا نقدم لكم ثلاث منح دراسية، تستطيعون العمل على شغلها من الآن، والمنحة تشمل إرسال تذكرة السفر، والإعاشة طول الدراسة، وهذه منح من الرابطة، ونحن مستعدون للتوسط لدى الجامعات الإسلامية في بلادنا، وفي غيرها من البلدان الإسلامية كمصر وماليزيا، لقبول طلاب منكم على منح منها، كما أننا مستعدون لمساعدتكم على إلحاق عدد من أبنائكم، وحتى من الشيوخ أئمة المساجد، للالتحاق في معاهد تعليم اللغة العربية لغير العرب الموجودة في الجامعات السعودية في مكة المكرمة والمدينة المنورة والرياض.

وقلت له: أرجو أن يكون التعليم أو الطريق إلى التعليم سائراً جنباً إلى جنب مع بناء المساجد، وترميم ما كان قديماً منها، لأن المسجد هو الذي يجمع المسلمين، وفيه يتعارفون، وهو الذي يمكن للمسلم أن يتلقى فيه المواعظ والمعرفة الإسلامية كل يوم، ولا ينبغي أن يصدكم عن ذلك ما تلاحظونه من قلة أداء الصلاة من بعض أبناء المسلمين، فهذه حالة معروفة السبب، وهي تأثير التربية الشيوعية الإلحادية التي كانت قد عملت في هذا السبيل ٧٣ سنة، فهي إذاً مرحلة مؤقتة بإذن الله، وإذا علّمتم أولادكم الصغار تعليماً إسلامياً بقدر ما تستطيعون، إلى أن يعود أبناؤكم الذين سيدرسون على منح من البلدان الإسلامية، فإن هذا كفيل بمواجهة هذا التأثير الشيوعي الإلحادي الباقي في النفوس والأفكار، مع أننا يجب

ألا نيأس حتى من الكبار الذين تربوا في عهد الطغيان الشيوعي، وإنما يجب علينا أن نناصحهم ونذكرهم بالله، وبأمجادهم الإسلامية التاريخية التي لم يكن أجدادهم ليحصلوا عليها لولا تمسكهم بأوامر الدين الإسلامي الحنيف، ومن أهمها المحافظة على الصلاة، بل هي الركن الثاني من أركان الإسلام بعد الشهادتين اللتين هما الركن الأول.

وقد وافقوا على ذلك.

ثم انتقلنا إلى مطعم تركي صغير ملاصق للمسجد، لم نتطن له من قبل، والمطعم الإسلامي في البلاد التي كانت شيوعية، ولا زالت تسير في معظم أمورها على ما كانت عليه زمن الشيوعية، ومن ذلك طريقة ذبح الحيوان الذي ذكروا أنه يخنق خنقاً، ولا يذكى تذكية إسلامية، إضافة إلى أنه يعتبر ذبيحة شخص كافر ليس من أهل الكتاب الذين تحل ذبائحهم، إذا كان الذابح شيوعياً معتقداً للشيوعية ومذهبها الإلحادي، لذلك لا يأكل اللحم من المطاعم العامة إلا من لا يهتمون في الاحتياط لأمور دينهم.

دخلنا المطعم الإسلامي التركي بجانب المسجد وهو صغير، فقدم لنا صحناً فيه لحم وبطاطس مسلوقة ولبناً رائباً (زبادي)، وهو من اللبن الطبيعي الذي لم يدخله مسحوق اللبن، وذلك لعدم وجوده عندهم، وخبزاً، وبعد ذلك الشاي الوطني من شاي أجاريا بلادهم، وهو ليس جيداً، ويقدمونه مغلياً محلى على الطريقة التركية .

إلى قرية قونيو:

في الرابعة والنصف غادرنا (باطومي) ذاهبين إلى قرية قريبة منها اسمها (قونيو)، للاطلاع على مسجدها الذي يحتاج إلى مساعدة مالية،

فعدنا إلى الريف الأخضر الندي، بل البالغ في الخضرة ووفرة المياه، حتى إن بعض الحطب والأخشاب على الأرض قد أصبحت خضراء اللون، يركبها الطحلب الأخضر من كثرة المطر والندى.

وقفنا عند (مسجد قونيو) فوجدناه واسعاً، مبنياً بالحجارة والإسمنت، ومطلياً بالإسمنت، وهو من طبقتين إلا أنه لم يكتمل، وكان مغلقاً، استطعنا أن ندخل من باب فنائه الخارجي بصعوبة.

ولم نستطع أيضاً مقابلة الإمام، فطلبنا من شخصين من أهل القرية ممن لهم عناية بالمسجد أن يخبروا المسؤولين عنه أن يتصلوا بنا بوساطة المفتي، لأننا سوف ندفع إسهاماً مالياً من أجل تكملة بناء المسجد، لأنهما أخبرانا أن العمل فيه متوقف بسبب قصور النفقة.



مسجد قونيو لم يكتمل بناؤه

وليس للمسجد منارة حتى الآن، لأنه لا يزال في طور البناء، وذكروا أنهم بدءوا بالمهم الآن، لعدم استطاعتهم أكثر من ذلك في الوقت الحالي، وهذا صحيح، فقد بنوه بناء قوياً تركبه قبة جيدة، إلا أنه غير مكتمل.

والمسجد جديد كلياً، فليس في مكان مسجد قديم، وهو الوحيد في القرية.

وقد عجبت من تلة تقع إلى الجنوب الشرقي منه على غابة من المنظر الأنيق، فهي خضراء، ولكن خضرتها متدرجة قد غطت جميع مظهرها، حتى صارت تبدو للناظر على البعد كأنما هي مجموعة من الأشجار العملاقة في القمة المتوسطة من كتف التلة القزمة في أسفلها.

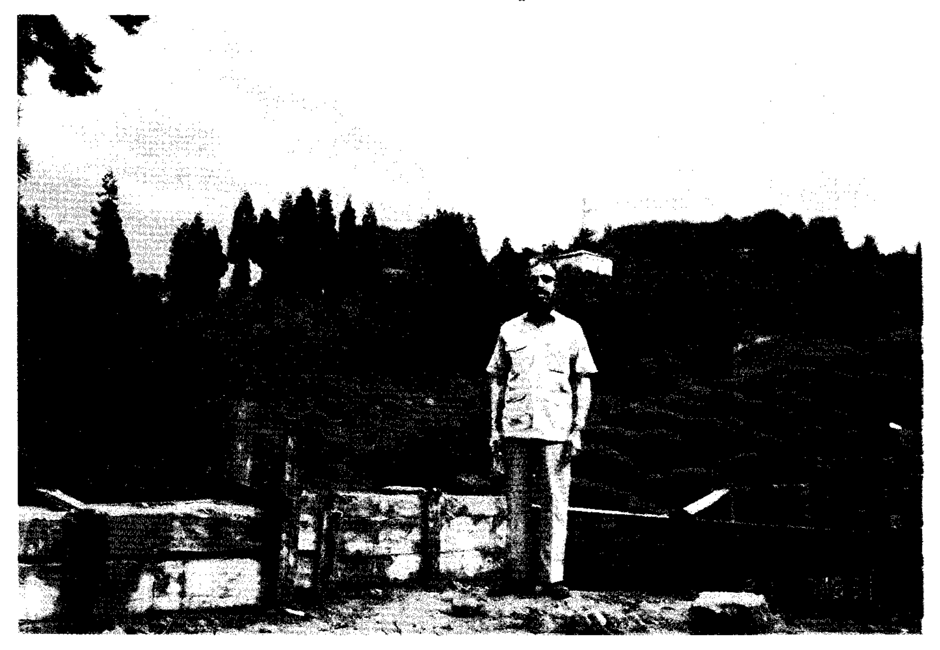
إلى قرية خه قرو:

و(خه قرو) قرية ليس لها طريق إسفلتي، بل لا بد للوصول إليها من سلوك طرق وعرة ملتوية، تجعلها تبعد عن المدينة ٢٤ كيلومتراً، وإلا لو سارت السيارة إليها سيراً قاصداً لكانت أقل من ذلك.

عدنا من قرية (قونيو) إلى دار الفتوى في باطومي، وتركنا سيارة الفولقا الصغيرة التي كانت معنا؛ حيث ركبنا مع أحد الإخوة المسلمين الغيورين على دينهم، ويدعى (إبراهيم بن محمد)، وهو متولي مسجد يبنى في القرية، أي رئيس الجمعية التي تشرف على بناء المسجد.

لم يكن في طريق العودة من (قونيو) إلى باطومي من جديد، فالقرية قريبة، ومع ذلك رأينا ما رأيناه من قبل في الطريق وما حوله من قلة العناية، بل من الإهمال الشديد، حتى ليخيل للمرء أن الإدارة الحكومية مفقودة من هذه البلاد، وذلك رغم جمال المنطقة ومساعدة الظروف المحيطة بها،

لتكون من أجمل بقاع العالم، والمفارقة في المنظر ما بين ما هو من صنع البشر، كالطرق والأرصفة، ونظافة الميادين والبيوت، وبين ما خلقه الله كبيرة جداً، فالآدميون وخصوصاً الأطفال من أجمل الأطفال في العالم، ومن طبيعة الأرض ما لا يكاد القلم يستطيع وصف جماله، وحتى الطقس كان جميلاً، إذْ كان ماطراً أكثر هذا اليوم، ولم يكن الجو بارداً، وعندما توقف المطر عصراً كان الجو يميل إلى الحرارة المقبولة، ولذلك رأينا المشاة في هذا العصر يسيرون من دون مظلات واقية من المطر (شماسي)، ومع ذلك لا يكاد المرء يعدم ما يذكره بالإنسانية المعذبة، ومن ذلك أننا رأينا في الريف ما بين قونيو وباطومي امرأة عجوزاً تحمل على كتنها حزمتين من الحطب، ولو رأيناها تسير دون حمل لأشفقنا من أن يشق عليها ذلك، فكيف بها وهي تحمل هذا الحطب !!.



المؤلف في مسجد قرية خه قرّو (تحت التأسيس) وحوله أشجار الشاي

ركبنا من دار الفتوى مع الأخ (إبراهيم بن محمد) على سيارة له

تشبه سيارة الجيب البريطانية اللاند روفر مع أنها روسية، وهي سيارة قديمة ذكر أنه اشتراها منذ ١٥ سنة، وقال: هي غير مريحة، ولكن لا يصلح لطرق بلادنا غير الجيدة، ولطرق قريتنا غير المزفته إلا هذه وأمثالها.

لم يكن معنا أحد في سيارته وهو الذي يسوقها، ونحن أعضاء وفد الرابطة أنا ورفيقاي رفيقا الرحلة كلها في جنوب روسيا، وهذه الرحلة، وهما الأستاذ رحمة الله بن عناية الله مدير إدارة الدراسات والبحوث في رابطة العالم الإسلامي، ولا غنى عنه في الرحلة لهذه الديار وأمثالها، لأنه يعرف اللغة التركية المعاصرة والعثمانية، كما يعرف اللغات الكثيرة المتفرعة من اللغة التركية القديمة المسماة بالجغتاوية، ويتكلم المسلمون بتلك اللغات ابتداء من حدود تركيا مع أذربيجان، وانتهاء بشمال جمهورية تتارستان التي تقع بمحاذاة الشمال من موسكو، وإن تكن واقعة جهة الشرق منها، والأخ حسن على أزميرلي.

وتقع قرية (خه قرو) التي نقصدها في جهة معاكسة لجهة قرية قونيو من حيث البعد والقصد إلى باطومي.

مررنا بنهير لم نمر به من قبل، وقال الأخ إبراهيم بن محمد: إنه يأتي من هذا الجبل، وأشار إلى جبل غير بعيد، وربما كانت مياهه هذه بسبب المطر الذي نزل أمس اليوم، مع أنه ذكر أنه مستمر الجريان. وقد شاهدنا في هذه الجهة النى لم نرها من قبل من ريف باطومي عاصمة أجاريا ما زاد عجبنا من خصوبة الأرض وشمول الأشجار، ومن الندى الشامل، ورأينا في هذه المنطقة مناطق مزروعة بالشاي كثيرة، وزراعة الشاي تدل على كثرة الرطوبة ووفرة المياه، وإلا لما ازدهر فيها الشاي.

ورأيت من الأشياء الجميلة قطعاناً غير كبيرة العدد من أبقار صفر

فاقع لونها تسر الناظرين، وهي على غاية من السمن وجمال المنظر، وأكثرها متروك يرعى من دون أن ترى له راعياً.

وسرنا في غابات مطلقة مع طريق ليس فيه شيء من الإصلاح، لا من الزفت ولا من التعبيد بغيره، كما مررنا بعدة قرى صغيرة لم نذكر أسماءها، وذلك لكونها قرى ريفية أكثر بيوتها مبنية في المزارع، تكاد تختفي بين الأشجار.



منزل منفرد وسط الريف الأخضر في أجاريا

كما رأينا أشجار الفاكهة من المشمش والخوخ، وأما العنب فإنه لا نظير لكثرته ونضارة مظهره، وقال الأخ إبراهيم بن محمد: كل أهل هذه القرى مسلمون، غير أنهم لا يمثلون الإسلام، فبعضهم لا يصلي، وبعضهم يعاقر الخمر!!! فدعَوْنا لهم بالهداية.

ثم صعدنا في جبل من الجبال التي تؤلف الريف في هذه المنطقة الداخلية من باطومي، وهي في جهة الشرق منها، فسلكنا طريقاً فيها ضيق لا تتسع إلا لسيارة واحدة، مع أنها غير مزفتة، ويرى المرء في الريف الأخضر البالغ الخضرة بيوت الريف جيدة، أكثرها منفرد، ما عدا القرى الصغيرة.

وعلى ضيق الطريق وصعوبة السير فيه، فإنه يمر أحياناً بمهاوٍ - جمع مهواة - بمعنى هاوية، لأنه يكون في لحف الجبل بجانب وادٍ عميق، أو حرف واقف من الجبل، ويزيد في شعورنا بالخوف حالة سيارته التي تقرقع، ويصطلك بعضها ببعض من فرط الاحتكاك، إلا أنه كان يتنادى شدة تمايل السيارة وتقلقلها بمهارة عجيبة، وقال، أنا سائق ماهر، مضت عليَّ أربعون سنة وأنا أسوق السيارة.. وهذا الطريق بالذات هو الطريق إلى بيتي حيث المسجد الذي أقوم ببنائه، لذلك ليس غريباً علي أن أعرف كيف أتصرف فيه، قال: وأنا أيضاً سائق جرار زراعي (تراكتر) مدة ٢٨ سنة، وكنت أعمل في تمهيد الطرقات.

وجزمت بأن هذه الطرق الأوروبية بمعنى أنها واقعة في قطر أوروبي، هي أردأ من الطرق الإفريقية في الجبال الريفية المماثلة بمراحل.

هذا وقد استمر الصعود الشديد في الجبل، أعقبه انحدار إلى وادٍ أخضر قليل الاتساع، تحيط به تلال قد غرست فيها أشجار الشاي بشكلها المميز، الذي يجعلها تبدو على البعد كأنها المظلات الواقية الخضر مركوزة في الأرض.

ثم تجاوز الوادي المذكور، وانحدر مع وادٍ أخفض منه، تحيط به الجبال العالية الرائعة المنظر.

ثم ارتفع الطريق مرة أخرى في عرض جبل آخر، وهو جزء من هذه الجبال الخضر ذات الوديان الضيقة.

مسجد تحت التأسيس:



المؤلف في مسجد قرية خه قرو (تحت التأسيس) مع متولي المسجد الأخ إبراهيم بن محمد تولو ندزه

وما زال كذلك حتى وصلنا المسجد الذي يؤسسه مع إخوان له من أهل قرية (خه قرو) التي وصلناها، فوجدناها متفرقة البيوت، ووجدنا المسجد يبنى في أرض ليس بجانبها منازل، وإنما بجانبه تلة، بل تلال قد فرشت كلها بأشجار الشاي التي تكاد تكون كلها نسخة واحدة من شجرة واحدة، فهي أشجار قصيرة تبلغ الواحدة منها ارتفاعاً حوالي المتر، وتكون كالمظلة المعكوسة، فيأخذون منها ورقها وهي الشاي المعروف،

ثم يتركونها حتى تنمو فيها أوراق جديدة، فيعيدون قطافها وهكذا. وقال لنا الأخ إبراهيم بن محمد: إن أشجار الشاي الكثيرة التي ترونها هي ملك للحكومة. قال: وأما الأهالي فإنهم لا يملكون أشجار الشاي إلا القليل، وهذا يجري على ما كانت عليه الحال عندما كانت البلاد شيوعية تحت الاتحاد السوفيتي، ولم يتغير الأمر فيها من هذه الناحية.

وقد وصلوا في بناء المسجد نحو نصف متر، إلا أنهم أحضروا المواد من الآجر والإسمنت حوله.

والمسجد جديد كلياً، فلم يكن في القرية مسجد إلا ما ذكره الأخ إبراهيم من أنه كان يوجد في القديم مسجد في مكان بعيد من هذا، هدمه الشيوعيون، فخلت القرية وما حولها من المساجد.

وقال الأخ إبراهيم: لقد عانينا من صعوبة الحصول على النفقة اللازمة للمسجد، ولكن الإخوة المسلمين لم يقصروا في الأمر، فأحدهم تبرع بثمانين كيساً من الأسمنت، والباقي جمعناه من الجيران المسلمين قليلاً قليلاً، وليس لدينا الآن ما يكفي لبناء المسجد، ولكننا نعتزم أن نجتهد في جمع المال، وننفقه في البناء، حتى إذا ما عجزنا انتظرنا حتى يأتي الفرج.

فأخبرته أننا سوف نعطيه مساعدة رمزية عاجلة من رابطة العالم الإسلامي، وإنه يمكنه إذا لم يجدوا أي مبلغ ويكونون أنفقوا كل ما عندهم أن يكتبوا إلى رابطة العالم الإسلامي بوساطة المفتي وتزكيته، وسوف ننظر نحن في إرسال مساعدة أخرى.

هذا مع العلم بأن المسجد صغير، ولم أرهم استعدوا لبناء مرافق له،

فقلت له: إن إخوانكم في هذه البلاد وغيرها صاروا إذا بنوا المسجد بنوا بجانبه مدرسة، أو على الأقل فصولاً دراسية لتعليم أولاد المسلمين ما تمس الحاجة إليه من أمور دينهم، لأن المسجد للعبادة، ولكن العبادة تحتاج مثل غيرها من فروض الدين وواجباته إلى شيء من المعرفة بالدين، لذا أرى أن تسعوا منذ الآن إلى بناء مدرسة ملاصقة للمسجد، فضحك وقال: هذا شيء لم يغب عن البال، ولكن المشكلة هي مشكلة وجود المال في هذا الظرف الذي قل فيه المال من أيدي الناس، وصار همّ رب الأسرة أن يجد ما يكفي أسرته من طعام وكساء.

فقلت له: أنتم يمكنكم أن تضعوا ذلك في المشروع، وأن ترجئوا تنفيذه إلى الوقت الذي تستطيعون فيه أن تنفذوه، ولا شك - إن شاء الله - أنكم سوف تتمكنون من ذلك، قال الله تعالى: ﴿ وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا (٢) وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ﴾ [سورة الطلاق]، ولك أن تستشهد بحالنا معك الآن، فأنت لم يخطر ببالك أن إخواناً لك من مكة المكرمة سيأتون معك إلى رؤية المسجد، ويقدمون إليك مساعدة مالية عاجلة له.

فضحك وقال بعد أن فكر قليلاً: هذا والله صحيح.

وقد أخبرناه أن يحضر معه اثنين من أعضاء جمعية المسجد أحدهما خازن الجمعية أو أمين الصندوق، وذلك من أجل أن نسلم إليهم المبلغ في دار الفتوى بحضور المفتي والقاضي وتصديقها، وكنا أوصيناهما، وسنفعل ذلك أيضاً عندما نقدم النقود، بأن يراقبا ما يفعلون بالنقود، فهي على قلتها بالنسبة إلينا هي كثيرة بالنسبة إليهم، نظراً لتدني الدخول، وقلة ذات اليد عندهم.

وقد لبثنا فترة عند المسجد لجمال الموقع، وإلا فإنه ليس عنده قرية كما قلت، وإنما هي بعيدة منه نوعاً ما.

وفي هذه الأثناء حضر إلينا صبي أصفر الشعر، كأنه من أهل إسكندنافيا في صفرة شعره، وقال الأخ إبراهيم: إنه من أبناء المسلمين، وإن أهل المنطقة هذه كلهم مسلمون، وقال الصبي عندما سألناه: اسمي (راولي بن جمال).

وقد أشار الأخ إبراهيم إلى بيته الذي يبعد نحو خمسمائة متر من موقع المسجد، يفصل بينها مزارع الشاي وأشجار الفاكهة: هذا هو بيتي، إنه ذلك الأبيض، وحدثنا عن نفسه بأنه متقاعد، وله ابنان وبنت، أحد الابنين ساكن وحده، والآخر يسكن معه.

ولما رأيت تكاثف الأشجار في هذه المنطقة الجبلية سألته عما إذا كان فيها سباع منترسة، فذكر أنه لا توجد سباع منترسة عندهم.

والتقطت صوراً عديدة لهذه المنطقة التي استهواني جمالها، لا سيما عندما فكرت بأنها من أوطان المسلمين، وذلك لكون القلم يعجز عن وصفها بالتفصيل، فرأيت أن المصوِّرة قد تفعل ذلك أو قريباً منه.

وقال الأخ إبراهيم في حديثه عن نفسه بأنه وأجداده كانوا يعيشون في هذه المنطقة منذ ١٥٠ سنة، وأنه يحبها رغم عدم وجود طريق من العاصمة إليها، والحقيقة أنها في غاية الجمال، مع الخصب الظاهر، وإن كان أكثر غلاتها للحكومة، وليس للواحد من الأهالي إلا قطعة صغيرة من الأرض.

العودة إلى باطومي:

قال الأخ (إبراهيم بن محمد) عندما رأى حرصي على رؤية الأشياء والأماكن التي لم أرها من قبل، بسؤالي عن أحوالها: إننا سوف نعود إلى باطومي مع طريق غير الطريق الذي جئنا منه، ولكنه مثل الأول في عدم وجود الزفت فيه.

سار مع هذا الطريق الآخر الذي هو أكثر قرى ومنازل من الأول. وتكررت رؤية الكروم بكثرة على أسوار البيوت، وعلق الأخ إبراهيم على ذلك بقوله: العنب هنا للأكل وللعصر للخمر، ولم يقل من الذي يعصر العنب، ولكن المتبادر إلى الذهن أنها الحكومة، لأنها التي تملك المزارع الكبيرة.

ومن الطريف أن الأخ إبراهيم رفع رأسه إلى السماء التي لا تزال غائمة قائلاً: الحمد لله ما فيه مطر !.

وذلك لكثرة المطر عندهم، مع أنهم يحتاجون المطر لأكثر مزروعاتهم، إذ اعتادوا الاعتماد عليه في الزراعة، حتى الشاي لا يسقونه إطلاقاً، وإنما يشرب من (ضرع السماء) كما يقول أحد الظرفاء في أمثاله. وكنت قد تعجبت من تعهدهم غرس أشجار الشاي في الأماكن المرتفعة، مما يجعل سقيه غير ممكن إلاّ إذا رفعت المياه بالرافعات، وهذا لا يتوفر لأمثالهم.

ولم يختلف طريق الإياب إلى باطومي عن طريق الذهاب منها في السوء، وعدم العناية، وفي شيء أخر في ذهني، وهو أنني قد تعودت على أن تكون الطرق السيئة وإهمال المرافق العامة في بلاد السمر والسود، وهاأنا الآن أراها في بلاد البيض الشقر.

توزيع المساعدات:

عدنا إلى باطومي في السادسة والثلث، وقصدنا دار الفتوى في الجامع المركزي الذي يسمى الجامع الأوسط، وهو الذي تقع دار الفتوى في جانب منه، حيث كنا على موعد في السادسة مع أرباب المساجد والمشروعات التي قررنا أن ندفع إلى أهلها مساعدات مالية عاجلة من الرابطة، ومن مبالغ نقدية مالية بالدولار الأمريكي كنا خاطرنا بحملها معنا بديلة من الصكات (الشيكات) السياحية التي يسهل حملها، ولا يضر فقدها، ولكننا عرفنا أنه يصعب صرفها على الإخوة المسلمين في بلاد الاتحاد السوفيتي السابق، وذلك لحداثة عهد أهله بالمعاملات المالية الحديثة.



في دار الفتوى في باطومي.(من اليمين):المفتي، فالأخ رحمة الله بن عناية الله،فالقاضي داود، فأحد المسلمين من أعضاء الجمعية، فالأخ حسن إزميرلي،فالمؤلف،فأحد أعضاء الجمعية الإسلامية

وكان سرور إخواننا بالغاً بهذه المساعدات، وبخاصة أن أكثرهم من أرباب المساجد التي توقف العمل فيها بسبب قصور النفقة.

وقد أعطينا المساعدات للجنة من القائمين على المشروع بحضور المفتي والقاضي واثنين من أعضاء الجمعية، وبتصديقهم وتوقيعهم على كل سند تسلم، والمراد من ذلك ليس التوثيق لنا، فنحن لسنا بحاجة إلى ذلك، وإنما المراد أن نشرك المفتي والقاضي والجمعية الإسلامية في معرفة مصير هذه النقود التي هي مبلغ كبير لديهم، وإن كان قليلاً بالنسبة إلينا، فهي تتراوح ما بين خمسة آلاف دولار إلى ألف دولار، لم ندفع مبلغاً أعلى من الأول ولا أقل من الثاني.

كما دفعنا مساعدة للمفتي والقاضي سرا بها أيضاً.

سوق باطومي:

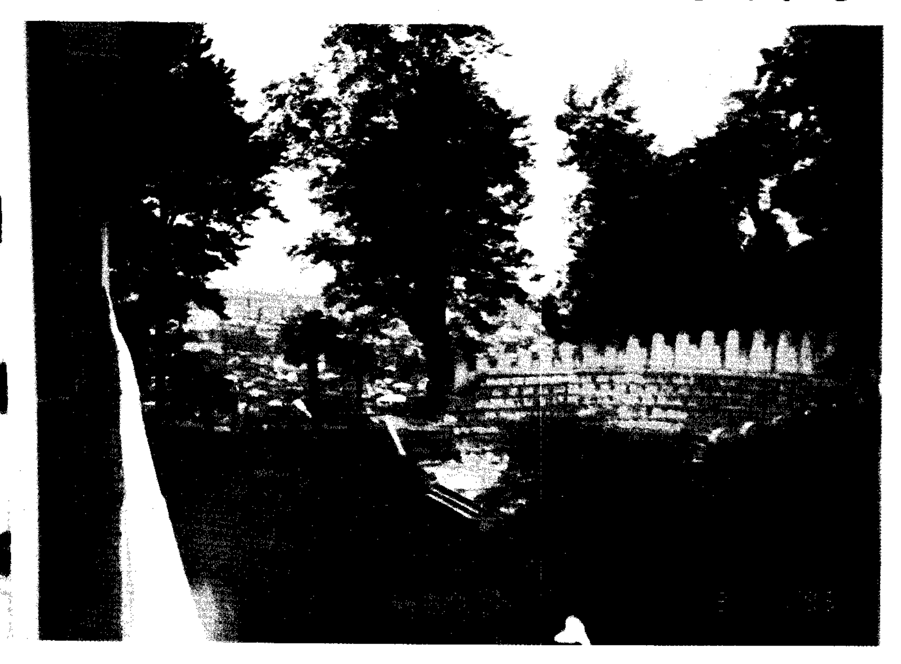
فرغنا من العمل في دفع المساعدات المالية في الثامنة، ومازالت في النهار بقية رأينا أن نلم فيها بسوق الفاكهة في هذه البلاد من وحي ما رأيناه من أشجار الفاكهة، فذهبنا إليه وهو سوق مغطى مؤلف من طابقين، لكنه صغير بالنسبة إلى كبر المدينة وقلة الأسواق الفرعية فيها، فرأينا أكثر ما فيه من الفواكه والخضرات من النوع المألوف عندنا، كالخيار والباذنجان والطماطم والبطيخ الأصفر (الشمام)، والأخضر (الحبحب)، وهذا السوق ليس للخضرات فقط، بل يصح أن يقال فيه: إنه سوق للأطعمة، إذْ فيه قسم للسمك، وآخر للحم، وثالث للطيور وهي الدجاج والبط، ولم نرَ فيه ما يعجبنا إلا نوعاً جيداً من المشمش كبيراً رقيق القشر، لذيذ الطعم، قليل النظير، وخوخاً كبيراً جيداً من النوع المعتاد

الذي نستورده، ولا يكون في بلادنا، إذ الخوخ الذي نعرفه في بلادنا هو الأخضر الصغير الحجم بالنسبة إلى هذا الكبير.

وثمن الكيلو الواحد من هذا الخوخ والمشمش هو ما يعادل ريالين ونصفاً.

والعجب أن سوق الفاكهة والخضرات على صغره النسبي هو فقير بأنواعها، والمقادير المعروضة منها بالنسبة إلى ما تحفل به بلادنا الصحراوية من خضرات وفاكهة، فالأنواع عندنا أكثر، ومقاديرها أكبر، وإقبال الناس على شرائها أكثر، رغم الخضرة والمطر والأنهار في هذه البلاد.

هذا وفي الشارع عند السوق بضائع رصيف معروضة على عربات، أو على الأرض، أو معلقة فوق عربات يدوية، التقطت لها عدة صور.



صورة لجانب من مدينة باطومي التقطتها من شرفة الفندق الذي نسكن فيه

ثم عدنا إلى الفندق قبيل التاسعة، فوجدنا الماء مقطوعاً عنه، ونحن في الطابق الرابع، وقد لقينا من ذلك عنتاً، وزاد عجبي أن يكون انقطاع الماء عن هذا الفندق في هذه البلاد الحافلة بالأنهار، الكثيرة الأمطار، أكثر من انقطاعه عن بلادنا الصحراوية التي صار أصحاب الفنادق مستعدين لشح الماء، وعدم وصوله إلى الفندق، بنقله بسيارات نقل المياه، وإفراغه في خزانات الفندق.

وانقطاع الماء عن هذا الفندق مثل انقطاع الكهرباء عن الفندق الفخم في تفليس، الذي هو من ذوات النجوم الست في هذه البلاد، والتي كانت تصنف ضمن البلاد المتقدمة عندما كانت جزءاً من الاتحاد السوفيتي.

وقد قال لنا مدير الفندق: إن الماء سيعود إلى الفندق بعد ساعة، ومضت الساعة وبعدها ساعات، ونمنا قبل وصوله، ولم يفعلوا ما كان يفعله الآخرون في بلاد ينقطع عنها الماء، حيث كان أرباب الفنادق يحضرون ماء قليلاً في أوعية يستعمله النزيل، حتى تعود المياه العامة للفندق.

وقد تناولنا العشاء في المطعم، فانقطعت الكهرباء عن الفندق ونحن نأكل، فأحضروا شموعاً أناروا بها المطعم، وطعامهم جيد، فهو نوع من السمك الجيد معه الخبز، والجبن نوعان من جبن لهم فيه نوع مالح، وفيه نوع خالٍ من الملح، وهو لذيذ الطعم، وقدموا خبزاً جيداً، وفاكهة من البطيخ الأصفر والأخضر (البحب)، وسعره معتدل، بحيث كان العشاء للشخص الواحد بستة دولارات أمريكية.

يوم السبت: ١٤١٦/٢/٢٤هـ ١٩٩٥/٧/٢٢م

أصبح الجو منيراً اليوم، ولا مطر، لكن الغيم لا يزال موجوداً، وقد تناولنا طعام الإفطار في الفندق، وهو جيد من الجبن الوطني الممتاز، ومن البيض والفاكهة، ويطل مطعم الفندق الذي يقع في الطابق الرابع على جزء من مدينة باطومي، من ورائه البحر في منظر أنيق، وقلت في نفسي: لو وجدت الإدارة الجيدة لأصبحت هذه المنطقة جنة للسائح المسلم، الذي يحضر مع أسرته وينزل في إحدى التلال الخضر، ويصرف نقوده في منطقة إسلامية، أما الآن فإنه لا يوجد إلا فندق واحد، يصح أن يسمى نظيفاً، وبقية الفنادق قذرة مهملة، ومع ذلك ذكروا أن الأمن فيها غير متوفر.

هذا والجو معتدل الآن، فهو ربيعي بالنسبة إلينا، وصيفي بالنسبة إلى شتائهم البارد وصيفهم المعتدل، ولاحظت أن عمال المطعم وعاملاته لا يلقي أحد منهم تحية الصباح إلى أي نزيل في الفندق، أو حاضر في المطعم، مع أن تحية الصباح هي من ألزم التحيات، لأنها يسبقها فراق الليل فيما إذا كان الداخل للمطعم قد تناول طعام العشاء فيه، ولكن هذه عادة سوفيتية عريقة- إن صح التعبير- ويمكن أن يقال فيها إنها عادة روسية، وهي العبوس، وعدم البشاشة عند اللقاء أو المجاملة في الكلام.

ومن مظاهر بقاء الشيوعية أننا مررنا في التاسعة والنصف على بقايا العشاء من الليلة البارحة لا تزال متروكة على الموائد، وفيها صحون قد أكل بعض ما فيها، وسوائل وسلطات باقية من الذين أكلوا في المطعم البارحة، ولم يرفعها العمال، ولا نظفوا الموائد من ذلك الوقت حتى الآن.

ومن المظاهر أيضاً كثرة الموظفين مع صغر الفندق، وهذا شبيه بما لاحظته في البلدان الشيوعية، من شرق أوروبا حتى الصين، وهو الإكثار

من عدد العمال على عمل قليل، فيرى المرء الجماعة الكبيرة من الناس على عمل صغير في الفلاحة، كأن يجتمع القوم على عمل حوض صغير من البذار، يكفي له عندنا عامل واحد.

عود إلى دار الفتوى:

وعدنا إلى دار الفتوى في هذا الصباح، حيث قابلنا المفتي الشيخ (محمد حسين أوغلو)، والقاضي الشيخ (داود كابودزه)، وبحثنا معهم بعض الأمور المتعلقة بالوضع الإسلامي في هذه البلاد، وما يتعلق من ذلك بالأماكن التي لم نزرها فيها، ومن ذلك السؤال عن المسلمين في الإقليمين الملحقين بجورجيا، وهما (أوستينا) الجنوبية، وأبخازيا التي انفصلت عن جورجيا قبل عامين.

وقد ذكرا أنهما لا يعرفان عن وضع المسلمين في (أوستينا) الجنوبية، وهذا مبعثه أن معظم الناس في البلدان الشيوعية السابقة لا يغادرون أماكن إقامتهم، لما يكلفهم ذلك من جهد ومال لا يستطيعون توفيره في أكثر الأحيان، ومن تساؤلات من رجال السلطة لا يستطيعون تلافيها، أو تفادي الضرر الذي تسببه لهم.

قالا: وأما أبخازيا فإن الشيوعيين في السابق قد هدموا جميع المساجد فيها.

أقول: أبخازيا هي بلاد الأباظة، يقال للبلاد أبخازيا وللمواطن فيها وللمواطنين أيضاً بالجمع والإفراد (أباظة)، ومنهم أناس هاجروا إلى مصر وسوريا، وعرفوا بهذا اللقب، ولم نستطع زيارتها، لأن الأمور فيها لم تستقر بالنسبة للأجنبي بعد الحرب التي هزم فيها الأبخاز على قلتهم

الجورجيين على كثرتهم.

وينبغي أن نتذكر هنا أن تاريخ الجورجيين أكثره معروف بأنهم قوم مغلوبون، وعكس ذلك الأبخاز، حتى أن أسلافنا من المؤرخين العرب ذكروا أن سبب ضياع ملك العرب والمسلمين في جورجيا هم الأبخاز الذين كانوا على النصرانية، فحاربوا المسلمين الذين كانوا في جورجيا حتى أجلوهم عن جورجيا، وذلك لكون المسلمين أولئك قد ضيعوا أمر الله وفرطوا في أمور دينهم، كما ذكر المؤرخون أنهم كانوا يشربون الخمور، ويركنون إلى الملذات، فسلط الله عليهم هؤلاء الأبخاز، فأجلوهم عن جورجيا.

المسجد الجامع:

وهو الذي صلينا فيه الجمعة، وتقع دار الفتوى في غرفة ملحقة به ولكنها خارجة عنه، وإنما يصعد إليها مع درج في فناء المسجد المكشوف، عدت إلى المسجد الجامع وكان يسمى مسجد (أورته)، بمعنى المسجد الأوسط عندما كانت المساجد عديدة في باطومي قبل الحكم الشيوعي، ثم صار يسمى مسجد الجمعة، أو المسجد الجامع لكونه لا يوجد غيره في باطومي تقام فيه الجمعة.

لم أستطع التطواف فيه ونقل كل ما رأيته فيه من كتابة أثناء صلاة الجمعة، لذلك نزلت إليه وقد علقت مصوِّرتي في ذراعي، وأمسكت قلمي في أناملي، فرأيت تاريخ بنائه في عام ١٨٦٦م، بناه المسلمون الأجاريون من سكان هذه البلاد.

ومعنى أجار باللغة الجورجية: (بقايا العسكر)، إلا أن الذين سألتهم

من المواطنين عن أصل هذه الكلمة لم يعرفوا أي عسكر أولئك، ولا السبب في تسمية الأجاريين بهذا الاسم (أجار)، أما (أجاريا) فهي بلادهم.

و(أجاريا) هي إقليم أو جمهورية محلية داخل جمهورية جورجيا ملحقة بها، مثلها في ذلك مثل إقليم أبخازيا الذي انفصل عن جورجيا بقوة السلاح، ومثل إقليم جنوب (أوستينا) الذي لا يزال معها.

وقد أخبرنا الإخوة هنا أن حكومة أجاريا الوطنية لا تسمح لغير المواطنين الأجاريين أن يقيموا إقامة دائمة في أجاريا، ولو كانوا من أهل جورجيا الذين تجمعهم بهم جامعة الدولة الواحدة والعلم الواحد.

ورئيس الحكومة المحلية هو مسلم عريق، اسمه (اصلان أباوزده إبراهيم أوغلو)، ذكروا أن أباه كان مدرساً في المسجد، وأنه هو نفسه كان يساعد المسلمين على ترميم مساجدهم، ويأتي لذلك إلى المساجد ليطلع على ما أنجز فيها من أعمال التوسعة أو نحوها، إلا أنه لا يصلي، وإنما يرى الأعمال في المسجد ثم ينصرف.

قالوا: وهو شيوعي قديم، مثله في ذلك مثل رئيس البلاد في الوقت الحاضر (شيفارنا زده)، إلا أنه لا يقول أي واحد منهما وأمثالهما من الحكام: إنه شيوعي، لأن عهد الشيوعية قد ولى.

والمسجد الجامع هذا، أي الجامع الأوسط، هو أكبر المساجد في باطومي، وقد صادره الشيوعيون وأغلقوه، فبقي في أيديهم حتى سقطت الشيوعية، فاستعاده المسلمون قبل ثلاث سنوات، وفتحوه للصلاة، فكان أن أقبل المسلمون على الصلاة فيه حتى زاد عدد المصلين لصلاة الجمعة على خمسمائة مصلٍ.

يحفل المسجد باللوحات العربية التي لا يوجد لا فتات به بلغة أخرى غير العربية، من ذلك (البسملة)، والشهادتان، وأسماء الله الحسنى، حيث كتبوها كلها و ﴿نِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ﴾.

وشيء عجيب، وهو أنهم كتبوا أسماء الخلفاء الأربعة ومعهم بقية أسماء العشرة المبشرين بالجنة، وعدد من فضلاء الصحابة، كتبوا اسم كل واحد منهم داخل دائرة بحلة محصورة.

وكتبوا فوق المحراب الآية الكريمة: ﴿فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ﴾.

وهذه اللوحات العربية كتبوها محبة بالعربية والألفاظ الإسلامية، وإلا فإنه لا يوجد فيهم من يتكلم العربية.

هذا وتزين وسط المسجد ثريا من البلور الصافي، وقد فرش بسجاد جيد، وبعضه فاخر، وقد عجبت لاستطاعتهم ذلك.

وفيه دكتان عن يمين الداخل إلى المسجد ويساره، دكتان مرفوعتان قليلاً عن الأرض، كالدكة الموجودة في الجامع الأموي بدمشق، وهما مفروشتان مثل المسجد بسجاد جيد.

والتقطت ما شئت من صور للمسجد.

جولة في مدينة باطومي:

بدأت هذه الجولة بوقفة في القسم القديم منها، وكان دليل الرحلة سائق السيارة الفولقا التي معنا هو الأخ الحصيف النشيط (سليمان بن داود

كوباوزه)، فكان أول ما بدأنا به من الجولة الذهاب إلى القسم القديم من المدينة، وهو ذو بيوت متلاصقة، أغلبها من طابق واحد، وبعضها من طابقين، وهي من الآجر المطلي، ذات سقوف من الآجر الأسود أو الرمادي اللون.



جانب من مدينة باطومي التقطها المؤلف من شرفة فندقه هناك

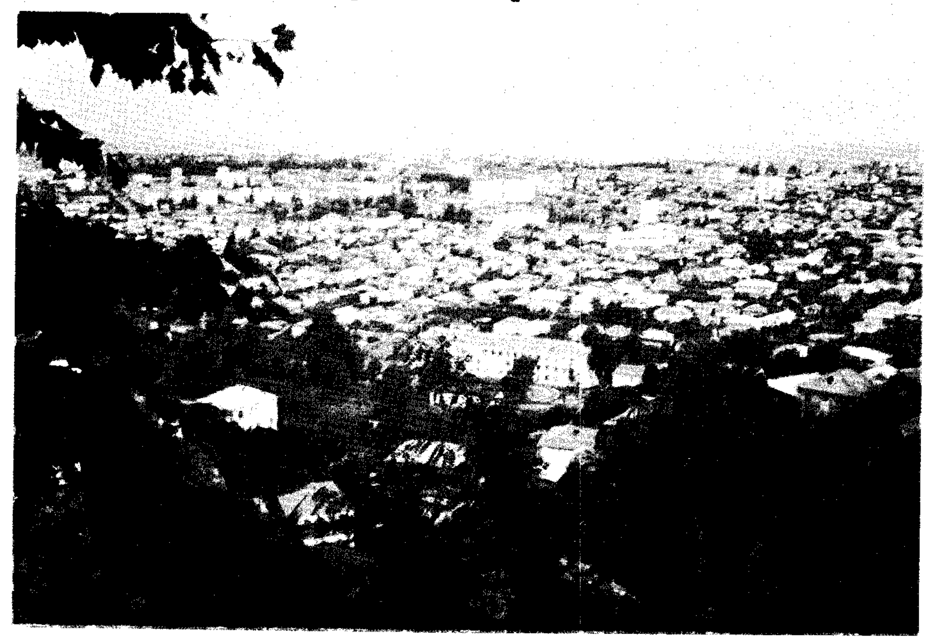
ميدان لينين:

وقريب من القسم القديم يقع ميدان مهم، وإن لم يكن فاخراً، كانوا يسمونه (ميدان لينين) جرياً على عادة الشيوعيين في كل المدن التي كانوا يحكمونها، بأن يسموا أحد الميادين المهمة فيها باسم زعيم الشيوعية الذي أخرج الاشتراكية من حيز النظرية إلى حيز التطبيق كما يقولون، ولكنهم عندما كانوا يكررون ذلك يتفاخرون به، لم يكن يدور في بالهم، ولا جال في تفكيرهم أن الله غالب على أمره، وأنه قدر أن تسقط

الشيوعية من النظرية والتطبيق، وأن تصبح البلاد التي ابتليت بها أكثر البلدان مسارعة إلى هجرها، وبيان مفاسدها، وأبعد عن العودة إليها.

وهذه التسمية للميدان قديمة، قد ألغيت بعد الاستقلال كما يقول مرافقنا الأخ (سليمان بن داود)، غير أن النّاس لا يزالون يسمونه بهذا الاسم بحكم العادة، وذكر أنه سمي باسم آخر بعد استقلال جورجيا، إلا أنه لا يعرف الاسم الجديد.

ويتفرع من ميدان لينين شارع اسمه (جادة روستاولي)، عليه المسرح الوطني وفندق (ميديا)، وكنا دخلناه فوجدناه في نهاية القذارة والإهمال، ولا يمكن لمثلنا أن يستطيع السكن فيه، وعلى هذا الشارع أيضاً مبنى الحكومة، وفندق (إنتورست)، أي فندق السياح الأجانب.



منظر لجانب من مدينة باطومي(التقطها المؤلف)من فندق الغابة فيها

حديقة البحر:

وهذه حديقة جيدة أسموها (حديقة البحر)، لكونها واقعة على شاطئ البحر، وذكروا أن مياه البحر الضحلة كانت تغطي جزءاً منها إلى عام ١٨٨٣م، حيث انحسر عنها قليلاً، وجفف ما بقي منه، وهناك لوحة لا تزال موجودة توضح ذلك. وفيها شارع مغلق دون السيارات، مفتوح للمشاة، ينطلق من المدينة إلى شاطئ البحر مباشرة، بحيث يستمتع من يسير فيه بالمشي عن يمينه جانب من الحديقة وعن يساره جانب.

والشارع مبلط تبليطاً جيداً، فيه عدة برك للمياه جيدة التبليط، بل إنها مبلطة بنوع من الرخام المحلي، وفي هذه البرك نوافير عديدة، كلها واقفة عن العمل عندما رأيناها.

والمنطقة كلها مجملة حقاً، وتبين منها أن الإدارة الحكومية التي أساسها الإدارة الشيوعية، كانت تستطيع أن تعمل للبلاد ما ينبغي من العناية والتجميل، غير أنها لم تفعل ذلك إلا في نقاط معينة ضيقة، خصوصاً التي يراها الزوار الأجانب.. ويستمتع بها كبار موظفي الدولة من رجال الحزب الشيوعي.

وفي جانب من الحديقة مبنى مكسو بالرخام الأحمر، يسمونه (مسرح الحديقة)، وهو مسرح فعلي حيث كحلوا رخامه الأحمر، أي حلوه بخطوط بيض فزادت من جماله، وهذا المسرح واقع إلى يسار الذاهب إلى البحر مع هذا الشارع الذي يشق الحديقة، وعن اليمين مقابلاً للمسرح تمثال كبير لجوزيف ستالين دكتاتور روسيا الفظ، وذلك لكونه من جمهورية جورجيا هذه، وإن لم يكن من أهل إقليم إجاريا بالذات.



على شاطئ البحر في باطومي مع سليمان داود أوغلو

هذا وقد صحا الجو في الضحى وصار شامساً كأنه جو الرياض، لذلك رأينا طوائف من الناس يتمشون على شاطئ البحر على الطريقة الأوروبية المعروفة، وكثير منهم جاؤوا ليعرضوا أجسامهم لشمس الشاطئ دون سباحة، مع أن الشاطئ ليس رملياً، وليس جيداً للجلوس والتمدد، فهو مليء بحجارة صغيرة يظهر من منظرها كما لو كانت نقلت نقلاً من مكان آخر، ولكنها كثيرة لا يتصور نقلها، لذلك يضطر من يريد التمدد أو الاستلقاء فيه أن يحضر فراشاً بعه يقيه وقع جسمه على هذه الحصا الصغار، وكلها من المرو القاسي، بعضها في حجم رأس الإنسان، وأكثرها أصغر من ذلك.

ومع ذلك اغتنم القوم فرصة إشراق الشمس في هذا الفصل الصيفي، وخرجوا إلى الشواطئ.

ولباس الناس في هذا الشاطئ هو لباس الأوروبيين في مثل هذا الموضع، وهو دون لباس أهل البرازيل الذي لا أعتقد أنه يوجد من يدانيهم في التعري في الشواطئ.

وهذا البحر هو البحر الأسود كما هو معروف، وإذا نظر إليه المرء من الأرض قرب الشاطئ لم يلاحظ عليه أي لون للسواد، لكن قاعه أسود في بعض المواضع، لذلك ينعكس على مياهه لون شبيه باللون الأسود لمن ينظر إليه من سطح سفينة، ولذلك سمي بالبحر الأسود، وهي تسمية لم يكن يعرفها أسلافنا من المؤرخين والجغرافيين العرب، وإنما كانوا يسمونه بحر بنطس.

وبعضهم كأبي الريحان البيروني أسماه (بحر اطرابزنده) إضافة إلى مدينة (أطرابزنده) التي تعرف الآن باسم (طرابزون)، وسوف نمر بها بعد الانتهاء من زيارة جورجيا بإذن الله.

هذا ولم نرَ على هذا الشاطئ أي مقصف أو مطعم أو مقهاة، وقلت في نفسي: لو كان هذا الشاطئ في بلاد كبلادنا لرأيته مزدحماً بالمقاصف والمطاعم، وذلك لكون البلاد لم تتخلص من الشيوعية إلا منذ زمن قصير، والشيوعيون لا يسمحون لأصحاب المبادرات الفردية الاستغلالية بفتح المطاعم والمقاصف، وإنما تقوم الدولة بذلك كله، وقد رأينا في حديقة البحر مقصناً، ولكنه داخل عن الشاطئ جهة المدينة.

أما الهواء فإنه بارد إذا تحرك، ولكن الريح كانت ساكنة.

العودة إلى داخل المدينة:



المؤلف في شارع واسع في باطومي

عدنا إلى داخل مدينة باطومي، فمررنا بشارع كان اسمه شارع ستالين، ولكنهم غيروا اسمه بعد الاستقلال، مع أن ستالين هو من جورجيا كما هو معروف.

ثم سلكنا شارع جوركي، وهو الأديب الروسي الشهير مكسيم جورجكي، إلا أن الجورجيين غيروا اسم الشارع، فأسموه شارع إيبريا، و(الإيبريون) أقوام من سكان القوقاز القدماء؛ الذين منهم الجورجيون وقدماء الألبان.

وفي هذا الشارع متحف أجاريا.

ومررنا بمعبد يهودي، نوهوا بأن اليهود قد غادر أكثرهم إلى

فلسطين، وأنهم من القدماء في جورجيا.



شارع في باطومي في أجاريا

ووصلنا إلى مبنى محافظة المدينة، ولم نرَ فيها أي معنى من معاني العناية، فضلاً عن الفخامة والتميز عن غيرها، وبجانبها حديقة مهمة خاصة بالأطفال، فيها بحيرة اصطناعية كبيرة، وفيها باخرة يركبونها، ولم أرَ فيها كثير ألعاب للأطفال، وبجانبها حديقة للحيوان قليلة المعروضات.

ولم نقف طويلاً عند هذه الأبنية التي لا تهمنا كثيراً، وإنما واصلنا سيرنا حتى دخلنا شارع (بوشكين)، وهو الشاعر الروسي الشهير الذي يقال: إن أصله من القازاق، وإن أجداده كانوا مسلمين، ويستدلون على ذلك باستشهاده في أشعاره بنصوص إسلامية، حملت بعض الناس على القول بأن أصله عربي إسلامي، بل قال بعضهم: إن أصله مسلم من

الحبشة.

ولم يغير الجورجيون اسم هذا الشارع المسمى باسم الشاعر بوشكين، وفيه كنيسة عالية المبنى، فخمة الطراز، نوهوا بأنها للجورجيين الذين يتبعون المذهب الأورثوذكسي.

ثم ميدان تبليسي وهي (تفليس) عندنا التي هي الآن عاصمة جمهورية جورجيا، وينطلق منه شارع كان اسمه (شارع لينين)، والآن أصبح شارع (جامسياخوريا).



المؤلف في شارع في القسم القديم من مدينة باطومي

وكان ذلك خاتمة هذه الجولة، حيث ذهبنا مباشرة إلى فندقنا فتناولنا فيه غدائنا من السمك الجيد على عادتنا في تجنب أكل اللحم لكون ذبحه ليس شرعياً، وجاؤوا معه بصحن من الفاصوليا المطحونة وباذنجان مع المكسرات، وبطاطس مقلية جيدة، إضافة إلى الخبز

والفاكهة، وكان ثمن الغداء لنا نحن الأربعة ٢٤ دولاراً أمريكية، ثم كانت الصلاة في قاعة الطابق الرابع الذي فيه غرفنا؛ حيث إن الغرف لا تتسع لصلاتنا جماعة إذْ كان معنا الأخ سليمان بن داود.

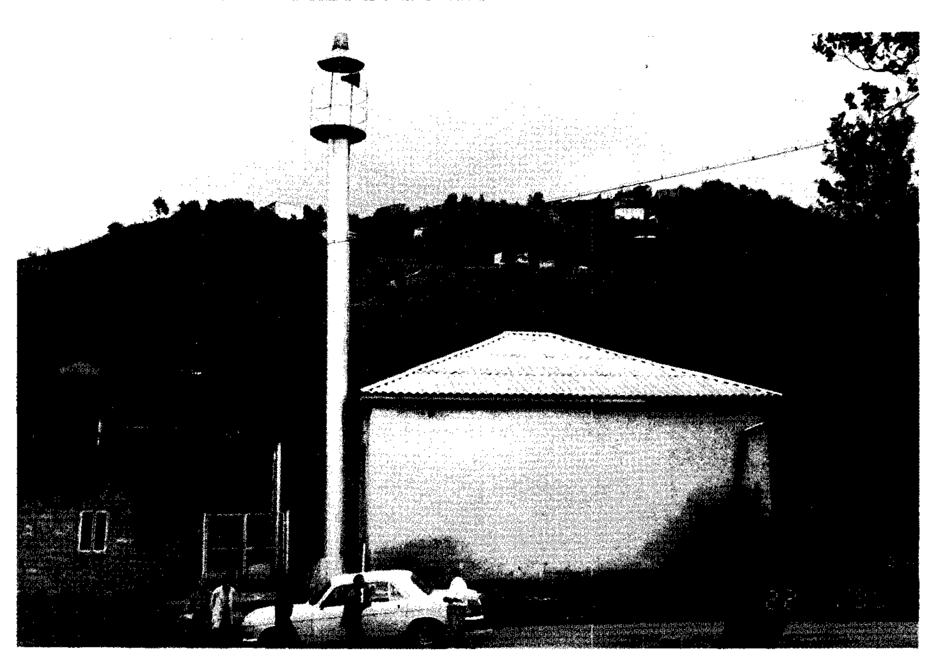
وقد تجمع موظفو الفندق والعاملون فيه، وبخاصة من العاملات المسلمات اللاتي لم يشاهدن الصلاة في الفندق من قبل، وقلنا: إن هذه فرصة لكي نري المسلمين وغير المسلمين كيف نؤدي الصلاة، وقد صلينا الظهر والعصر جمعاً وقصراً.

إلى قرية تيرما:

تقع قرية (تيرما) غير بعيد من العاصمة، وفيها مسجد يحتاج إلى عناية ومساعدة، طلب منا المفتي وأهل المسجد الذين حضروا في (دار الفتوى) اليوم زيارته قبل مغادرتنا مدينة باطومي المقررة في عصر اليوم.

ذهبنا مع أخينا ودليلنا الحصيف (سليمان بن داود) على السيارة (الفولقا) المعهودة، فخرجنا من (باطومي) مع ضواحٍ كل حيطانها قد جللتها عروش العنب المثقلة بالثمار، وفي جو شبيه بما شاهدناه من قبل في ريف باطومي من الخصب والجمال الطبيعي.

ووصلنا بسرعة إلى قرية (تيرما)، فوقفنا عند مسجدها الذي هو أبيض الطلاء في هذا الجو الأخضر، بل الكثيف الخضرة، ومنارته أنبوب ضخم من الحديد طلوه بطلاء أبيض، وجعلوا في رأسه الهلال علامة المسلمين التي تقابل الصليب عند المسيحيين كما هو معروف، وقد أصبح رفع الهلال شعاراً على المواطن الإسلامية، وبخاصة المساجد، حيث يعلو منائرها وقبابها في العادة.



مسجد تيرما بمنارته الرفيعة

والمسجد واقع بين هذه التلال الخضر، إلا أن الوادي متسع بعض الشيء، فيه مزارع وبيوت.

ورأينا في جانب المسجد مقبرة للمسلمين من سكان المنطقة، نوه المرافق وجماعة من أهل المسجد وجدناهم عندها بأن الذي أعد هذه المقبرة وأهداها للمسلمين هو شيوعي من أبناء المسلمين، مما يدل - كما قالوا - على أنه لم يعتقد بالشيوعية، وإنما كان يتظاهر بها من أجل الحصول على المنصب والبقاء فيه.

وطبيعي أن هذا كان قبل سقوط الشيوعية وأهلها في هذه البلاد، ولذلك تكلم الحاضرون بمرارة بما رأوا أنه غير مناسب، وهو أنه مات في العهد الشيوعي، فدفنه رفاقه الشيوعيون في هذه المقبرة من دون أن يطلبوا السماح بذلك من المسلمين الذين رأوا أنه لا يجوز أن يدفن شيوعي ملحد

بين المسلمين، وإنما يدفن في المقابر العامة التي يدفن فيها الشيوعيون وغيرهم.

مع العلم بأن هذا الشيوعي هو ضابط في الجيش، لذلك اعتنى الجيش بدفنه، وهو من أبناء المسلمين.

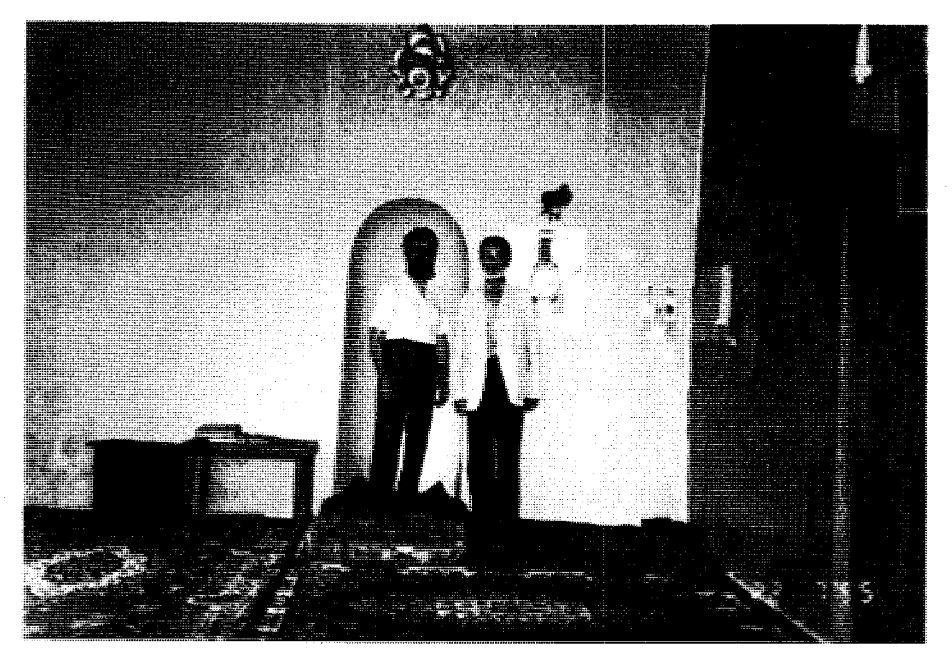
والقرية متباعدة المساكن لأن المساكن فيها هي مساكن ريفية تكون في الأراضي الزراعية، وفيها مساكن لسكان من غير الفلاحين لقربها من العاصمة، ذكروا أن سكان القرية هم ١٥٠ أسرة، ٨٠٪ من المسلمين ولم يعرفوا عدد سكانها بالضبط .

وأما المسجد فإنه كان في مكان مسجد قديم صغير هدمه الشيوعيون، ثم بنى المسلمون هذا المسجد الصغير بعد سقوط الشيوعية، إلا أنهم بنوه صغيراً، متواضع المظهر، حتى إنهم لم يستطيعوا أن يبنوا له منارة، وإنما أقاموا مقامها أنبوباً من الحديد.

وقد حضرت طائفة من أهل القرية منهم الأخ (جمال) حارس المسجد ومعه المفتاح، وآخر اسمه مولود بن قادر.

ورأيناهم يبنون حمامات فوق غرفة استعملوها فصلاً دراسياً، يدرسون فيه الأطفال، وبرروا ذلك بكون أساس غرفة صالحاً، فلا يحتاجون إلى أساس جديد، وهذا لا ينبغي، لأن الغرفة سوف يُتلى فيها كتاب الله، فلا ينبغي أن يكون تحت الحمامات، ولذلك اقترحنا عليهم أن يبنوا غرفة أخرى تكون لتدريس الأطفال، أما هذه فيستعملونها لغرض آخر، وذلك بأنهم قد بنوا الحمامات بالإسمنت فعلاً، ولا يستطيعون هدمها، وقلنا لهم: إننا سوف ندفع لهم الآن مساعدة مالية على ذلك، مع

العلم بأن المسجد لا يزال يحتاج لأشياء كثيرة لإكماله.



في محراب مسجد تيرما في أجاريا مع مولود بن قادر

وداخل المسجد نظيف مفروش بسجاد جيد.

وطلبنا منهم أن يحضروا المسؤولين عن المسجد، وهم رئيس الجمعية، وخازنها، وإمام المسجد فوراً إلى دار الفتوى لنصرف لهم المساعدة هناك، ففرحوا به، ووجدناهم بعد ذلك في دار الفتوى حيث دفعنا المساعدة للمسجد في دار الفتوى لكي تراقب ما يصنعون بهذه المساعدة المالية.

هذا ولم نستطع أن نلومهم على كون غرفة التعليم تحت المراحيض، ولا على وجود المقبرة بقرب المسجد، لأنها خارجة عنه، وإن كان لا ينبغي وجودها هكذا، ولذلك لكوننا لم نجد منهم من يمكن التفاهم معه حول هذه الأمور.

وأكثر ما يحتاجون إليه المنح الدراسية لأولادهم حتى يتعلموا في بلادنا، ثم يعودوا مرشدين مسلحين بالعلم والمعرفة بأمور الدين.

قطعة من العذاب:

ورد في الحديث: (السفر قطعة من العذاب)، وقال أحد ظرفاء الأدباء: كنت أظن أن السفر قطعة من العذاب، فإذا العذاب قطعة من السفر.

وأكثر أسفاري - ولله الحمد - خالية من العذاب، وإن لم تخل من المتاعب، وإن كان الشعور بعذاب السفر أو متاعبه، مثل الشعور بمتعته، هي أمور نسبية تختلف من شخص لآخر، وأياً كان الأمر، فقد شعرنا بأن سفرنا هذا اليوم هو قطعة من العذاب.

ذلك بأننا قد اخترنا أن نسافر من باطومي إلى مدينة (طرابزون) في تركيا بالحافلة، ذكروا أنها حافلة تركية، يريدون بذلك مدحها بكونها ليست حافلة جورجية، وكنت أعرف الحافلات التركية وجربت السفر فيها في داخل تركيا، مثل السفر من أنقرة إلى إسطنبول وبالعكس أكثر من مرة، فعرفت أنها حافلات مريحة، وأنهم يجهزونها بكل ما يحتاجه المسافر، حتى إنه يكون فيها حمام، ويوزعون على الركاب مشروبات باردة، وكانت آخر مرة سافرت فيها بالحافلة هي قبل سنة تقريباً، عندما سافرنا من مدينة (تيقوسي قاليا) عاصمة هندوراس إلى مدينة (سان بدرو سولا) في هندوراس أيضاً، وهي تقع في منطقة أمريكا الوسطى، للقاء المسلمين المسؤولين عن الجمعية الإسلامية في البلاد.

وقد ذكر الإخوة هنا أن المسافة من باطومي إلى (طرابزون) هي مائتا

كيلو متر، تقطعها الحافلة في أربع ساعات، ومع أن سير الحافلة التركية الجيدة بمعدل ٥٠ كيلو متراً غير مريح، فإننا وطّنا أنفسنا على ذلك، حسبما ذكروا أن الحافلة تقوم في الرابعة، فقدرنا أن نصل إلى مدينة (طرابزون) في الثامنة، وقلت في نفسي: هذه فرصة سانحة لكي أرى هذه المنطقة من شمال تركيا في النهار، وسوف ننام الليلة في طرابزون، ثم نسافر في صباح غد إلى إسطنبول بالطائرة، ومن إسطنبول نسافر من المطار إلى مدينة سيمفربول عاصمة القرم، وبذلك لن يضيع علينا كبير وقت بإذن الله.

وكانوا عرضوا علينا أن نذهب بسيارة دار الفتوى، وهي جيدة واسعة نسبياً، من طراز فولقا، فلم نقبل ذلك لأننا لا نريد أن تذهب السيارة لغرض يمكننا أن نجد له غيرها، فقلنا لهم: إننا يمكننا أن نستأجر سيارة مثلها، ثم تراجعنا فيما بيننا وقلنا: إن السفر بالحافلة أكثر أماناً من السفر بالسيارة الصغيرة التي سنكون فيها وحدنا عرضة للذهاب يمينا أو شمالاً، والحافلات التركية حافلات جيدة معروفة.

وهكذا ذهبنا في الساعة الرابعة على عجل إلى محطة الحافلات التركية، وتبين أنها محطة لعدة حافلات لاتجاهات أخرى، وذلك لخشيتنا من أن تفوتنا الحافلة إذا تأخرنا قليلاً، لأننا نعرف أن مثل هذه الحافلات في البلاد المتقدمة من الإدارة، أو حتى المتوسطة في الإدارة، تكون لها مواعيد محددة في الوقوف والتحرك، بغض النظر عن كثرة الركاب الذين يركبون فيها وقلتهم.

ودفعنا الأجرة للراكب الواحد عشرة دولارات ونصفاً، أي ما يعادل ٤٠ ريالاً سعودياً لمسافة مائتي كيلو متر، وهذا المبلغ يوصلك من مكة

المكرمة إلى المدينة المنورة مع حافلات النقل الجماعي الجيدة في بلادنا، مع أن المسافة بنين المدينتين المقدستين يزيد على أربعمائة كيلو متر بقليل.

لقد ذكرنا أثمان الأشياء وأجور الغرف في الفنادق بالدولار الأمريكي، وذلك أن الدولار صار العملة الشائعة التي يعرفها الجميع في هذه البلاد، وإن لم يكن ذلك رسمياً من الحكومة، ذلك لأن البلاد كانت تستعمل الروبل الروسي عندما كانت داخل الاتحاد السوفيتي، ثم أصدرت عملة مؤقتة أسمتها الكوبون، إلا أن أسعارها سقطت وفقدت ثقة الناس، فصاروا يتعاملون بالدولار، حتى سائق سيارة الأجرة يأخذ أجرته بالدولار.

دخلنا الحافلة في الرابعة والربع ظهراً، لأنا وقت صلاة العصر عندهم لم يحن بعد، والشمس تغرب عندهم في مثل هذه الأيام بعد التاسعة، فوجدنا الحافلة في نصفها أو أكثر قليلاً مقاعد معتادة، في كل صف ٤ مقاعد يفصل بين كل اثنين منها ممر، وبقية الحافلة وهو خلفها ليس فيه مقاعد، وإنما فيه بعض الفراش، وتبين أن الحافلة معدة لأن ينام فيها بعض المسافرين على أرضها، إذا كان السفر طويلاً، وليس فيها حمام.

ولم نجد فيها من الركاب إلا ثلاثة أو أربعة قبلنا، وقال أحدنا: من فضل الله علينا أننا وصلنا في الوقت المناسب وإلا فاتتنا الحافلة التي قيل لنا إنها تسافر في الرابعة.

وانتظر مرافقنا الأخ سليمان حتى تتحرك الحافلة ليودعنا، ثم أحضر لنا مشروباً بارداً، وأخيراً عزمنا عليه بأن يذهب إلى بيته، وبقينا في انتظار ممل لكي تقوم الحافلة ولكنها لم تفعل، وقال أحد الركاب، وكلهم

من جورجيا الذين يصعب التفاهم معهم بالتركية، لأنهم لا يعرفون منها إلا قليلا: إن السائق ينتظر ركاباً جدداً.

ووصلت الساعة إلى الخامسة ولم يتحرك، والحافلة غير مكيفة، والهواء راكد.

وأراد أحدنا أن يذهب إلى حمام، لأننا تناولنا بطيخاً وشاياً في الفندق، فدلونا على مكان بعيد، لأن المحطة ليس فيها حمامات، وعندما أقبلنا على الحمامات العامة استقبلتنا فيها أسراب من الذباب، وروائح خبيثة تسبب الغثيان، ورأينا امرأة جالسة على مكتب له نافذة مما يلي الدخول كنافذة البنك، لا تسمح بالدخول إلا لمن دفع رسماً قليلاً، فتعطيه ورقة وتدعه يدخل، والرسم (٥٠٠) روبل، ويساوي ذلك ثلث ريال سعودي، لأن الدولار الأمريكي يصرف الآن بأربعة آلاف وأربعمائة وخمسين روبلاً.

ودخلناه في الداخل فوجدنا القذارة مجسمة فيه، ولا يستطيع أن يصبر عليه أحد إلا إذا كان مضطراً، والعجب في هذه البلاد الغنية بالمياه، أنهم لا يستعملون الماء لتنظيف الحمامات، وإنما يمسح من يقضي حاجته نفسه بشيء من الورق، ويلقيه في (برميل) كبير مفتوح، تغطيه أسراب الذباب مثلما تغطي المراحيض.

ثم عدنا إلى مقاعدنا في الحافلة التي ذهب منها بعض الركاب الذين كانوا معنا، ولا أدري السبب، وجاء قليل غيرهم.

وطال الانتظار حتى تجاوزت الساعة السادسة والنصف، أي لبثنا أكثر من ساعتين فيها دون أن تتحرك، وهاتان الساعتان كافيتان في بلادنا لقطع المسافة بين باطومي وطرابزون، وهي مائتا كيلو متر.

وأخيراً تحركت الحافلة في السابعة، وليس معها إلا عشرة ركاب، والسائق تركي يعاونه أخر كان يتحدث معه طول الوقت، وكانا يدخنان بكثرة، لأن الدخان شائع بين الأتراك أكثر من العرب، واخترقنا ضاحية من المدينة، فرأينا المنظر المعتاد فيها، وهي عرائش العنب التي تغطي حوائط المنازل.

الجمرك بعيد من الحدود:

كنا عرفنا من الإخوة أن الحدود التركية مع جورجيا تبعد ١٠ كيلات من المطار، والمطار يبعد عن المدينة عشر كيلات أيضاً، وإذاً تكون الحدود على بعد ٢٠ كيلو مترًا ا ولذلك استغربنا عندما دخل السائق بحافلته إلى جمرك الخروج من المدينة، وهو في مكان واسع جداً مسور محصن، تدخل الحافلات والسيارات الأخرى من بوابة فيه، فنزل منها الركاب معهم جوازات السفر، يعلنون ما يكون معهم من عملة أو أي شيء آخر يحتاج عندهم إلى رسوم، ثم يعودون إلى سيارتهم فتدخل مع ممر مسقوف فيه مكاتب عديدة تفتش السيارات والركاب، وهو مغلق لا يفتح إلا بعد أن تستكمل السيارة إجراءات التفتيش، وتحصيل الرسوم.

وكان كل من دفع جوازه إلى المكتب الأول الذي عنده بنك يغير النقود، دفع لموظفة هناك مبلغاً من المال، ولكنهم لم يطلبوا منا شيئاً، لكوننا دبلوماسيين أجانب، فجوازاتنا ثلاثة، اثنان منها (دبلوماسيان)، وتبين أن المبلغ الذي يتقاضونه من الركاب هو رسوم المغادرة، ويعفى منها الدبلوماسيون.

لقد فوجئت بوجود جمرك الحدود على بعد خمسة كيلو مترات من

المدينة، على حين أنني عرفت من قبل أن الحدود على بعد ٢٠ كيلو متراً، ولم يفسر أحد لنا ذلك، فالذين معنا لا يعرفون الإنكليزية، ولا يعرفون من التركية شيئاً، وحتى بقية المسافرين على الحافلات الأخرى الذين اختلطنا بهم في مكان الجمرك، بعضهم من السياح الأجانب، وبعضهم من مواطني جورجيا الذين لا يعرفون غير لغتهم الوطنية إلا الروسية.

وكانت جوازاتنا موضع استغراب ممن رآها منهم، فهي سياسية سعودية، وقلّ أن يمر بهم سعودي يحمل جواز سفر سياسياً، لذلك كان بعض الموظفين، وكلهم عليهم لباس عسكري، يرونها الآخرين، وإذا رآها الشخص جاء إلينا ليرى أصحاب هذه الجوازات، وبخاصة أن صورنا فيها عليها الملابس العربية، ونحن الآن بالملابس العالمية المعروفة في بلادنا بالملابس الإفرنجية.

الرشوة العلنية:

أبطأوا علينا وهم ينتشون، ويدخلون من يريدون تنتيشه إلى داخل المكتب فلا نراه، إلا نحن فكانت معاملتهم لنا جيدة، ولم يأخذوا منا شيئاً من المال، ولم يطلبوه.

وأخيراً سمعنا امرأة تبكي بكاءً عالياً، ما لبث أن تحول إلى عويل، ثم ظهرت الباكية، فإذا هي إحدى الراكبات، وهي جورجية غير مسلمة في حدود الأربعين من عمرها، وأخبرونا أن سبب بكائها أنهم طلبوا منها رسم المغادرة ثلاثين دولاراً أمريكياً، ولم يكن معها إلا عشرون دولاراً أعطتهم إياها، وصارت تبكي لأنها لا تملك الدولارات العشرة الباقية.

ولم يتأثر لبكائها أحد، ثم جاء الضابط الكبير ومعه ثلاثة أصغر

منه رتبة، وطلب من سائق الحافلة أن يعطيه نقوداً وهو يتكلم بلغته، فأعطاه خمسة دولارات فرفضها بخشونة استقلالاً لها، فقال السائق - وقد ذكر لنا ذلك بنفسه باللغة التركية -: إنه لا توجد معه إلا هذه الدولارات الخمسة، أما أجرة الركاب فهي لصاحب الحافلة.

فقال الضابط له ونحن نسمع: إذا لم تعطونا نقوداً لم نسمح لكم بالمغادرة، وهنا جاء السائق إلى الركاب يتوسل إليهم أن يعطوه ما يستطيعون ليدفعه رشوة للضابط الذي كان لا يزال واقفاً على الأرض، ونحن الركاب في الحافلة، فجمع منا مبلغاً من النقود أخذها الضابط مع الدولارات الخمسة.

وحدثنا السائق بالتركية بأن الضابط إذا لم يأخذ هذه النقود لم يسمح للحافلة بالتحرك، لأنه المسؤول والذين معه هم شركاء له.

وقال السائق: هذه (جورجيستان) ليست تركيا ولا السعودية، فيها قوانين تمنع الناس من أخذ النقود، إلا إذا كانت بحق، هنا لا قانون، إما أن تعطيهم ما يطلبون، أو تتعطل عن السفر.

والغريب أنه يطلب النقود من الركاب ويقول: هي رشوة للضابط، ولا أحد ينكر عليه، وكلهم دفعوا قليلاً قليلاً، إلا امرأة روسية قالت: أنا لا أدفع لهم، ويظهر من حالها أنها لا تستطيع أيضا مثل الجورجية التي تبكي، وظلت كذلك.

وقال مساعد السائق: إن القانون هنا هو الشرطي، يفعل بك ما يريد من دون الرجوع إلى القانون، وإلا فنحن بقينا يوماً كاملاً مع الحافلة، ولم نحصل إلا أثني عشر راكباً، فكيف يطلبون منا أن ندفع ؟ لقد أخبرناهم

بذلك ولكنهم لا يبالون.

هذا وقد استغرق بقاؤنا في الجمرك ساعة ونصفاً، إذْ لم تخرج منه سيارتنا إلا في الثامنة والنصف، وكنا ظننا أنه مركز الحدود، وأننا انتهينا من الإجراءات، لا سيما أنه مضت على ركوبنا الحافلة أربع ساعات وربع.

خرجت الحافلة من مبنى الجمرك، وركب معها ضابط من الضباط، وأنا لا أزال أظن أننا خرجنا بالفعل من جورجيا، ولكن تبين أن الذي بقي هو أشده كما في المثل، ولكن الحافلة سارت معها هذا الضابط الجورجي، ومررنا بنهر شوروكي مع جسر فوقه، ولم يتغير شيء من طبيعة البلاد حتى البقر السائب في المزارع، وفي الطريق هو موجود مثلما هو موجود في الأجزاء الأخرى من أجاريا.

ثم صار الطريق يسير بحذاء ساحل البحر بينه وبين جبال خضر عالية لا يكاد يتسع المكان لغير الطريق، والبحر هو البحر الأسود، والجبل يكاد يكون أسود لفرط الخضرة، مثلما سمى أسلافنا العرب أرض العراق بأرض السواد، وذلك لاخضرارها بالزراعة.

ورأينا على البعد مسجداً أبيض ناصع البياض، ذا منارة تركية دقيقة سامقة، وقبة مهيبة، فعرفت أنه في أرض تركيا، وتمنيت لو استطعت تصويره، ولكن أنى لي ذلك والحافلة تسير والجبل يضايق الطريق حتى يكاد يبتلعه حين يلتصق بالبحر، وشاطئ البحر هنا جبلي متعرج.

على حدود تركيا:

وصلنا مركز الحدود الجورجية، فدخلت حافلتنا مع بوابة حديدية فيه ما لبثت بعد أن دخلت أن أغلقت خلفها، إذْ عندها جنود يفعلون ذلك، ونزل الضابط الذي كان ركب معنا من مركز الجمرك، وقد سرنا منذ أن غادرناها اثني عشر كيلو متراً.

وتعجب أشد العجب من أن يكون مركز الجمرك بعيداً عن الحدود تفصل بينها مزارع مأهولة، ونهر ومساحة واسعة، مما يضطرهم إلى إرسال ضابط من ضباط الجمرك أو الشرطة مع كل سيارة أو حافلة تغادر مركز الجمرك إلى الحدود، ولم يجعلوا مركز الجمرك عند مركز الحدود كما يفعل بقية الناس؟

لا شك في أن هذا أمر مستوحى من الإدارة الشيوعية السابقة التي تفترض الأسوأ في كل شيء يتعلق بالأمن أو السياسة، فيريدون أن يجعلوا مجالاً لرجال الجمارك لا يسمح لمن يمر بهم أن يتهرب، ولكن ما العمل إذا ذهب لهذه القرى التي بينه وبين مركز الحدود؟ أو سار مع النهر؟ إن ذلك لا شك يحتاج إلى مراقبة واسعة.

هذا وقد استغرق سير الحافلة ربع ساعة إلى مركز الحدود.

وجدنا في المركز عدة حافلات واقفة قبلنا، وكان النور لا يزال غامراً، لأن الشمس لم تغرب بعد وأنا أمني نفسي أن أدخل الأراضي التركية في النور، وأن أصور هذا المسجد الأبيض الذي يؤنس مرآه النفس، ويسر الفؤاد، وإذا به قد بقي علينا أن نمر بالجوازات الجورجية، والذين رأوا جوازاتنا في الجمرك كانت وظيفتهم جباية رسوم المغادرة، وليس

الختم على الجوازات بالمغادرة.



مركز الحدود الجورجي مع تركيا

انتظرت الحافلات انتظاراً مملاً وهي لا تتحرك من أماكنها ونحن وسطها، ولا مجال حتى للحركة لأن المكان ضيق، إذ الجبل يضايق البحر، والمركزان الجورجي وبعده التركي لاصقان بالجبل من جهة، وبالبحر من جهة أخرى، بحيث لا يمكن من يريد التسرب من يمينهما أو يسارهما أن يفعل.

وأكثر الحافلات تظل محركاتها تعمل، لأنها تعمل بالديزل، فتنتشر الرائحة الكريهة التي تلوث الهواء.

ولاحظت كثرة ضباط الشرطة الجورجية وجنودها في مركز الحدود هذا، بحيث يبلغ عددهم العشرات، ومع ذلك كانوا يبطئون بطأً مضنياً.

هذا وقد طال وقوفنا عند البوابة، ولا أحد يخبرنا عن السبب، وعندما ألححنا على سائق الحافلة ليخبرنا عن السبب أجاب أنه (الكنترول)، هكذا قال باللفظ.

وقد مضت علينا منذ أن دخلنا الحافلة في موقف في باطومي خمس ساعات وربع من دون أن نخرج من الحدود الجورجية التي لا تبعد إلا عشرين كيلو متراً عن المدينة.

المرأة الباكية:

كانت المرأة التي سمعنا بكاءها وعويلها، وهي إحدى الراكبات معنا قد توقفت عن البكاء أثناء سير الحافلة، غير أنها انفجرت الآن بالبكاء ثانية، والسبب أنهم أخبروها أنهم لن يسمحوا لها بالمغادرة إلا بعد أن تدفع بقية رسم المغادرة الذي يؤخذ من الجورجيين، وهو عشرة دولارات، فأخذتنا النخوة وقلنا للضباط: نحن ندفع لكم الدولارات العشرة تبرعاً منا رحمة بحالها.

وقد دفعناها للضابط أمام السائق ومعاونه وبقية الركاب، مما جعل سائقنا وهو تركي مسلم يقول: هذا هو الإسلام، انظروا كيف رحموها لأنهم مسلمون رحماء، وقال للمرأة: إنهم مسلمون ولذلك حلوا لك المشكلة.

ولما كرر عليها ذلك قالت له بتركية رديئة: نعم، إنهم مسلمون حقيقيون، وليسوا مثلك مسلماً باللسان.

هكذا قالت هذه الجورجية الكافرة، وقد عرفت مثلما عرف الجميع أننا سعوديون من مكة المكرمة، وقد أكبر الجميع عملنا هذا،

وصارت المرأة تتمتم بالشكر والثناء، هذا مع العلم بأننا لا نعرفها ولا نعرف من أمرها شيئاً، إلا أننا عرفنا صدق قولها في عدم قدرتها على دفع المبلغ من بكائها الموجع الذي يشبه بكاء الثكلى!.

الحبس عند الحدود:

غربت الشمس في العاشرة إلا عشر دقائق، وأظلم الجو فلم أستطع الكتابة داخل الحافلة.

وقد استمر وقوفنا حتى العاشرة والثلث، وتذكرت أن هذه الحدود كانت حدود الاتحاد السوفيتي مع تركيا، ولا أدري أكانت مغلقة أم مفتوحة في زمن الحكم السوفيتي الشيوعي.

وفي الساعة العاشرة والنصف سارت سيارتنا إلى قرب بوابة الحدود التي يخرج منها إلى تركيا، وهي بوابة حديدية عليها جنديان، كل واحد منهما شاهر سلاحه، وجاء إلى سيارتنا جندي ثالث شاهر سلاحه أيضاً، فأشار بجفاء إلى الركاب أن ينزل واحد منهم، فنزل واحد ووقف عند نافذة تطل من الجدار على مكتب للجوازات داخل غرفة، ثم تابعه الجندي عندما فرغ حتى خرج من البوابة فأغلقها خلفه.

وطلب أن ينزل راكب آخر، فنزل رفيقنا في السفر الأستاذ حسن إزميرلي، ولما فرغ من الجوازات وقف داخل البوابة ينتظرنا ليدخل معنا إلى الحدود التركية، فنهره الجندي وأمره بالخروج من البوابة والدخول إلى الحدود التركية، وألا يبقى ولا دقيقة بعد ختم جوازه.

ثم نزلت أنا ورفيقنا الثاني الأستاذ رحمة الله بن عناية الله فمنعني

الجندي من النزول من السيارة قائلاً: لا ينزل إلا واحد، فلم أستطع أن أمنع نفسي ونزلت رغماً عنه ورغم منعه، لأنني لم أرض بهذا الامتهان للإنسان، وبأن يعامل جندي ركاباً عابرين، وبخاصة أننا نحن من (الدبلوماسيين) تمنع جوازاتنا هذه المعاملة الفظة.

فتكلم بكلمة سب فيها كلمة (دبلوماتك)، ولا أدري معناها، إلا أننا توجهنا معاً إلى مكتب الجوازات، ووقف أحدنا خلف الآخر حتى ختمت ضابطة مكتب الجوازات جوازه، وكانت تبطئ في العمل، ورأيتها تسجل جميع ما في الجوازات في سجل كبير بيدها، ولا يوجد عندها جهاز للحاسب الآلي، ولا غيره من الأدوات الحديثة.

والغريب أنها سألتنا قائلة: أنتم من العرب؟ مع أنها ترى جوازاتنا وأننا من العرب السعوديين.

داخل حدود تركيا:

تنفست الصعداء ودخلت الحدود التركية ماشياً على قدمي، فأغلق الجندي البوابة دون رفيقي الأستاذ رحمة الله بن عناية الله حتى ينتهي ختم جوازه، وكان المطر ينزل خفيفاً، وحافلتنا خلفنا فيها أمتعتنا إذْ لم نستطع الرجوع إليها بعد الفراغ من مكتب الجوازات.

كان الظلام هو المسيطر على الجهة التركية من الحدود، لأن مبنى الجوازات بعيد نوعاً تنعكس أنواره على مناقع المياه التي سببها المطر، فتزيد السائر إرباكاً بدلاً من أن تزيل عنه الشعور بالظلام.

وصلنا المبنى في الحدود التركية، ولم ندر أين مكتب الجوازات إلا

بعد السؤال، وهنا كان رفيقي رحمة الله قد لحق بي فأخذ جوازي، وذهبت أبحث عن حمام، لأننا في كل هذه المدة الطويلة كنا في السيارة، ولم أهتد إليه إلا بعد عناء، عدت بعده إلى ضابط الجوازات التركي فوجدت الركاب مجتمعين عليه كما يجتمع المشترون على البائع، ولكن كانت معاملته جيدة، فختم جوازاتنا من دون أن ينظر إلينا .

ثم رجعنا ننتظر الحافلة التي وصلت بعد دقائق، لأنها ظلت تنتظر بقية الركاب، ولم نستغرق إلا دقائق عند مكتب الجوازات التركي، فصعد إليها ضابط جمرك تركي، وعندما رآنا عرف أننا عرب، فقال بلغة عربية سليمة: أهلاً وسهلاً، هذه بلادكم، وكل واحد في مكانه، ثم نظر في أمتعة الركاب، ونزل دون أن يمس شيئاً، أو يأمر بفتح حقيبة أو غيرها.

فسارت الحافلة بعد أن استغرقت الإجراءات كلها من جوازات وجمرك انتظار نحو نصف ساعة، وقد بلغت الساعة الحادية عشرة والثلث، وحسبت المدة التي قضيناها في اجتياز الكيلو مترات التي لا تتجاوز العشرين داخل جورجيا، فإذا بها سبع ساعات وعشرون دقيقة.

سارت الحافلة داخل الأراضي التركية في ظلام دامس، لا يبصر المرء منه شيئاً، وقد خاب أملي في أن أرى الأراضي التركية الشمالية هذه في النهار.

والشيء الذي لم أتوقعه أن الطريق في أراضي تركيا لا يقل سوءاً عن الطريق في أراضي جورجيا، فهو قد تكسر وذهب الزفت من أكثر أجزائه، وصارت فيه حفر ونقر مؤذية للراكب وللسيارة، وظننت أن ذلك لمسافة قصيرة، ولكنه استمر لفترة أطول، ثم حسنت حاله بعد ذلك، فصار سمحاً سلساً، إلا أنه ضيق.

ووقفت الحافلة عند مطعم تركي جيد، يقدم أطعمة سريعة، ولكنها منوعة، فأخذنا أرزاً ولحماً وتعشينا، فأستأنف الحافلة السير.

في مدينة طرابزون:

استمر سير الحافلة في هذا الظلام الدامس، وطال حتى أنني شككت فيما قاله لي الجورجيون من أن المسافة بين باطومي وطرابزون هي(٢٠٠) كيلو متر، فسألت السائق في ذلك فقال: إنها مائتان، وإن علامات الطريق توضح ذلك، ولم أكن أبصرتها لشدة الظلام.

وفي الساعة الثالثة بعد منتصف الليل كانت الحافلة تقف في محطة للحافلات في مدينة طرابزون، وقد استغرق سفرنا من باطومي إليها إحدى عشرة ساعة متعبة، قطعنا فيها مائتي كيلو متر فقط.

وكان همنا أن نجد سيارة أجرة تنقلنا إلى فندق قريب، لأنه يصعب علينا حمل حقائبنا، ولكن الفرج كان قريباً، فقد رأينا عدة فنادق ملاصقة للمحطة، اعتذر أحسنها مظهراً بأنه ليست لديه غرفة خالية، فنزلنا في فندق بجانبه ربما كان مستواه مستوى ذوات النجمتين من الفنادق، ولكننا سوف نسافر في الصباح إلى إسطنبول، فسألنا رجلاً في الفندق لم نجد غيره في هذه الساعة المتأخرة من الليل، فذكر لنا أن أول طائرة تسافر إلى إسطنبول تغادر في السادسة صباحاً، وإن توقيت طرابزون مثل توقيت إسطنبول يتأخر ساعة عن توقيت جورجيا، فشعرنا بأننا كسبنا ساعة ثمينة، وطلبنا منه أن يوقظنا في الرابعة والنصف، وأن يطلب لنا سيارة أجرة في ذلك الوقت توصلنا إلى المطار، وأخلدنا في غرفنا لنوم سريع استمر من الثانية بعد منتصف الليل بتوقيت تركيا حتى الرابعة

والنصف.

قول في طرابزون:

ذكر أسلافنا من المؤرخين والبلدانيين العرب (طرازبرون) قبل أن تصبح مدينة مسلمة، وذلك على سبيل الإجمال، وسموها (طرابزندة)، و(أطرابزوني)، كما قال الشريف الإدريسي في نزهة المشتاق بعد أن ذكر مدينة تسمى (خرسندة):

ومنها إلى مدينة أطرابزوني مائة ميل وثلاثون ميلاً، واسمها أيضاً في الدفاتر أطرابزندة، وهي على ضفة البحر الملح، مدينة حسنة، وكانت في أيام الخلائف وبعدها متجراً للروم والإسلام ومقصداً، وأهلها تجار مياسير، ومسافة ما بينها وبين القسطنطينية تسعة مجار ونصف مجرى.

وقبل الإدريسي قال ابن حوقل في كتابة ((صورة الأرض)): ولهم مدخل أي للأرمن أو أهل أرمينية إلى بلد الروم، يُعرف باطرابزنده، وهي مدينة يجتمع قيها التجار من بلد الإسلام، فيدخلون منها إلى بلد الروم للتجارة، ويخرجون بها ويخرج إليها لسان من خليج القسطنطينية المار إلى البحر المحيط، ولمتملّك الروم على صاحبه المقيم باطرابزنده في وقتنا هذا مال جسيم، وضمان عظيم كان في الوقت الأول دونه بكثير، وقد تقدم ذكر ذلك في أضعاف ذكر بلد الروم، وأكثر ما يخرج إلى الإسلام، وبلده من الديباج والبزيون وثياب الكتان الرومي وثياب الصوف والأكسية الرومية من اطرابزنده.

يوم الأحد ٢٥/٢/١٤١٦هـ ٢٣/٧/١٩٩٥م

إلى إسطنبول:

كنت أمني النفس برؤية مدينة طرابزون والتجول فيها لمدة يوم واحد، لأنها في هذا الركن القصي من حدود تركيا، ولكونها مدينة قديمة مذكورة في كتبنا القديمة منذ ألف عام، فقد ذكرها أبو الريحان البيروني فيما نقله عنه ياقوت الرومي بلفظ (طرابزندة)، وأعظم من شأنها في كونه نسب ما يليها من البحر الأسود إليها، فسماه (بحر طرابزنده)، وهو البحر الذي سنطير مسافة تقرب من ألف كيلو متر من مدينة طرابزون على ضفافه الشرقية إلى مدينة إسطنبول التي تقع في جنوبه الغربي.

أيقظنا صاحب الفندق في الرابعة والنصف، فصلينا الفجر على عجل، ولم نكن فتحنا حقائبنا، لذلك أسرعنا بالذهاب مع سيارة أجرة إلى مطار طرابزون في الخامسة إلا الربع، وكان الظلام لا يزال هو المسيطر عندما سرنا في شوارعها إلى المطار، ولكن آنس وحشتنا فيها منائر المساجد الشامخة المطلية باللون الأبيض الناصع الذي يرمز إلى الطهر والنقاء.

وحتى المطار وجدنا فيه غرفة مخصصة للصلاة، مكتوباً عليها كلمة (مسجد)، وهذا أمر مفرح، ولكن الفرح زاد عندما رأينا ركاب الطائرة والمودعين، وفيهم نسبة كبيرة من النساء، أغلبهن إن لم يكن كلهن يلبسن لباساً محتشماً، بعضه أشبه بلباس النساء عندنا، لولا أنهن يظهرن منه الوجه والكفين، فاللباس طويل، وعلى الرأس مناديل كما تفعل المتدينات السوريات.

ولكوننا قدمنا مباشرة من مطارات الاتحاد السوفيتي السابق، فإننا استطعنا أن نقارن بين حالتها وحالة هذا المطار التركي، فوجدنا الفرق كبيراً في عدة أمور، أولها: ما ذكرته من تستر النساء، ولبس الثياب السابغة. وثانيها: كثرة الركاب وكثرة الأمتعة معهم من حقائب وأمتعة أخرى مما لا يوجد مثيله في مطارات روسيا. وثالثها: أن المطار، والمراد به الساحة التي فيها مكاتب الترحيل، فيه مقاعد كثيرة مريحة، قد جلس فيها المسافرون المنتظرون والمودعون، وذلك لا يوجد في مطارات روسيا التي ركبنا منها، أو نزلنا فيها في هذه السفرة.

أسرعنا إلى مكتب الترحيل، فقال الموظف بلغته التركية التي يحسنها زميلنا الأستاذ رحمة الله بن عناية الله: إن الطائرة مليئة، ولذلك لا بد من أن تنتظروا حتى آخر لحظة، ونخبركم فيما إذا وجدت بها مقاعد شاغرة، وبعد أن انتهى الركاب كلهم أركبونا بأن قطعوا تذاكرنا، ولم يطلبوا زيادة على وزن الأمتعة التي كانت المطارات الروسية تحسب عليها وزناً زائداً، مع أنه لا يكاد يذكر، إذْ يتراوح بين ١٢ كيلو غراماً وه كيلات لركاب ثلاثة.

ركبنا مع طائرة تابعة للخطوط التركية من طراز بونيغ ٧٣٧، وأعلنت المضيفة والطائرة تدرج في المطار أن المسافة إلى إسطنبول هي ٩٧٥كيلو متراً.

لقد ركبنا بالدرجة السياحية، لأن الطائرة ليست فيها درجة أولى، ولكنها نظيفة جيدة الأثاث في جو مريح بالنسبة إلى الطائرات الروسية السيئة التي يجعلونك تحمل أمتعتك بيدك إلى الطائرة، وتنزلها منها.

ومن أهم ما لقيته من الراحة فيها أنني استطعت أن أجد مكاناً

لحقيبتي اليدوية تحت المقعد الذي أمامي، وليس الأمر كما هو في روسيا، حيث لا يبالون بذلك، فيجعلون المقاعد متقاربة، وإذا لم تكن كذلك لم تجد مكاناً لحقيبتك، لأنهم لا يلقون بالاً لراحة الركب.

وفي السابعة إلا ثلثاً كانت الطائرة تغادر مطار طرابزون التي كان أسلافنا يسمونها طرابزنده، وذلك في مدرج المطار الذي كان ضيقاً محصوراً بين البحر والتلال، ونهضت محلقة فوق مدينة طرابزون، لأن المطار قريب منها، فبدت المدينة من الطائرة كبيرة متسعة خضراء، إلا أن خضرتها أقل من خضرة باطومي، وكانت تسبح في ضباب ندي، وما لبثت الطائرة أن ارتفعت فوق سحاب كثيف حجب عنا رؤية الأرض تحتنا، فصارت تطير بين طبقتين متباعدتين من السحاب، ثم ارتفعت إلى أعلى حيث صارت في جو صاح، تنعكس أشعة الشمس فيه على ظهور السحاب، فيؤلف لوناً فريداً في المنظر، ومع كثرة ركوبي للطائرات في جميع أنحاء العالم وقاراته، فإنني رأيت اليوم منظراً أعجبني، لأنني لم ألحظ نظيره من قبل، إلا إذا كنت أنسيته، ذلك أنني رأيت ظل الغيم الأعلى منعكساً على ظهور الغيم الأسفل، كما ينعكس على وجه الأرض.

وقدمت المضيفات التركيات اللائي كانت ضيافتهن معتادة بالنسبة إلى أمثالهن في الطائرات العالمية الحرة، ولكننا رأيناها ضيافة متميزة بحسن المعاملة، والذوق، ومجاملة الركاب، وذلك بالنسبة لما كنا ألفناه في مطارات روسيا الاتحادية.

ولأول مرة منذ أن حللنا روسيا لم نسأل عن الطعام أهو حلال، لأننا متيقنون أنهم لا يضعون الخنزير، وأن الذبح حلال، مع أن الطعام هو طعام

الإفطار، ولكنني ذكرت حالتنا البارحة عندما لم نسأل عن اللحم في المطعم التركي الذي دخلناه في أثناء قدومنا من باطومي إلى طرابزون.

وقد قدموا الطعام في علبة من اللدائن بيضاء ناصعة البياض، وهو من الخبز والجبن والكعك اللين (الكيك)، وكل ذلك موضوع وفق ذوق رفيع، مع المناديل الورقية المعطرة والسكر، ثم جاءوا بالقهوة وعصير البرتقال.

واسم شركتهم بالتركية: تورك هوايي لاري. فتورك: التركي، وهوايي هي العربية منسوبة إلى الهواء بمعنى الجو، ولاري: طرق، ومعناها: الطرق الجوية التركية.

واستعمال (هواء) بدلاً من الجو موجود أيضاً في خطوط إيران، وأفغانستان، وقد استعملوا (هواء) هنا بدلاً من الجو، وكلتاهما عربية، لأن الهواء هو الفراغ الذي بين الأرض والسماء، والجو: ما علاك، وكلتاهما فصيحة كما ترى، ولكن استعمال (جو) هو أفصح، لأنه تعبير قرآني، قال الله تعالى: ﴿ أَلَمْ يَرَوْاْ إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ فِي جَوِّ السَّمَاء مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلاَّ اللّهُ ﴾ [سورة النحل، الآية ٧٩].

وفي جيب المقعد مجلة الخطوط، وبطاقة الطوارئ عليها رسم الطيارة، وكيس القيء.

ومن الأشياء النافعة في هذه الرحلة أن التدخين والخمر ممنوعان.

في مطار إسطنبول:

هبطت الطائرة في مطار إسطنبول في الثامنة إلا عشر دقائق، بعد طيران استغرق ساعة وعشر دقائق، كان المنظر من الطائرة وهي تقبل مسرعة على مطار إسطنبول منظر اقتراب الالتقاء بين قارتي أسيا وأوروبا، ولكنه منظر لم نأبه له هذه المرة، لأننا رأينا حدود أوروبا وأسيا، وهي نهر أورال في مدينتي أورنبورغ وأورسك، وقد ذكرت ذلك في كتاب «إقليم أرنبورغ» من الرحلات في الأقاليم الجنوبية من جمهورية روسيا.

ولكن الشيء الذي استرعى انتباهنا، وملأ نفوسنا بهجة وسروراً هو منظر المآذن الشاهقة الرشيقة التي تجاور قباب المساجد، فقد كنت أنظر إلى أربعة مساجد في آن واحد قبل أن تهبط الطائرة، وكلها في ضواحٍ من ضواحي إسطنبول.

وعندما نزلت الطائرة شعرنا بالارتياح لوجود عربات اليد بكثرة في المطار، بعد أن كنا لا نجد واحدة منها في مطارات روسيا الإقليمية، وأما في مطار موسكو فإنها مربوطة برباط لا يحل إلا إذا دفعت دولارين اثنين للعربة الواحدة، من أجل أن تحمل عليها أمتعتك إلى بوابة الخروج القريبة.

كنا نزلنا في المطار الرئيسي، ويسمونه مطار أتاتورك، وأتاتورك هو مصطفى كمال، ومعنى أتاتورك: أبو الترك.

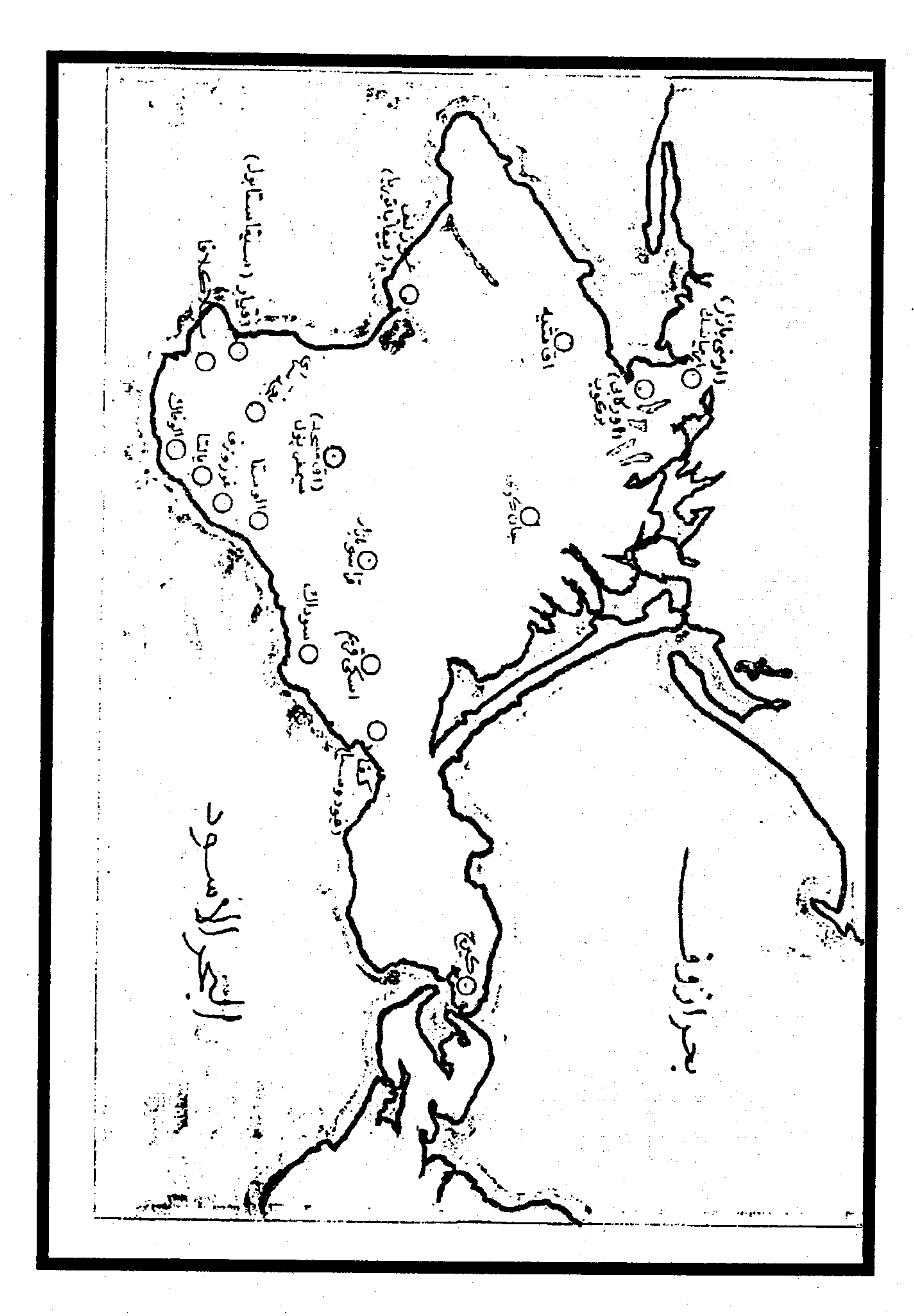
ولذلك ركبنا سيارة أجرة إلى المدينة على أن يمر بنا مطار (تأسيس) المجاور، وهو مكان صغير خصصوه للطائرات الأجنبية التي تذهب إلى روسيا وأوكرانيا، أو تقدم منها.

عندما وصلنا للمطار وجدناهم كتبوا على لوحة المطار بأن لديهم

رحلة إلى القرم في الثانية عشرة، وكانت هذه رحلة مناسبة لنا، فنحن لا نريد أن نبقى في إسطنبول، وإنما جئنا إليها لنسافر منها إلى القرم.

وقد أنزلنا أمتعتنا، وصرفنا السائق، غير أنه عندما دنا موعد الطائرة أخبرونا أنه لا توجد رحلة إلى القرم اليوم، وأنهم كتبوا هذه على لوحة غلطاً، ومع ذلك لم يغيروها عندما راجعناهم، وأن أول رحلة تسافر من هنا إلى القرم تقوم قبل ظهر غدٍ، فانتقلنا إلى فندق اعتدنا النزول فيه في إسطنبول، وكانت إجازة وراحة بعد الأيام الماضية الحافلة بالحركة والانتقال، إلا أنها إجازة رغماً عنا، إذْ كنا نحب أن نوفر الوقت، وتذهب من جورجيا إلى القرم.


إلى بلاد القِرم



بلاد القرم

كانت بلاد القرم من مواطن المسلمين الأصيلة النشطة في الدعوة إلى الله، حتى نسب إسلام عدد كبير من أهل القوقاز، وبخاصة من الشركس والشيشان إلى جهود أهالي القرم، وكانت فيها ممالك إسلامية قوية، كانت تملك أراضي وممتلكات خارج القرم، ويسمونها خانيات جمع خانية، المنسوبة إلى خان، وهو الملك باللغة التركية.

وقد غزاها الروس فيما غزوه من بلاد المسلمين فاحتلوها، ومزقوا أوصال ممالكها، وأسقطوا تلك المملكة الإسلامية فيها، ثم حاربوا الثقافة الإسلامية بما أدخلوا إليها من دعايات صليبية، وسهلوا لأناس من دعاة الضلال الإقامة فيها، ولكن ذلك لم يؤثر الأثر الكبير على حالة الإسلام فيها، ثم كانت الطامة الكبرى حين جاءت الشيوعية إلى روسيا، ومنها إلى مستعمراتها التي أسمتها ممتلكاتها، ومنها بلاد القرم، فحاربت الأديان، وعلى رأسها الدين الإسلامي الذي كان الروس يعتبرونه غريباً عنهم، وصادرت المساجد، وعطلت الدراسة الدينية، وحاربت الثقافة العربية.

وإقليم القرم يتبع جمهورية أوكرانيا التي استقلت عن الاتحاد السوفيتي، وكان قبل ذلك ملحقاً بجمهورية روسيا الاتحادية.

وتبلغ مساحته ٢٦،٤٥٠ كيلو متراً مربعاً، وعدد سكانه ٢,٦١,٠٤٥.

ولن أتكلم على بقية أحوال القرم، لأنني سبق أن كتبت عنها كتاباً مستقلاً عندما زرتها قبل سنتين بعنوان ((على مسرح المأساة: بلاد القرم)) طبعته دار القبلة في جدة، وبإمكان من يريد التوسع في معرفة أحوال القرم أن يرجع إليه.

أما الآن فإنني لن أذكر إلا المشاهدات في هذه الزيارة العجلى، وقد حملني على إلحاقه بهذا الكتاب: ((بلاد العربية الضائعة)) أن القرم كان لا يعرف في كتاباته وأدوات ثقافته إلا اللغة العربية، وقد ضاع ذلك كله الآن.

وقد ذكر المفتي السابق للقرم الشيخ سيد جليل إبراهيم أن أهل القرم كانوا يستعملون اللغة العربية حرفاً وكتابة في جميع مكاتباتهم سابقاً، ولكن ذلك كله ذهب وتلاشى مع ذهاب الثقافة الإسلامية، ونفي سكان القرم عن بلادهم في عهد ستالين.

كان عدد المساجد في القرم يبلغ ١٧١٠ مساجد، وتوجد إلى ذلك ٢٥ تكية تقام فيها الصلاة أيضاً.

ولكن مع الغزو الروسي للقرم تناقص عدد المساجد، حيث بلغ ١٥٥٦ مسجداً في عام ١٨٠٥م، وفي عام ١٩١٤ هبط عدد المساجد إلى ٧٢٩.

وأما في الحكم الشيوعي فقد صودرت كل المساجد، وحولت إلى مستودعات ومخازن ومساكن، فمثلاً مسجد الجمعة الذي بناه المهندس المعماري التركي الشهير (سنان) على نموذج جامع الفاتح في إسطنبول، وهو في مدينة (سيمفربول) قد حول إلى متحف.

وتجري الآن استعادة بعض المساجد، وقد تمت بالفعل استعادة خمسة مساجد، أما المدارس الإسلامية التي كان عددها ٢١ مدرسة في عام ١٧٨٣ فلا يوجد منها شيء، إلا مدرسة واحدة هي مدرسة زنجيرلي، وقد حولها الشيوعيون إلى مستشفى للأمراض العقلية.

يوم الإثنين ١٤١٦/٢/٢٦هـ ١٩٩٥/٧/٢٤م

من إسطنبول إلى سيمفربول:

غادرنا مطار (تاسيس) في إسطنبول قاصدين مدينة سيمفربول عاصمة إقليم القرم على طائرة مروحية ذات محركين، تابعة لشركة (إيرقرم) أي الطيران القرمي، ويبلغ عدد المقاعد في الطائرة ٤٤ مقعداً فقط.

وكانت المضايقات التي ألفناها في المطارات والطائرات الروسية داخل روسيا موجودة أول ذلك أن المقاعد غير مرقمة، مع كون الطائرة صغيرة يسهل ترقيم مقاعدها، فكان الركاب يتزاحمون عند الصعود إلى الطائرة، كل واحد يريد أن يصل إلى مقعد مناسب قبل الآخرين، وهذا أمر عرفناه من الطائرات الروسية داخل جمهورية روسيا.

أما الركاب فأغلبهم من الروس من سكان القرم، وفيهم نساء من التاجرات، أو لنقل المتاجرات بالبضائع القليلة التي منها الملابس والمصنوعات الصغيرة التي لا توجد في روسيا، أو توجد غالية وغير متقنة، وفيهم عدد قليل من الأتراك.

ومع صغر الطائرة فإنه كان لا يزال فيها عدد خالٍ من المقاعد، وقد أخذوا منا أجرة الركوب ١٥٠ دولاراً، وهذا كثير جداً بالنسبة إلى مستوى الطائرة، وإلى المسافة التي لم يذكروها فيما سمعناه منهم، ولكنني أظنها تكون ألفاً ومائة كيلو متر أو ما قارب ذلك، والطائرة كلها في مستوى الدرجة السياحية الرديئة.

والمضيفة فيها وحيدة كالعادة في الطائرات الروسية، لأنها لا عمل

لها هناك، حتى حزام المقعد لا يلاحظن ربطه، وأذكر أنني لم أربط حزام المقعد، فنظرت إليّ المضيفة ولم تطلب مني أن أربطه.

ثم أعلن المكبر شيئاً بالروسية وحدها لم نفهمه.

وكان قيامها في الحادية عشرة والنصف قبل الظهر، وطارت فوق جزء من مدينة إسطنبول الواسعة التي بدت ضواحيها أكبر منها، وأكثر اتساعاً، أي أن المدينة القديمة التي يصح أن تنعت بأنها مكومة تكويماً لضيق شوارعها، وعدم استقامتها هي ضيقة الرقعة بالنسبة إلى ضواحيها الواسعة الممتدة، سواء منها ما كان في القسم الأوربي وما كان في القارة الآسيوية.

وبعض الضواحي من وديان أو تلال، وقد أخبرونا أن سكان مدينة إسطنبول أصبحوا الآن يناهز عددهم ثمانية ملايين، ولا أدري أهذا إحصاء رسمي أم تقريبي.

ثم صارت تطير فوق البحر الأسود الذي كانت مياهه القريبة من الشاطئ تبدو خضراء، لأنها مياه ضحلة.

واستقام سير الطائرة في اتجاه القرم التي تقع إلى الشمال من إسطنبول، وسوف يكون طيرانها كله فوق البحر المسمى بالأسود، وذلك إلى أن تصل بلاد القرم.

وقد استمر المنظر رتيباً من الطائرة، لأنه منظر البحر الذي لا يتغير حتى وصلنا ساحل بلاد القرم، فخففت الطائرة من غلواء محركيها، وبدت أرض القرم أرضاً سهلة، أكثر ما فيها ظهوراً حقول القمح الحصيد، والخضرة فيها قليلة بالنسبة إلى إقليم أجاريا في جورجيا.

ولاحظت أن القرى تكون في وديان غير عميقة بين ربى متطامنة، ومررنا ببحيرات عديدة إلا أنها غير واسعة، وأكثر الطرق التي رأيناها من الطائرة ترابية لا زفت فيها.

وأمعنت الطائرة وهي تتدلى متدنية فوق أرض القرم، أرض الأمجاد الإسلامية التي فقدتها أولاً، ثم فقدت أهلها بعدها، فكأنها الآثار التي عناها المتنبي يقول:

أين الذي الهرمانِ من بنيانه	ما قومه؟ ما يومه؟ ما المصرع
تتخلف الآثار عن أربابها	حيناً فيدركها الفناء فتتبع

وبدا كما لو أن البلاد شهدت فصلاً جافاً، وبخاصة إذا قورنت ببلاد جورجيا، ولاح لنا خط إسفلتي مزدوج حسن المظهر، والظاهر أنه الخط الذي يصل ما بين سيمفربول العاصمة، وبين مدينة يالطة السياحية المشهورة، وقد ذكرت حديث ذلك الطريق وحديث مدينة يالطة في كتاب ((بلاد القرم)) الذي أشرت إليه من قبل.

واستمر المنظر في أغلبه منظر حقول القمح الحصيد، وأكوام التبن المتخلف من القمح حتى هبطت الطائرة في:

مطار سيمفربول:

وكان هبوطها في مطار سيمفربول في الواحدة والدقيقة الخامسة والثلاثين بعد طيران استغرق ساعتين وخمس دقائق.

وكان ما استرعى انتباهي أن الأعشاب التي تحيط بالمدراج هي صفراء جافة، مما يدل على بعد عهدها بالمطر.

وكانت المشكلة التي ستواجهنا أننا لا تحمل سمة دخول في جوازاتنا، ولكن قيل لنا كما قيل من قبل: إن سمة الدخول لأمثالنا من السياح يحصلون عليها من المطار، وكان آخر من قال ذلك خبير به هو المكتب السياحي للقرم في إسطنبول، لذلك كنا مطمئنين غير قلقين، وإن كان قال: إنه لابد لمن يحصل على (الفيزا) من المطار أن يدفع مائة وخمسين دولاراً، وهذا كثير.

دخلنا إلى مبنى المطار الذي لم يتغير منذ أن تركته قبل سنتين، وهو صغير جداً وضيق، وحتى أكثره من الخشب، بل هو حقير لا يليق ببلد يطمح إلى أن يحتل مرتبة سياحية ممتازة، ولا سيما أنه منضم إلى جمهورية أوكرانيا التي يتعدى سكانها الخمسين مليوناً، وتعد نفسها متقدمة في ميدان الأسلحة وما اتصل بها.

وقد وصلنا بسرعة إلى ضابط الجوازات، وذلك لكون الركاب معظمهم من الروس من سكان البلاد، أو من الموظفين الأوكرانيين، ومعروف أن الروس المهجرين إلى القرم يؤلفون الآن الأغلبية من بين سكانها، ورأى جوازاتنا سعودية اثنان منها (دبلوماسيان)، فلم يتكلم بشيء، وإنما ترك عمله وحمل الجوازات معه إلى مكتب داخلي، فحضرت معه ضابطة وثلاثة ضباط آخرون، وكلهم على كتفه نجمتان، حتى الضابطة التي هي على غاية من الجمال، وصار بعضهم ينظر إلى الجوازات تارة، وينظر إلينا تارة أخرى. ثم جاء ضابط كبير على كتفه ٤ نجمات، وهو رئيس الجميع، فأخذنا إلى ركن من المبنى الصغير بل الحقير للمطار، ليس فيه مقاعد، ولا حتى ما يستند إليه الواقف، وقد جلس إلى مكتب فيه ونحن وقوف، وصار يتأمل الأختام التي على الجوازات ويسأل عن

بعضها ، وقد وجد في جوازي أختاماً من أنحاء العالم ، من البرازيل إلى روسيا. ولكنه كان مثل غيره يعمل ببطء أو تباطأ حتى أوجسنا خيفة من ألا يسمح لنا بالدخول، وقد بقينا واقفين نحو ثلاثة أرباع الساعة ، أخذ أثناءها يقيد المعلومات التي في الجوازات وينقلها إلى أوراق عنده.

ثم غاب عنا لفترة ذهب فيها كل الركاب، ولم يبق في المطار أي شخص غيرنا ، إلا بعض الموظفين، ثم عاد إلينا يقول: لقد أعطينا الجوازين الدبلوماسيين (الفيزا) مجاناً ، أما الثالث وهو جواز معتاد ، فعليه أن يدفع ٧٥ دولاراً أمريكية.

فشكرنا له ذلك، وترك له أحدنا ما بقي من المائة دولار ، وهي خمسة وعشرون دولاراً ، وهذا مبلغ كبير بالنسبة إليهم.

ومررنا من الجمرك دون فتح الحقائب، وقد استغرق الحصول على سمة الدخول من المطار ساعة واحدة، وعند بوابة المطار اعترضنا أناس يعرضون (التاكسي)، فلم أرضهم، وإنما ذهبت للسيارة الأولى في الصف، فسألنا سائقها أن ينقلنا إلى (فندق موسكو) في العاصمة ، ويسمونه (أوتيل موسكوفا)، واتفقنا معه على أن تكون الأجرة عشرة دولارات أمريكية.

وكان أحد المعترضين قد طلب ٢٥ دولاراً فرفضناه.

وسار سائق السيارة بسيارته التي كانت في حالة متوسطة ، أقرب إلى الرديئة ، ولم يكن السائق يعرف أية لغة أخرى غير الروسية ، وهذه عادة لهم، إلا أنني سألته بلغة لاتينية عن المسافة إلى الفندق من المطار فأجاب بأنها ١٧ كيلو متراً.

وكنت اعتدت على أن أذكر بعض الكلمات اللاتينية ، أي التي

تستعمل الآن في اللغات ذات الأصل اللاتيني، مثل البرتغالية والإسبانية فيعرفها الروس في بعض الأحيان، وذلك لتأثر لغتهم باللغات اللاتينية. وكان السائق كهلاً يسوق سيارته بهدوء، وقد أعجبتني شوارع المدينة بالنسبة إلى شوارع أجاريا.

كنا نزلنا في فندق موسكو عندما زرنا القرم قبل سنتين، ولذلك كنا نعرف هذا الفندق الذي هو فندق روسي، وقد أسميت أمثاله بالفنادق الشيوعية، واكتسبت هذه التسمية مدلولاً خاصاً في ذهني، وذلك أن الفنادق في المدن الشيوعية فيما كان يسمى بالاتحاد السوفيتي تكاد تكون نسخة واحدة، لأنها فنادق حكومية، والحكومة هي وحدها التي يحق لها البناء دون سائر الناس، فتكون هذه الفنادق مؤلفة من عدة طوابق، كثيراً ما تصل إلى ٩، وتكون واسعة المساحة، كثيرة الغرف، إلا أن غرفا تكون ضيقة، في كل غرفة حمام، ولا بد من أبن يكون الحمام فيه خراب لم يصلح، وأن تبدو الغرفة كما لو كانت مؤقتة، لأن كثيراً من الأشياء فيها تصلح إصلاحاً مؤقتاً، مثل أسلاك الكهرباء الداخلية في الحيطان إذا خربت سلكوا أسلاكاً خارجية كالمؤقتة، ولا بد من أن تكون الخزانة لا تغلق بإحكام، وهي خزانة خشبية، ومثلها أرضية الغرفة الخشبية.

في مدينة سيمفربول:

جددت بها ونحن نتوجه إلى الفندق عهداً غير بعيد.

ودخلنا الفندق المعروف لنا، فوجدنا في مكتب الاستقبال عجوزين غليظتين ثقيلتين على عادة الروس في استخدام العجائز الثقيلات اللاتي لا

يعرفن من اللغات إلا اللغة الروسية، فقلت لها بالإشارة: إننا نريد ثلاث غرف، فلم تفهم حتى ساعدنا سائح أجنبي صادف وجوده هنا، فسألناهما عن الأجرة فقالتا: إنها ثلاثة ملايين ومائتا ألف، وكانت إحداهما كتبت لنا الرقم كتابة، وفزعنا من ذلك وقلنا: أتكون الغرفة الواحدة بأكثر من ثلاثة ملايين !.

وكنا في السفرة الأولى نشتري ٣٢٠٠ من عملتهم المؤقتة، ويسمونها (كوبونا) بدولار واحد، فسألناهم عما يساوي الدولار الواحد الآن من كوبوناتهم فأجابوا: ١٥٠ألفا.

وطلبنا من هذا السائح الذي سهل الله به علينا ما شدد به هؤلاء من لغتهم عن المبلغ الذي يساوي من الدولارات أجرة للغرفة الواحدة، فقال بعد جهد جهيد في إفهام الموظفة: إنه ٢١ دولاراً أمريكية !!! وعلى هذا يكون من يملك منهم ٧ دولارات أمريكية مليونيراً، لأنها تساوي أكثر من مليون من عملتهم، فتنفسنا الصعداء، ودفعنا ذلك بسرعة لئلا يرجعوا عنه.

وطلبوا منا أن ندفع إليهم أجرة يوم مقدمة، وأعطتنا الموظفة ورقة فيها بيان الغرفة واسم النزيل، فصعدنا إلى غرفنا في الطابق السادس، وهنا وجدنا مديرة الطابق، وهي عجوز روسية ثقيلة كالعادة، فتسلمت الأوراق وأعطتنا مفاتيح الغرف.

والعادة عندهم أن النزيل إذا خرج من غرفته سلم المفتاح لهذه المديرة، وأعادت إليه الورقة، ثم إذا عاد للغرفة أعطاها الورقة فأعطته المفتاح، وهكذا.

وهذا أمر جيد، لأنه يجعل مديرة الطابق، أو على الأدق المسؤولة عن الغرف في الطابق، مسؤولة عن كل ما يتعلق بالغرف، ولذلك يشعر النزيل في هذه الفنادق الروسية بالأمان لمجرد أن ينزل فيها.

ومن مهمات المديرة في الطابق أن تعرف كل من يأتي للطابق، وتسأله إذا كان مظهره لا يدعو للاطمئنان عما يريده منها.

صعدنا مع المصعد المعتاد الذي هو خشن، حتى إنه إذا طبق عليك باباه ضرك لشدة انطباقهما وهما من الخشب والحديد، وليس للمصاعد هنا ذاكرة، ومعنى ذلك أنك إذا دخلت المصعد وأنت تريد الطابق الثالث، ومعك شخص يريد الخامس مثلاً، فإنه لا يفيد فيه أن يضغط كل منهما على الزر الذي يريده، بل تضغط أنت على الثالث فيقف فيه المصعد، فيضغط من يريد الخامس مرة أخرى على الزر الذي عليه رقم (٥).

وجدنا الغرف كما عهدناها من قبل ضيقة، في كل غرفة جهاز ضخم للتلفزة، إلا أنه لا يعمل جيداً، إذْ الصورة فيه تكون مهزوزة، وسماعة كبيرة للموسيقى، وأهم ما فيها نافذة زجاجية عريضة تطل على الحديقة المعهودة التي تقع إلى الشرق من فندقنا، وتسمى حديقة الخوخ.

وبعد النافذة شرفة جيدة، إلا أنها غير نظيفة، بمعنى أن الخادمات اللاتي ينظفن الغرفة لا يتعاهدن الشرفة بالتنظيف.

وأجمل ما في الغرفة مكتب خشبي صغير يلي النافذة، يمكن الكتابة عليه والنزيل ينظر إلى هذه الحديقة أثناء الاستراحة من الكتابة.

مهمتنا في القرم:

يختلف عملنا في القرم عن عملنا في جورجيا لكوننا في جورجيا في زيارة استطلاعية لأحوال المسلمين، لأنها أول زيارة لي إلى هناك، أما في القرم فإنني سبق أن زرتها كما ذكرت قبل سنتين، واطلعت على أحوال المسلمين فيها، وعلى حاجاتهم للمساعدة. وعندما رجعنا للرابطة خصصنا مبلغاً من المال للمساعدة على المشروعات المذكورة، ونحن الآن واصلون إلى القرم للتباحث مع زعماء المسلمين في كيفية إنفاق هذا المبلغ، والاطلاع اطلاعاً مباشراً على المشروعات التي تنبغي مساعدتها، وقد أمرت مدير مكتب الرابطة في موسكو المهندس علي العمودي بالحضور من موسكو، ليكون معنا في القرم، حتى يعرف ما نقرره، ويشرف على تنفيذه، وقد وصل اليوم من موسكو قبيل وصولنا.

كما حضر إلينا المهندس ياسين السوداني من الإخوة العاملين هنا.

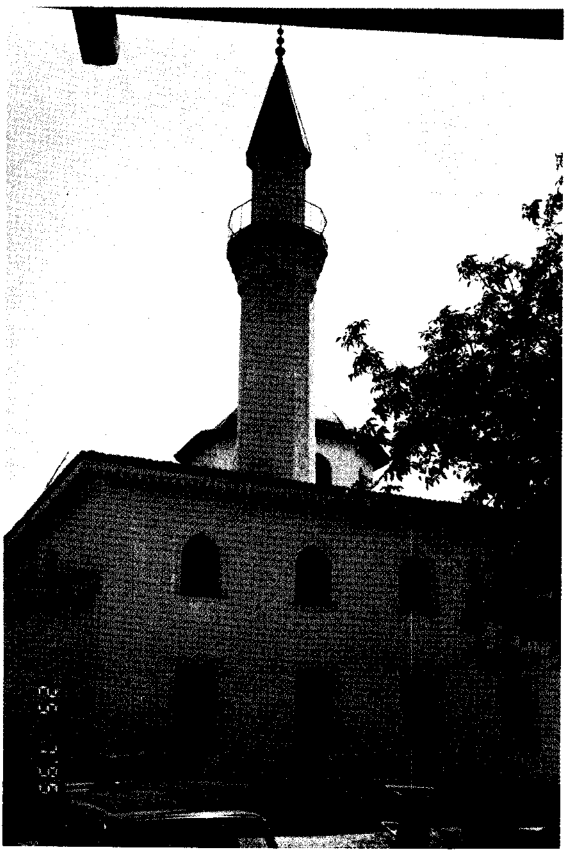
وكانت أولى التغيرات في القرم أن المفتي الشيخ سيد جليل بن إبراهيم قد اعتذر عن مواصلة العمل في الإفتاء، وأخبر أنه سوف يتفرغ للدراسة في أحد البلدان العربية ليستزيد من المعرفة بالعلوم الإسلامية، وقد انتخب المسلمون عوضاً عنه الشيخ (صبري بن لقمان)، وذلك منذ يوم السبت الماضي أي قبل يومين.

في الإدارة الدينية:

عقدنا في الساعة العاشرة اجتماعاً في الإدارة الدينية لإقليم القرم، حضره المفتي السابق الشيخ سيد جليل، والمفتي الحالي (صبري بن لقمان)، ونائب المفتي الشيخ أبو اليزيد، ومن جانبنا نحن وفد الرابطة، ومدير



مكتب الرابطة في موسكو المهندس علي العمودي.

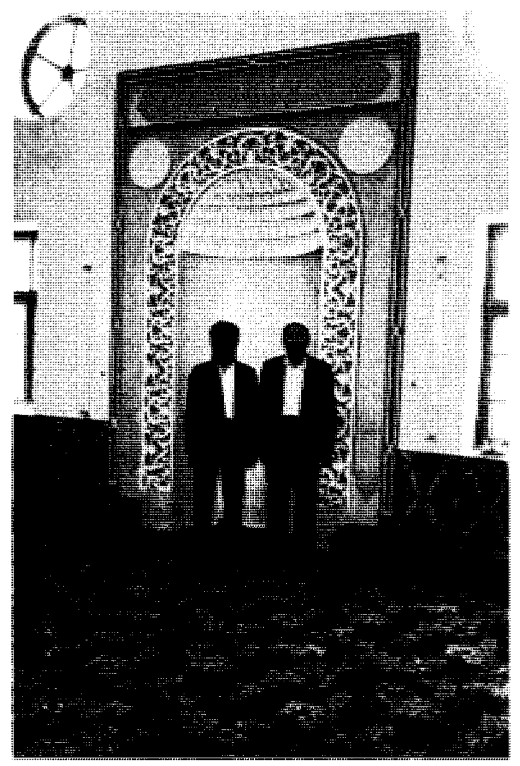


آق مسجد الجديد

وذلك لتجديد العهد بالإدارة، والبحث مع المسؤولين فيها عن الأشياء التي تحتاج إلى مساعدة من الرابطة، وكان أول ما فعلناه أن ذهبنا لرؤية الجامع الذي كان يبنى، ولم يكن قد تم عندما زرنا القرم في المرة السابقة، وهو (آق مسجد) بمعنى المسجد الأبيض، وبه سميت المدينة (آق مسجد) إلى أن غير الروس اسمها إلى سيمفربول.

وقد بحثنا معهم مصارف المبلغ الذي خصصته الرابطة لهذه البلاد،

واتفقنا بعد بحث أن يكون لستة مشروعات مهمة، منها ترميم مبنى الإدارة الدينية القديم، ومسجد كبير كانوا أتموا الحصول عليه بعدنا في العاصمة، وثلاثة مساجد أخرى خارج العاصمة. وتخصيص مبلغ لاستمرار جريدة الهداية التي تصدر هنا، وهي الجريدة الوحيدة الإسلامية التي تصدر في البلاد، ويحتاج إليها المسلمون حاجة خاصة، والمجلس الوطني لتتار القرم.



مع الإمام في محراب أق مسجد في سيمفربول

وقد تواعدنا معهم لجولة على المشروعات التي لم نرها من قبل في صباح الغد، وتركنا الفرصة هذا اليوم لهم لإعداد ما يريدون إعداده.

يوم الثلاثاء ٢٧/ ٢/ ١٤١٦هـ ٢٤/ ٧/ ١٩٩٥م

جولة في القرم:

وقد شملت الجولة أماكن داخل مدينة سيمفربول العاصمة وخارجها.

وكان موعد الابتداء بالجولة من الإدارة الدينية؛ حيث انطلقنا منها إلى قلب مدينة سيمفربول، فأول ما رأيناه:

دار الفتوى القديمة:

وهي مبنى مهم كان داراً للفتوى قبل الحكم الشيوعي، صادره الشيوعيون واستعملوه مكتبة عامة، ولم يستطع المسلمون استعادته إلا قبل ٤ أشهر، وذلك لنفاسته، ولزعم الحكومة أنه يصعب تعويضه بالحصول على بديل له.

وقد ذكروا أنه عزيز على قلوب المسلمين، إذْ كانوا اشتروه في عام ١٨٧٠م، أي قبل مائة وخمسة عشر عاماً، واتخذوه داراً للفتوى فعمر بالمفتين والمستفتين، غير أن الشيوعيين صادروه في عام ١٩٢٧م، ولم يستعيدوه منهم إلا قبل أربعة أشهر كما تقدم، ويحتاج إلى ترميم شامل مكلف.

ويقع في قلب المدينة القديم الجيد، حيث الأبنية القديمة الجيدة، ولذلك يساوي الآن قيمة كبيرة فيما لو باعه المسلمون، غير أنهم لا يفكرون في بيعه لكونه عزيزاً على نفوسهم، ولكونه بمثابة الوقف الذي لا يباع، وإنما ينقل نقلاً إذا وجدت مصلحة إسلامية راجحة في نقله.

ومع ذلك لا تزال بقية منه في يد الحكومة لم يستعيدوها منها، لأنه

بناء مستطيل جيد.

وقد أخبرناهم أننا خصصنا لترميمه جزءاً من المبلغ الذي رصدناه للمشروعات الإسلامية في القرم.

مسجد قاضي محلة:

بعد أن اطلعنا على هذا المبنى المهم الذي تسر رؤيته، وكونه للمسلمين، ذهبنا إلى مسجد واسع كانوا أرونا إياه في الزيارة السابقة، وذكروا أن استعادته تحتاج إلى مبلغ من المال لا يستطيعونه، وأوله للمحامي، ولما يحتاج إليه المسجد من استخراج أوراق رسمية، ونسخ سجلات، إضافة إلى ما يتطلبه العمل من إعطاء بعض الموظفين الحكوميين الذين يتعلق بهم الأمر ما يحتاجون لكي يعملوا في إعادته للمسلمين، وقد حددوا المبلغ المطلوب، فأعطيناهم إياه نقداً معجلاً في ذلك الوقت.



في موقع مسجد قاضي محلة في سيمفربول الذي استعاده المسلمون

ولذلك عندما وصلنا إليه قالوا: إننا استعدناه بسبب النقود التي أعطيتمونا إياها، ويقع في (قاضي محلة) أي محلة القاضي على شارع مالو فنتانا.

وكنت سميته عندما زرناه في المرة الأولى بمسجد عباد الشمس، وذلك أن الشيوعيين جعلوه معملاً لزيت عباد الشمس الذي يزرع في بلادهم في هذه البلاد بكثرة، من أجل زيته الذي يستعمل إداماً للطعام، ومن أجل مخلفاته بعد استخراج الزيت التي تصلح علفاً للدواجن، إضافة إلى أن قصبه وأوراقه تكون علفاً للماشية.

وكان فيه آنذاك أناس من الروس عند بابه، منهم حارس معه كلب شرس، أما الآن فقد ذهب ذلك كله، وعاد المسجد إلى المسلمين، إلا أنه عاد أنقاضاً لا تصلح لشيء، فكان أن جهدوا في أن يزيلوا تلك الأنقاض، وينظفوا الأرض ليبنوا عليها مسجداً وأبنية أخرى إسلامية، إذا استطاعوا الحصول على متبرعين لها، وذلك لسعة المكان.

وقد وجدناه بالفعل واسعاً، لأنه لم يكن مجرد مصلى، وإنما كان أشبه بالمركز الإسلامي، فيه المسجد، وأماكن لسكن الإمام والمؤذن، وغرف واسعة عديدة للدراسة.

وقد خرب الشيوعيون ذلك كله.

وقد التقطنا فيه صوراً تذكارية مع المرافقين، على أمل أن نقارن بينها وبين المسجد ومرفقاته إذا بنيت، كما جرت العادة في كثير من أراضي المساجد التي رأيتها من قبل.

وقد وجدوا بعض المتبرعين من المملكة العربية السعودية ومن

الإمارات، غير أنهم يشكون من بطء الإجراءات، ولكن هذا ليس بالأمر المهم ما دام أن المسجد بقي رهين الحبسين: الحبس الشيوعي والإلحادي المعنوي، والحبس الشيوعي المادي الذي صادروه لأجله، ثم فك الله أسره وأعاده للمسلمين.

إلى منطقة سكالينا:

منطقة سكالينا منطقة مسلمة خصبة، تقع على بعد ٧٠ كيلو متراً من العاصمة (سيمفربول).

وسوف نذهب إليها لزيارة المسلمين فيها، ولرؤية ثلاثة مساجد فيها، اثنان منها استعيدا قريباً ويحتاجان إلى مبالغ مالية للترميم وإعادتها إلى حالتها الأولى، أو إلى حالة يصبح من الممكن أن تقام الصلاة فيها.

وكانت المنطقة تسمى إبان العهد الإسلامي كوك كوز، بمعنى الينبوع الأزرق بلغة القوم المنحدرة من اللغة التركية القديمة، أما معنى الاسم الحالي سكالينا فهو الصقر الصغير، وتقع سكالينا إلى جهة الجنوب من العاصمة.

غادرنا إليها من جنوب سيمبرفول مع شوارعها المعهودة، وحتى الطريق كان هو الطريق الذي سبق أن سلكته عندما ذهبنا في المرة السابقة إلى مدينة بغتشه سراي عاصمة القرم في زمن الحكم الإسلامي، وهو طريق جيد.

وتطرق الحديث إلى كثرة الفاكهة في البلاد في زمن الحكم الإسلامي، فذكروا أنها تقلصت عندما حكم الروس البلاد، بل ذكر

بعضهم أن الروس في أول الأمر كانوا يقطعون أشجار الفاكهة التي لم يتعودوا عليها في بلادهم الباردة.



الطريق في ريف القرم بين سيمفربول وسكالينا

مررنا على يسار الطرق بمحلة للمهجرين، أو الأصح المطرودين التتار الذي عادوا من منفاهم إلى بلادهم، ولكنهم وجدوا أن منازلهم قد احتلها المهجرون إلى القرم بعدهم، وأغلبهم من الروس، فسكنوا في هذه الأرض النضاء حيث صاروا يبنون فيها لهم بيوتاً صغيرة، ورأينا فيها مسجداً ساعدهم بعض المحسنين من تركيا على بنائه.

لم نقف عند هذه المحلة، لأننا كنا زرناها من قبل، وإنما واصلنا سيرنا مع الطريق المتجه إلى مدينة بغتشة سراي، والسيارات فيه قليلة.

قرية تبلي:

مررنا بقرية اسمها (تبلي)، على يسار الطريق فيها مسلمون، ولكن ليس فيها مسجد، ذكر المفتي أن أرض المسجد موجودة في القرية، ولكن ليست لديهم إمكانية بناء مسجد، ولم يعرفوا عدد المسلمين الذين في القرية.

الجمعيات الإسلامية:

وعلى ذكر المساجد ذكروا أنه قد تألفت جمعيات إسلامية في جميع أنحاء القرم من القرى والمدن، بلغ عددها ١٥٠ جمعية، وأن ٤٠ جمعية منها فقط لها مسجد، أما الجمعيات الباقية فإنها تسعى إلى إنشاء مساجد، أو استعادت المساجد القديمة، وكانت توجد لهم مساجد صادروها وهدمها الشيوعيون.

ووصلنا إلى حقول واسعة، كل ما فيها صفوف من أشجار التفاح، وهي خضرة نضرة، فهنا الجو الصيفي هو مطير في العادة، وهو معتدل لا يكاد يخلو من الرطوبة، وهذا ما تريده الأشجار المثمرة كالتفاح.

مع أن الشمس حارة، ورأيت أطفالاً من الأطفال الصغار من أهل القرى يبيعون الفاكهة على الطريق، وقد تخففوا من الملابس حتى صاروا أشبه بالعراة، والفاكهة منوعة، ويبيعونها بمقادير قليلة.

ثم كثر باعة الفاكهة على الطريق، وهي خوخ ومشمش وخضرات مثل الطماطم والخيار، إلى جانب البطاطس.

وقد تكررت رؤية أشجار التفاح الكثيرة، وفيها ثمارها من التفاح

الأبيض الذي يجود عندهم، مما ذكرني بروسيا البيضاء التي رأيت فيها من التفاح الأبيض أشجاراً وثماراً ما لم أرَ له نظيراً في كثرته في أي مكان من العالم رأيته.

ثم مررنا ببساتين واسعة من أشجار الخوخ على يسار الطريق، وقد ذكروا أن جميع أشجار الفاكهة هذه مملوكة للدولة، لأن هذا كان النظام الشيوعي الذي لم يغيروه، مع أنهم تركوا الشيوعية.

ثم مررنا على جهة اليمين من الطريق بمصنع للحديد، ذكروا أنه أقيم بالقرب من معادن للحديد في الأرض، يأخذون خام الحديد ويصنعونه فيه، وهذه طريقة متبعة في البلاد الروسية، رأيت مثلها في عدة أماكن من بلادهم، ومن أكبر ذلك مصانع الحديد بالقرى من مدينة (نوفا أسترويت) الواقعة في إقليم أورنبورغ، وقد ذكرت ذلك في الكتاب الذي كتبته عن ذلك الإقليم.

كما رأينا هنا مصانع أخرى من التي تعتمد على الحديد الذي يستخرج من الأرض في هذا المصنع الكبير.

هذا وقد تجاوزنا مدينة (بغتشة سراي) إذْ تركنا طريقها الذي يعدل من أيسر الطريق العام هذا، فحاذينا على يمين الطريق أشجاراً كثيرة من أشجار فاكهة الكرز المعروفة في بعض البلدان العربية الشرقية بهذه التسمية، وبعضهم يسميها الكريز، وفي المغرب يسمونها (حب الملوك)، وهي بهذه التسمية أجدر، وذلك لنفاسة ثمرتها، إلا أننا نحن المشارقة لدينا حب آخر نسميه (حب الملوك)، ولكنه ليس من الفاكهة، بل ليس مما يستطاب، وإنما هو نوع من الدواء المسهل، وقد ترك الآن مثلما تركت المسهلات أو أكثرها.

ومررنا بقطار حديدي، ذكر الإخوة المرافقون بحرارة أن المسلمين الذين نفاهم ستالين إلى مجاهل سيبريا وسهول أسيا الوسطى، قد حمل بعضهم في القطارات التي تمر فوق هذه السكة، وبعضهم حمل على سيارات شحن.

وهو أكبر نفي في التاريخ، أو لنقل إنه أشمل نفي في التاريخ، وإن لم يكن كذلك فإنه من أكبر أنواع النفي المشهورة، إذْ نفى الروس المسلمين كباراً وصغاراً وصبياناً وأطفالاً رجالاً ونساء، حتى إن المرأة القرمية إذا كانت متزوجة بروسي نفوها وتركوا زوجها، والمرأة الروسية إذا كانت متزوجة من قرمي مسلم نفوا الزوج وتركوا امرأته، فهم حالوا بين المرآة وزوجها.

والأدهى من ذلك أنهم حينما نفوهم أحضروا غيرهم من الغرباء من روسيا نفسها، ومن الأراضي التي تسيطر عليها في البلاد التي أصبحت تسمى (روسيا) أناسا من الروس والمتروسين، أي الذين اصطبغوا بالصبغة اللغوية والدينية الروسية، وأسكنوهم في بلاد المسلمين في القرم، حتى إذا عاد المسلمون بعد النفي وجدوا ديارهم وأراضيهم قد احتلها غيرهم.

وهم الآن - حتى من رجع منهم - أقلية في بلادهم.

ومن الأشياء المؤلمة للمسلم أننا في اللحظة التي كان الإخوة المسلمون يتحدثون بها معنا بهذا الحديث، رأينا جماعات من الروس الذين حلوا هذه المنطقة واستأثروا بها دون أهلها المسلمين، يتمشون على الطريق كأنما يتبخترون على أرضهم التي ورثوها عن آبائهم وأجدادهم، على حين أن أهل البلاد الأصلاء لا يجدون المساكن ولا الأراضي الزراعية التي كانت

لآبائهم وأجدادهم.

هذا وقد تغير منظر الريف، فصار أكثره حقولاً من حقول القمح الذي حصدوه وكدسوه، وبعضه قد حملوه، ولم يبق منه إلا التبن، مما يوضح أن القرم تعتبر من البلاد المنتجة للقمح بكثرة.

وأكثر الأراضي هنا منظرها فيه شبه من منظر الأراضي العربية: حيث كون آثار الربيع والمطر السابق مائلة في الأعشاب الجافة والحقول المزروعة، ولكن الأماكن المرتفعة مثل ظهور التلال المتطامنة تبدو جافة خالية من الخضرة.

وذلك بخلاف السهول والأودية هنا، فإنها خصبة خضرة.

جنازة روسية:

قابلتنا ونحن نسير في طريق السيارات الجيد هذا جنازة لأحد الروس قد وضعوها في سيارة شحن مكشوفة، أظنها من نوع القلاب، في تابوت معتاد، والسيارة تسير الهوينا، تتقدمها جماعة من الرجال والنساء، رفع أحدهم بيده صليباً خشبياً، وحول الجنازة في السيارة أطواق من الزهور، والمشيعون كلهم يسيرون أمام الجنازة.

وقد أخبرونا أن الروس هنا يدفنون موتاهم ولا يحرقونهم.

هذا وقد وقفت السيارات التي كانت مقابلة لهم في الطريق حتى تجاوزتهم الجنازة، ثم استأنفوا سيرهم.

وقد وقفنا قليلاً لرؤية الجنازة، ثم استأنفنا السير مع الطريق فظهرت على يمينه جبال عالية، دونها سهل واسع مليء بأشجار التفاح النضر الذي

تشتهر به هذه البلاد.



جنازة روسية محمولة على سيارة تتقدمها نساء

بلدة قوت سالا:

لم نكد ندخل البلدة مع شارعها العام الذي هو الطريق العام نفسه، حتى رأينا جنازة روسية أخرى، رأيناها ذاهبة في الاتجاه نفسه الذي ذهبت معه الجنازة الأولى، لا شك في أنهما تقصدان مقبرة روسية هناك.

وهي كالجنازة التي قبلها قد وضعوا الميت في تابوت على ظهر سيارة كبيرة، حوله زهور وأعشاب خضر، إلا أن الجنازة هذه رأينا في السيارة بجانب الميت أربعة أطفال، ربما كانوا من أولاده أو أحفاده، وربما كانوا من الأطفال الذين تعبوا من السير، وشيء آخر لافت للنظر، وهو أن هذه الجنازة لا يتقدمها صليب كما يتقدم الأولى، وربما كان سبب ذلك أن

صاحبها شيوعي ملحد.

ولا حظنا أن النساء اللاتي يسرن مع المشيعين أمام الجنازة، على إحداهن وشاح كتب عليه اسم الميت.

وقد أعاد الإخوة القول بأن هذه القرى كانت كلها قرى إسلامية خالصة للمسلمين قبل أن يحتل الروس بلادهم.

وقفنا في بلدة (قوت سالا)، فذكر أن معنى اسمها: المكان المقطوع للصلاة، كذا قالوا، وجدنا في شارعها على الرصيف مزارعين جلبوا من مزارعهم أشياء يبيعونها، منها البطيخ الأخضر (الحبحب أو الجح)، وكلا اللفظين عربي فصيح، وهو مدور غير مستطيل، وبطيخ أصفر (شمام)، وأكثره صغير الحجم.

وقال سائق سيارتنا (شكري حقي): إن أبي من هذه البلدة، ولكنهم نفوه، وولدت أنا في المنفى. وقال نائب المفتي الشيخ (أبو اليزيد أحمد أزدو): لقد ولد والدي في هذه المنطقة، وأما أنا فإنني ولدت في المنفى في طاجيكستان.

وقد عاد مثل جميع الذين كانوا معنا من المسمين، إذْ آباؤهم ولدوا في بلادهم القرم، وولدوا هم في المنفى.

ولم نضع وقتاً في (قوت سالا)، وإنما واصلنا السير مع طريق ازدادت خصوبة المنطقة حوله فيما نراه، وأخذت الجبال العالية الخضر تغلق الطريق أمام السيارة.

وأخبرونا أنه لا توجد في المنطقة هذه أنهار، وإنما هي الوديان والينابيع، ولذلك لا يشكون نقصاً في الماء، لأن الزراعة الصيفية تعتمد

على المطر، والمطر يسقط عادة غزيراً في الصيف.

هذه سكالينا:

وصلنا منطقة (سكالينا) التي نقصدها، وهي مؤلفة من عدة قرى كلها كانت مسلمة خالصة للمسلمين، والآن عاد إليها المسلمون، ولكنهم لا يزالون أقلية بالنسبة إلى عدد سكانها.

وكان المنظر الجميل في أول دخولنا إليها منظر مسجد جميل المنظر، ذي منارة بيضاء رشيقة عالية، يحلي منظرها الأبيض النقي هذه المنطقة الخضراء.



الخضرة الجبلية الرائعة في منطقة سكالينا في القرم

وقفنا عند المسجد، وحضر عندنا بعض أهل القرية من المسلمين.

المسجد الأوسط:

كان هذا المسجد يسمى المسجد الأوسط، كما كان يسمى مسجد الجمعة وقت أن كانت المساجد كثيرة في القرية إبان وجود المسلمين، أما الآن فإنه لا يوجد مسجد مفتوح للصلاة غيره، فالمساجد كلها هدمت ومحيت من الوجود إبان الحكم الشيوعي، ما عدا اثنين هدم الشيوعيون منارتيهما، واستعملوهما لأغراض أخرى، وسيأتي الكلام عليهما.

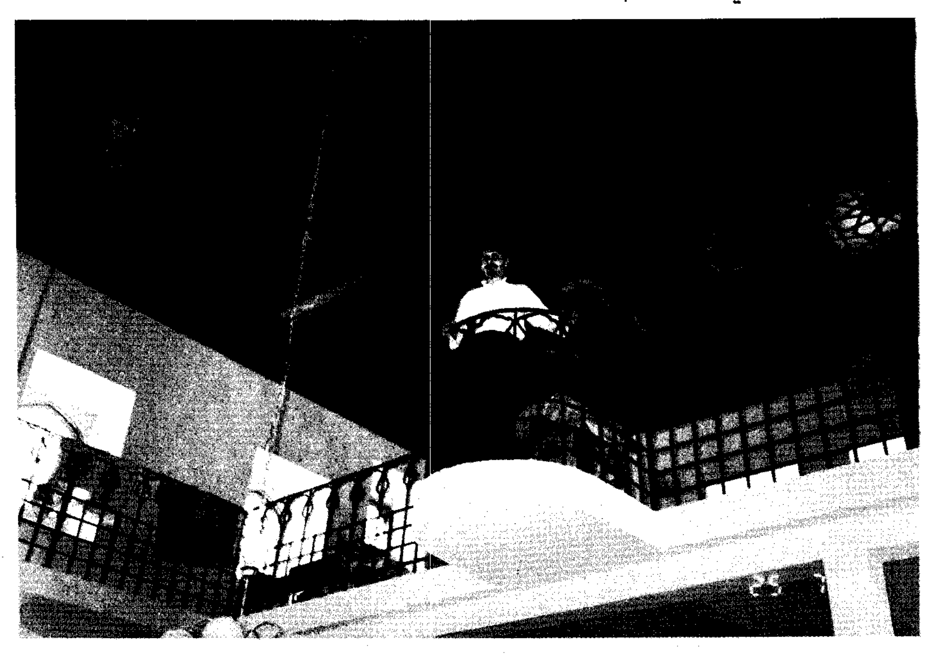


مسجد في سكالينا

وجدنا المسجد الأوسط قد بني على طراز جميل، وقد رمم بطريقة

معتنى بها ، حتى غدا من أجمل المساجد في المنطقة ، يضاهي المساجد المعتنى بها في تركيا.

ومن الأشياء الجيدة التي لا حظناها أول ما دخلنا المسجد أنهم وضعوا منبراً في الزاوية اليمنى من المسجد ، ولم يجعلوه في جانب المحراب كما في أكثر المساجد ، لأن المنبر إذا كان طويلاً فإنه لا يبعد أن يقطع جزءاً من الصف الأول، وربما يقطع أيضا الصفين اللذين بعده، كما رأيت ذلك في باطومي قبل أيام.



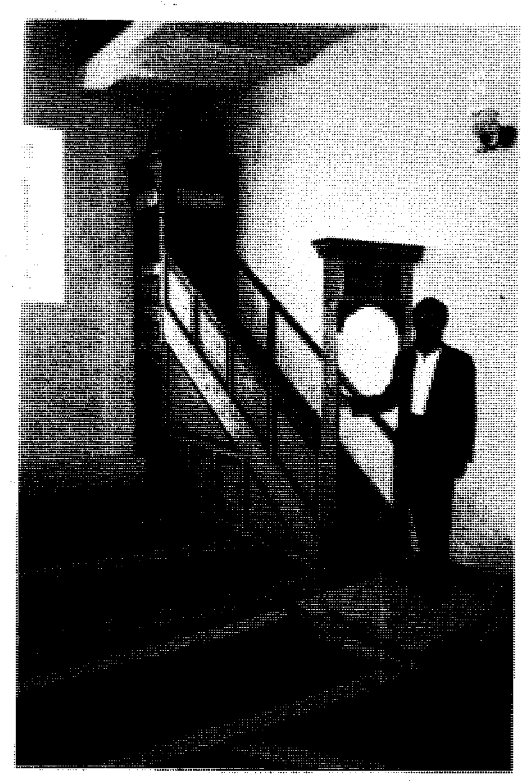
نائب مفتي القرم الشيخ يزيد في محراب شرفة النساء في جامع سكالينا الكبير

ومن طرائف هذا المسجد أيضاً أنهم جعلوا في أخره وهو جهة الشمال منه شرفة تصلي فيها النساء، وهذا أمر معتاد ، ولكن غير المعتاد أن يجعل في مصلى النساء محراباً ، وهنا جعلوا أمام مصلاهن محراباً يبدو معلقاً ،

لأنه في مقدمة الشرفة.

وعندما أبديت هذه الملاحظة التي لم أرها في غيرها ، وأردت أن ألتقط له صورة بادر نائب المفتي الشيخ (أبو اليزيد أحمد آزادو) بالصعود إليه ، والوقوف فيه حتى يبين حجمه في الصورة مقارناً بحجم الرجل.

سألنا الإخوة الحاضرين عن النفقة التي بذلت لإصلاح هذا المسجد ، وتهيئته بهذه الطريقة الجميلة التي لا بد أنها احتاجت إلى مبلغ كبير من المال، فاختلفوا ، قال أحدهم: إن مركز التتار في أمريكا ساعد على بنائه بتبرعات كان قد جمعها من التتار المقيمين في الولايات المتحدة.



عند محراب جامع سكالينا في الزاوية

وقال آخرون: بل ساعدت الدولة على بنائه.

وقال ثالث: إن جميع النفقات جمعت من تبرعات المسلمين هنا، وهذا بعيد، لأننا نعرف أن أحوال المسلمين المالية لا تسمح لهم بذلك.

والمهم أنه غدا مسجداً جميلاً نظيفاً يبهج العين والفؤاد.

المساجد في القرية:

ذكروا أن هذه القرية كانت فيها خمسة مساجد قبل العهد الشيوعي، أما الآن فإنه ليس فيها إلا مسجد واحد مفتوح للصلاة، هو هذا، وهناك مسجدان استعادوهما من الحكومة، وحصلوا على مفاتيحهما اليوم، ولذلك قالوا: إننا استعدناهما هذا اليوم. وقد حرصوا على أن نراهما من أجل أن تساعد الرابطة على إعادتهما إلى حالتهما السابقة أو أحسن من ذلك بالترميم والتحسين، وأحياناً بإعادة بناء بعض الأجزاء في المسجد مما خربه الشيوعيون بالاستعمال أو بالإهمال.

هذا وكان بين من حضروا الأخ (أباجر إبراهيم أوغلو) إمام المسجد، كما حضر رئيس الجمعية الإسلامية في هذه المنطقة منطقة سكالينا، ويعتبر بمثابة رئيس المسلمين فيها الأخ (علي كريم)، وهو المتولي أيضاً على المسجد بحكم موقعه في البلاد.

وقد تبين لنا أن الرجل شخص قوي جداً، متحمس لدينه ولإعادة الإسلام إلى هذه البلاد عن طريق إعادة الإخوة المسلمين إلى العمل بدينهم الإسلامي الحنيف الذي يعتبر ديناً وهوية لهم، لأنه هو الذي عصمهم من الذوبان والاضمحلال، وهو الذي يحافظ الآن على تماسكهم وعلى

وحدتهم.

والمسجد مكتمل من ناحية البناء والترميم، إلا أن محلات الوضوء فيه لم ترمم، لذلك يحتاج إلى محلات أكبر وأوسع، وهم يعملون على ذلك، إلا أنهم يحتاجون للمساعدة عليه، وقد خصصنا لهم مبلغاً عاجلاً من المال سلمناه لهم بوساطة المفتي، وبحضور موظفي دار الفتوى، وتوقيع المسؤولين فيها.

هذا والمسجد قديم نسبياً، فقد رأينا لوحة على جداره الخارجي توضح ترميم المسجد، ونصها بلغتهم المكتوبة بالحروف العربية:

((صاحب الخيرات كنانة فافا يوسف بوخ المهندس، ف، ف، قراسوف معمار ١٢٢٧هـ)).

أما تاريخ بنائه فقد أوضحته لوحة أخرى واضحة التاريخ، وإنه كان في عام ١٢١٨هـ.

ذكروا أن بداية بنائه كان على أيدي جماعة من الأتراك من المعماريين الذي جاؤوا مهندسين وعمالاً لبناء آخر، وكان المشرف على العمل روسيا أراد التقرب من المسلمين ببناء مسجد لهم.

وقال أحدهم: إنه أراد أن يتزوج بامرأة تتارية، وأن يبني له قصراً يقضي فيه فصل الصيف، فامتنع المسلمون إلا إذا بنى لهم المسجد، فبنى المسجد.

وقال أحد الحاضرين: بل الرجل كانت له منزلة عند قومه الروس، فأراد استمالة المسلمين إليه بتسهيل بناء هذا المسجد.

وعلى أية حال، فإن قومه من الروس الشيوعيين قد صادروا المسجد من المسلمين، واستعملوه لأغراضهم، حتى حقت كلمة الله على الشيوعية فبارت وسقطت، واستعاده المسلمون.

وقد رأيت في هذا المسجد وما حوله منظرين، لهما دلالاتهما، أولهما: جماعة من الإخوة المسلمين من جماعة التبليغ، فيهم عرب وهنود، جاؤوا من لندن بغرض التبليغ والسياحة الدينية التي يعتبرونها وسيلة لتربية النفس عن طريق القدوة الحسنة، وقد أقاموا في المسجد على عادتهم: حيث اعتادوا في كل البلدان التي يزورونها أن ينزلوا في مساجدها، فاذا كان للمسجد ملحقات طبخوا طعامهم فيها، وإلا جعلوا المسجد للإقامة وللنوم والراحة.

والثاني لطوائف من السياح الأوروبيين، رأيتهم يمرون بنا ونحن واقفون عند المسجد، وكلهم راجل: إذْ جاؤوا لرؤية هذه المنطقة، وكلهم يحمل على ظهره متاعه، وفي متاعه فراشه الذي ينام عليه إذا لم يجد فندقاً رخيصاً، وبعضهم يخرج من بلاده من دون أن يضع الفندق في اعتباره، وإنما ينامون على فرشهم التي يحملونها في الحدائق والأماكن العامة.

وأكثرهم يبحث عن فندق رخيص.

واللافت للنظر أنهم كلهم من الشبان، وأنهم جاؤوا زوجين زوجين، والمراد بذلك الازدواج اللغوي، أما الشرعي في دينهم فإنه قليل، وإن المرء ليعجب منهم وقد حمل الشاب أو الشابة منهم متاعه على ظهره، وتخنف من اللباس وهو يذرع الأرض بحمله، تحمله على ذلك محبة المعرفة بأحوال

الشعوب، والاطلاع على البلدان التي لم يرها من قبل.

وقارنت بينهم وبين شبابنا فيما يتعلق بحب المعرفة، فرأيت أن هم بعض شبان المسلمين أن يأكلوا ما يشتهون، ويشربوا ما يريدون، ثم لا هم لهم غير ذلك إلا من شاء الله، ولم أرَ جماعات من الشبان من العرب تذهب في رحلات سياحية للاستطلاع والاطلاع.

وقد صلينا الظهر مع الإخوة قبيل الثالثة، إذْ كان هو وقت الصلاة المعتاد لهم.

ومن الطريف أننا ونحن مسافرون لا نتنفل أقمنا للصلاة، ولكن الشيخ المفتي استمر يتنفل، يصلي الركعات التي كان قد اعتاد أن يصليها قبل الظهر، حتى فاته جزء من الصلاة معنا.

مسجد فارتشي محلة:

أنهينا ما أردنا الاطلاع عليه، مما يتعلق بالجامع الأوسط وما حوله، فقالوا: إلى (فارتشي محلة)، وطلبت منهم أن يفسروا معناها، فذكروا أنها تعني المقابل، أي فارتشي، أما محلة فإنها اللفظة العربية الفصيحة (محلة) بمعنى حارة، أو حي سكني.

ففي الثالثة والنصف صعدنا إلى عرض جبل أخضر كان يطالعنا أو نطالعه، ونحن في المسجد الأوسط، وكان يغلق الأفق أمام الناظر.

فذهبنا إليه مع طريق إسفلتي ضيق، ما لبث أن انقطع فصار الطريق ترابياً، لأنه يصعد في التلال التي دون الجبال، وهي تلال طينية عالية.

حتى وصلنا إلى مسجد (فارتشي محلة)، فوجدنا عنده الإمام (جليل

أمير حسين)، وهو الذي تقرر أن يصلي فيه إذا تم إصلاحه، وهو الآن يصلي بالمسلمين، والأخ متولي المسجد، وهو رئيس جمعية المسجد، وعدداً من الإخوة المسلمين من أهل المحلة.



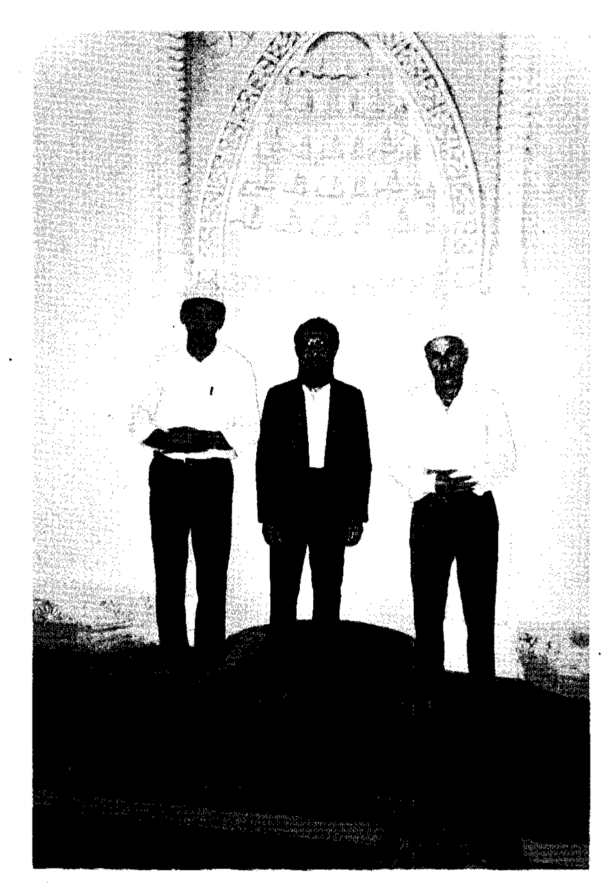
منارة مسجد فارتشي التي هدمها الشيوعيون

حدثونا عن المسجد بأنه مسجد قديم، كان الشيوعيون قد صادروه وكسروا منارته، حتى لم تعد منارة لأنهم كسروها حتى مستوى سقف المسجد، وإن المسلمين طالبوا باستعادته منذ أن سقطت الشيوعية، ولم يتسلموا مفاتيحه إلا هذا اليوم، وقد عبث به الشيوعيون فجعلوه طابقين، وذلك لارتفاع سقفه الأصلي، كما رأيتهم فعلوا ذلك بمساجد عديدة في أنحاء روسيا، واستعملوها مساكن لهم.

وجدنا عليه تاريخه مكتوباً بالعربية في لوحة على حائطه لا تزال سليمة تقول: ((صاحب الخيرات والحسنات إسماعيل آغا ١٢٢٩ ...)) هكذا

رأيناه مكتوباً على المسجد.

وقد أصبح المسجد على حالة سيئة جداً من ناحية المبنى، إذ الشيوعيون تصرفوا فيه ولم يرمموه، ويحتاج إصلاحه وبناء منارته إلى مبالغ كبيرة من المال.



في محراب جامع سكالينا بين رئيس الجمعية الإسلامية وإمام المسجد

وقد أخبرناهم أننا خصصنا مبلغاً من المال لإصلاح هذا المسجد، وسوف ندفع لهم مبلغاً رمزياً معجلاً لهذا الغرض.

ويقع المسجد في منطقة خضراء، تشرف عليها جبال بالغة الخضرة،

وقد التقطت صورة للمسجد، وصوراً تذكارية مع الإخوة المسلمين من أهل المنطقة.

سبيل الماء:

وغير بعيد عن المسجد، ويعتبر تابعاً له، سبيل ماء أجراه أحد المحسنين من نبع هناك، ينحدر من مكان مرتفع، فحبسه وجعل له صنابير نظيفة، ورأينا عليه كتابة مؤرخة في عام ١٨٨٣م.

وكتابة بالتتارية ذات الحروف العربية: ((بوشمشن خيرات يلادي ديرك والر علي روحيا ابلا سومر فاتحة)).

ومعناها: هذه العين من حسنات ديرك علي روحيا إبلا سومر، فتنبغي قراءة الفاتحة له. ولا يزال هذا المَشْرَع باقياً ينتفع منه ماء نقياً نميراً.

وبجانب هذا النبع بيتان كانا تابعين للمسجد، أحدهما بيت الإمام. ذكروا أنهم سوف يطالبون باستعادتهما، غير أن الحكومة تطالبهم إذا فعلوا بإثبات ذلك بمستندات مكتوبة، مع أن أثرهما معروف ومشتهر، ولا يوجد من يزعم أنها ملك له. وفيهما سكان يقولون إن الدولة أسكنتنا فيهما ولا نخرج إلا إذا وجدت لنا البديل، كما قاله أناس مثلهم في حالة مثل حالتهم.

مسجد كوتلر أو فكاك الأسير:

سرنا إلى جهة أخرى من مرتفعات خصبة من منطقة (سكالينا)، فهبطنا قليلاً، ثم صعدنا ثانية حيث وقفنا عند مسجد آخر كان أسيراً في

أيدي الشيوعيين، ثم في يد الحكومة التي خلفتهم، وقد استعاده المسلمون وتسلموا مفاتيحه اليوم، مثلما فعلوا في المسجد الآخر.

ويقع في منطقة ذات بيوت متفرقة أغلبها للروس، وقد بنوا بيوتهم في الأماكن المرتفعة.

أما المسجد فإن الشيوعيين هدموا منارته، ويروون قصصاً تتعلق بذلك، منها أنهم أحضروا جراراً لكي يوقعها على الأرض كما هي العادة في الأبنية مثلها، ولكن حباله وهي من حديد تقطعت، ولم تتزحزح المنارة، فحاروا في أمرهم، فاقترح عليهم أحد الروس أن يقرنوا جرارين اثنين، ويربطوا حبالهما بالمنارة، قالوا: فوقعت المنارة، غير أن ذلك الشخص الذي أشار بهذا الرأي، وكان يسوق أحد الجرارين مات بعد شهر من هدم المنارة، وتحدث الناس بأن موته بسبب هدم المنارة.

والمسجد بني بالحجارة، وسقفه من الآجر.

ويقع في أرض واسعة كانت وقفاً تابعاً له، غير أن الروس اعتدوا عليها، وبنوا فيها بيوتاً، قال رئيس الجمعية الإسلامية لنا الأخ (علي كريم): إن الحكومة أعطتنا المسجد والأرض بحجة أن البيوت التي فيها هي لأناس يسكنونها، وإن الحكومة لا تستطيع أن تعوضهم عنها.

أما الشيوعيون فقد استغلوا أرض المسجد الواسعة، فاتخذوها مخيماً ينصبونه للشبيبة الشيوعية وأمثالها.

وقالوا جميعاً: إن سكان القرية فيهم الآن ٢٥٠ أسرة روسية، و١٣٠ أسرة مسلمة، وهذا تطور جيد بالنسبة لما كان قبل عشر سنوات؛ حيث لم يكن يوجد فيها من المسلمين أحد.

وقالوا: هذه منازل آبائنا وأجدادنا، ولكن هؤلاء الغرباء احتلوها وبقوا فيها، وأكثرهم لم يبن شيئاً، حتى إنهم لم يبنوا أية كنيسة في القرية حتى الآن، لأن بناء الكنائس كان ممنوعاً في العهد الشيوعي، مثل بناء المساجد.

قالوا: ومن الوقاحة أن بعض السكان الروس القريبين من المسجد ذهبوا إلى الحكومة وطلبوا منها عدم إعادة المسجد للمسلمين، قالوا: لئلا يزعجوا أولادنا بالأذان، وهذا من أشنع الوقاحة، فقد احتلوا بيوت المسلمين، وسكنوا فيها، ثم طلبوا أن لا يزعجوهم بالأذان في المساجد التي كانت موجودة قبل وجودهم.

ولكن حول المسجد ١٦ قرية، كلها أصبح فيها مسلمون في الوقت الحاضر.

وذكروا أن تلك القرى كان فيها كلها مساجد، منها تسعة مساجد تسلمها المسلمون كلها، وأما بقية المساجد الستة فإن الشيوعيين كانوا أخذوها منازل ومخازن مثل غيرها من المساجد، ولم يتسلموها حتى الآن، وذكروا أن ثلاثة مساجد قد هدمت كلياً، ولم يبق لها أثر.

أما هذا المسجد فلم نر تاريخه مكتوباً عليه كما في المسجدين اللذين قبله، ربما كان ذلك راجعاً إلى التخريب الذي أصابه، فقد رأينا على سبيل المثال ثقباً جديداً عند محراب المسجد واضحاً مكانه، ذكروا أن بعضهم قيل له: إن إمام المسجد السابق الذي كان يؤم فيه قبل أن يصادره الشيوعيون، كان لديه كنز للمسلمين يحتفظ به في جدار المسجد، فثقبوا المكان وبحثوا عن الكنز، ولكنهم ما وجدوه، وإنما

خربوا ما خربوه من واجهة المسجد عند المحراب.

وقد ذكروا أن اسم باني المسجد (علي بن سعيد بلكا كوف)، ولا يعرفون أكثر من هذا عن تاريخ بنائه.

ويذكر أن سبب الجهل بتاريخ المساجد وبأحوالها كلها هو ذلك النفي الجماعي الذي أصاب المسلمين كلهم على أيدي الشيوعيين بقيادة زعيمهم الهالك (جوزيف ستالين).

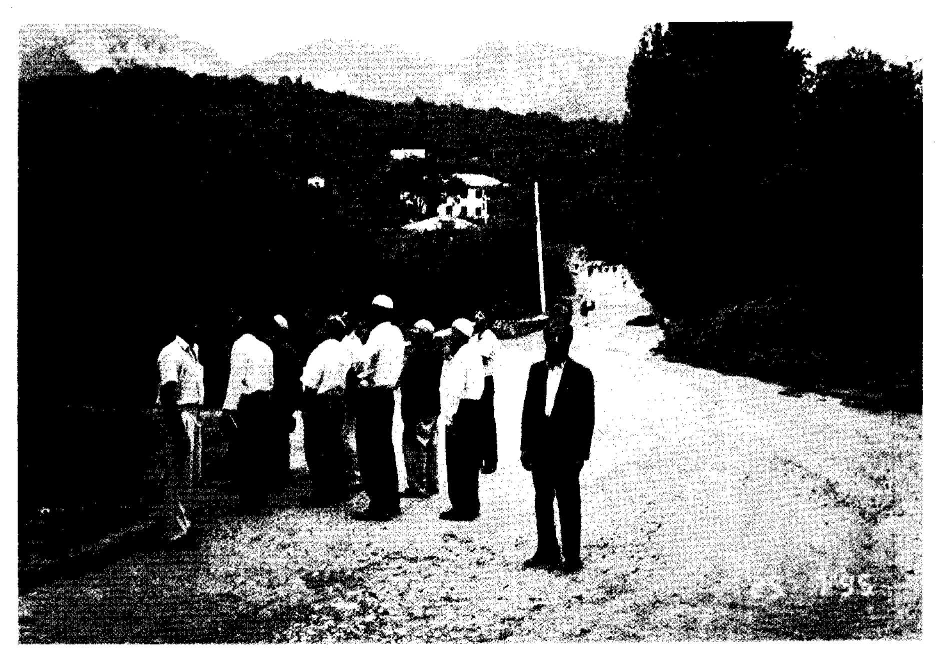
فسألتهم عما إذا كانت استعادة المساجد سهلة، فقالوا: كانت حكومة إقليم القرم تعطينا المساجد أول الأمر بسهولة عندما كان عددها قليلاً، ولكنها في آخر الأمر صارت تتلكأ، قالوا: فحشدنا خمسين ألفاً من المسلمين، وسرنا في مظاهرة سلمية، أخبرناهم أن القصد منها هو المطالبة بتطبيق قانون أوكرانيا، التي نشكل الآن جزءاً منها من الناحية السياسية، بإعادة أماكن العبادة التي صادرها الشيوعيون إلى أهلها، قالوا: فخافوا أن تتحول المظاهرة إلى صدامات، فوافقوا على إعطائنا جميع المساجد التي نستطيع أن نثبت كونها كانت مساجد من قبل.

وأرونا بيت الإمام بجانب المسجد، وذكروا أنه يسكنه أحد الروس، وأنه رفض الخروج منه إلا إذا دفعنا له عشرين ألف دولار، ونحن لا نقدر على ذلك.

والعجب من حكومتهم التي يفترض فيها أن ترد الحقوق إلى أصحابها كيف لا تلزم هذا الروسي بإخلاء بيت الإمام، بل بإلزامه أن يدفع أجرة عن السنوات التي شغل فيها البيت، لأنه سكن فيه بغير حق.

وموقع المسجد جميل جداً، فهو في أرض مرتفعة، ولكنها متسعة،

ولذلك كان الشيوعيون اتخذوها مخيماً لمن أرادوا ، ينصبون خيامهم في الأرض التابعة للمسجد ، ويستعملون محلات الوضوء حمامات لهم.



أثناء التجول في منطقة سكالينا الخضرة في القرم

وقال رئيس الجمعية الإسلامية هنا ، وهو بمثابة رئيس المسلمين في المنطقة: إننا الآن قد استطعنا استعادة بعض المساجد ، وبذلك استطعنا أن نوجد أماكن تجمع للمسلمين على أساس العبادة والتفقه في أمور الدين. قال: وقبل ذلك كنا في حالة يرثى لها ، حيث لا توجد أمكنة نتجمع فيها ، حتى كان بعض المسلمين العائدين، وكثيراً ما يسميهم مثل غيرهم باسمهم القومي التتار ، يبقون في الشوارع والأرصفة في وقت البرد في فصل الشتاء ، وهم يرون بيوتهم وبيوت آبائهم يدخل إليها الغرباء ، ويقيمون فيها.

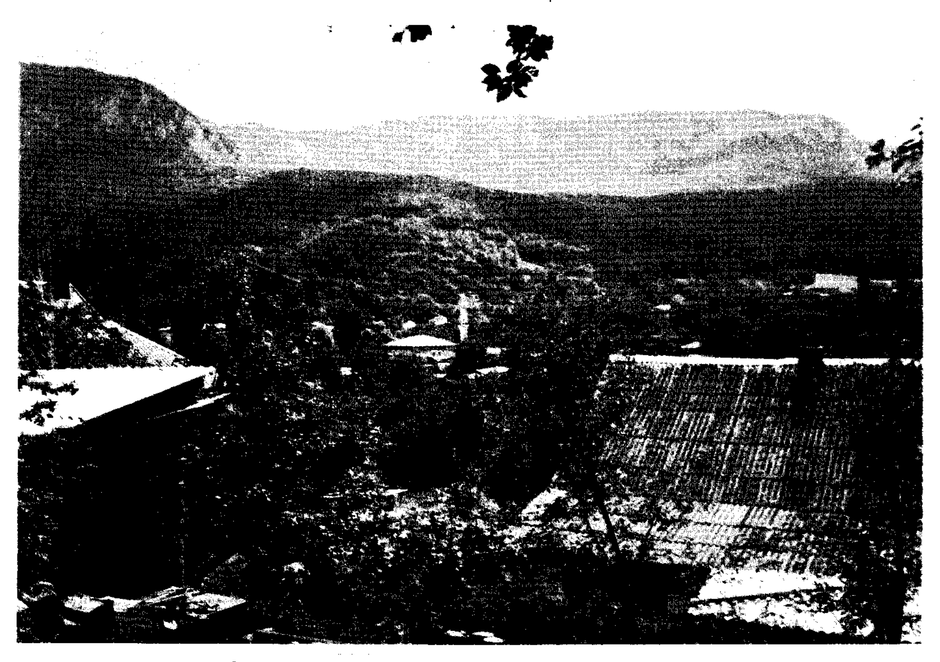
اجتماع المسرات اليوم:

قال رئيس الجمعية الإسلامية الأخ (علي كريم): إن من البشائر الطيبة أن نخبركم أنه ولد لنا اليوم ولدان: صبي وابنة، ويريد بذلك أنه ولد للمسلمين التتار هذا اليوم في هذه المنطقة التي هي سكالينا المؤلفة من قرى ومن بلدة متباعدة المحلات على هيئة قرى، منفصل بعضها عن بعض، ولا يريد أنه ولد له أو للحاضرين، وذلك أنهم يعتبرون أي مولود للمسلين هي بشارة لهم جميعا؛ لأنهم يفرحون حتى بزيادة رجل واحد أو امرأة واحدة في عددهم.

قال: وتسلمنا مفاتيح مسجدين عادت لنا نحن المسلمين، ومن البشائر في هذا اليوم قدوم إخوتنا من مكة المكرمة ليرونا ويعرفوا الوضع الديني لنا، فقلنا له: ولا شك أننا سوف نبذل جهودنا لمساعدتكم على صلاح هذين المسجدين، مثلما أننا سنبذل جهدنا في مساعدتكم على أمور دينكم الأخرى.

وعلق ذلك أحد الحاضرين فقال: ومات اليوم اثنان من أهل القرية من الكريستنيان، ولم يقولوا من الروس، وإن كانوا يقصدونهم.

وبناء على فرحهم بولادة المولودين الاثنين للمسلمين في هذا اليوم قلت لهم: إنني سوف أقول لكم شيئاً سبق أن قلته لإخوانكم في العاصمة الملكية القديمة للتتار، وذلك في مقر مجلس تتار القرم، وكما سبق أن قلته لإخوانكم تتار قازان، وهو أنه ينبغي، بل يجب عليكم أن تشجعوا زيادة النسل للمسلمين، فقد لاحظت مما استقريته من أحوالهم أنهم ليسوا من ذوي النسل الكثير، بخلاف المسلمين في بلاد ما وراء النهر مثل أوزبكستان، فإن أسرهم كبيرة لأن أولادهم كثير.



مسجد سكالينا الكبير كما يبدو من الجبل الأخضر

قلت لهم: إن من الأشياء التي تساعد على تكاثر المسلمين حتى لا يعودوا أقلية في بلادهم، تشجيع الزواج المبكر فيما بينهم، عن طريق إنشاء صندوق خيري أهلي، تطلبون دعمه والإسهام فيه من إخوانكم المسلمين في البلدان الإسلامية، وخاصة البلدان العربية، وتساعدون منه من يريدون الزواج، كما أنه يجب أن تساعدوا منه من ينجبون أولاداً أكثر من المسلمين، ويتعللون بأنهم يحتاجون إلى المساعدة على تربيتهم.

قلت: وشيء آخر، ربما لا يتصوره بعضكم بسبب تنشئتكم وسط الجو الشيوعي الإلحادي المعادي للإسلام، وهو أن تشجعوا تعدد الزوجات بين المسلمين، فهو أمر لا غبار عليه في الدين، بل إن الحديث يحث عليه إذا ما وجدت استطاعة النفقة والعدل بين الزوجات، وإذا كانت الحكومة لا تعترف قوانينها إلا بزوجة واحدة، فيجب أن تقوم الإدارة الدينية في البلاد

بعد أن هزمت الشيوعية ومعها الإلحاد الرسمي، بتوثيق زواج الزوجة الثانية، والزوجة الثالثة، بما يلزم من وثائق شرعية، مثل عقود الزواج والشاهدين والولي، وتحري القدرة على النفقة، ومنها توفير المسكن المناسب. وقد أنصتوا لهذا الكلام باهتمام، وأرجو أن يكونوا قد اقتنعوا به.

العودة إلى العاصمة:

ودعنا هؤلاء الإخوة الكرام على رأسهم رئيسهم الأخ (علي كريم) الممتلئ حماسة واندفاعاً في العمل الإسلامي الجاد، وفقه الله ووفق إخوتنا المسلمين إلى كل خير.

بدأنا العودة إلى العاصمة (سيمفربول) في الساعة الخامسة والنصف عصراً، وكانت الشمس حارة في هذا الجو الشمالي، ومع ذلك تكاثف الغيم، ونزل علينا المطر ونحن في طريق العودة، وإن كان الحر لا يزال محسوساً.

يوم الأربعاء: ١٤١٦/٢/٢٨هـ ١٩٩٥/٧/٢٦م

تناولنا طعام الإفطار في هذا الصباح في مقصف صغير في الطابق الذي فيه غرفنا، ومن حسنات هذا الفندق أن فيه في كل طابق مقصفاً صغيراً يقدم الخدمات من الأطعمة الخفيفة والقهوة أو الشاي، ولكننا لم نحتج إليه للشاي، لأننا كنّا نصنع الشاي في غرفنا، حيث كنا نحمل طباخات للشاي على الكهرباء.

أما في هذا المقصف الصغير فإننا طلبنا من عجوز فيه بالإشارة ما أردناه، فلم تفهم، وإنما أرتنا كل ما عندها من طعام وشراب، فاخترنا ما شئناه، وهو البيض الصليق الجيد، والزبدة، وشراب الخوخ، مع الخبز والسلطة.

ومن الغريب أنها تزن كل شيء قبل أن تقدمه للآكل، فالطماطم ولو كان ثمرة واحدة تزنه بالميزان، وتقيده في ورقة بيدها، والجبن تزنه وهكذا، وليست عندها آلة حاسبة، وإنما عندها حاسبة خشبية قديمة، كنت رأيتها لأول مرة في الشرق في الصين، وفي بعض بلاد الهند، ولا أدري كيف يستعملونها، وتتألف من مربع خشبي فيه عيدان صلبة من الخشب الصقيل، قد نظمت فيها كرات صغيرة، وعن طريق تحريك هذه الكرات يحسبون ما يريدون.

ومن الطريف أنها عندما أرتنا ما لديها من طعام عرفنا قلة الموجود لديها، فهو نزر قليل، حتى إن عدد البيض تسع بيضات فقط.

مغادرة بلاد القرم:

كنا نغادر فندق موسكو أو (موسكوفا) في التاسعة والنصف من دون أن نمر بالإدارة، أي مكتب الاستقبال فيه، لأنهم كانوا قد أخذوا منا أجرة الليلة البارحة، وليس للفندق شيء أخر يتعلق بالإدارة، مثل الهواتف وغيرها، فضلاً عن التوقيع على الطعام والشراب، لأن ذلك لا بد من دفع ثمنه نقداً.

وخرجنا إلى المطار معنا بعض الإخوة المودعين الكرام، فرأيناهم بنوا قسماً جديداً جيداً وان لم يكن واسعاً للركاب المغادرين، وقد أحدثوه بعدنا، وقد سمحت لنا جوازاتنا (الدبلوماسية بعدم التفتيش، إلا أنهم يدققون ويبالغون في فحص الجوازات، ويقارن الموظفون بين الصورة في الجواز وبين حامله.

ورغم جدة المبنى مما يذكر ببعض قاعات المغادرة في البلدان الحرة، فإنهم لم يتسلموا منا حقائبنا، وإنما تركوها معنا حتى نحملها إلى الطائرة، وهي حقائب ثقيلة بالنسبة إلينا.

وهكذا فعلوا مثلما فعل أكثر أهل المطارات التي مررنا بها في أقاليم جنوب روسيا، بأن جعلوا الركاب يحملون أمتعتهم إلى الطائرة، وينزلونها بأنفسهم، غير مبالين بما يلحقهم من تعب جراء ذلك.

والطائرة مروحية ذات محركين كالتي قدمنا معها قبل يومين.

وغادرت سيمفريبول إلى إسطنبول في الحادية عشرة والثلث ضحى، وقد امتلأت مقاعدها البالغ عددها ٤٤ مقعداً بالركاب، وكلهم من البيض الشقر من الروس، وأهل البلاد بيض مثلهم، وليس بينهم أسود أو

أسمر مثلنا.

وقد عانيت مشقة في وضع حقيبتي اليدوية، إذْ لا يتسع لها المكان الذي تحت المقعد أمامي، لا يمكنني أن أضعها في رفوف الطائرة لأنها لا تغلق، ولذلك يخشى أن تقع فوق رؤوس الركاب عند أول اضطراب محتمل.

ولم يقدموا أية ضيافة في الطائرة إلا نصف كوب من الماء المعدني، ولم أستطع أن أستفيد من الوقت الذي امتد ساعتين وعشر دقائق، لأنه لا توجد مائدة للكتابة خلف المقاعد.

وعندما وصلنا إسطنبول لم يتحرك أحد من الركاب من مقعده إلا بعد أن نزل الملاحون كما هي العادة المتبعة الآن في روسيا، وقد لبثت في إسطنبول يومين في استرخاء وإجازة، ثم سافرت بعدهما إلى جدة. ولله الحمد.

خلاصة عن زيارة بلاد القريم

قام وفد رابطة العالم الإسلامي الموجود في روسيا وجورجيا بعد انتهاء مهمته بزيارة بلاد القرم، لدراسة المشاريع الإسلامية التي تستحق الدعم، ويمكن تقديم المساعدة المالية لها من المبلغ المخصص في الرابطة لصالح القرم، وقدره مائة ألف ريال سعودي.

وقد اجتمع وفد الرابطة مع رجال الإدارة الدينية لمسلمي شبه جزيرة القريم، وهم :

١- الشيخ صبري بن لقمان الذي انتخب مفتياً ورئيساً للإدارة الدينية الإسلامية حديثاً.

٢- الشيخ السيد جليل بن إبراهيم: رئيس الإدارة الدينية والمفتي السابق.

٣- الأستاذ أبو يزيد عاصم: رئيس الإدارة الدينية.

وتدارس معهم في الاجتماعات التي تمت في مقر الإدارة الدينية الإسلامية بجوار آق مسجد في مدينة سيمفر بول أحوال العمل الإسلامي واحتياجاته، والمشاريع الإسلامية التي سبق أن ساعدتها الرابطة بواسطة وفدها الزائر لبلاد القرم في شهر محرم عام ١٤١٤هـ.

وعلم وفد الرابطة أن عدد الجمعيات الإسلامية التي أسست في مدن وقرى بلاد القرم يبلغ ١٤٠ جمعية، وقد اجتمع رؤساؤها قبل بضعة أشهر، وانتخب المجتمعون الشيخ صبري بن لقمان رئيساً للإدارة الدينية الإسلامية، ومفتياً لمسلمي القرم، بدلاً من السيد جليل بن إبراهيم الذي استقال من منصبه لرغبته في التفرغ لدراسة العلوم الإسلامية واللغة العربية.

وتمكن المسلمون من إتمام بناء وترميم آق مسجد، وأصبح المصلون يؤمونه لأداء الصلوات وقراءة القرآن الكريم.

وقد استعاد المسلمون مبنى الإدارة الدينية القديم، بالإضافة إلى عدد من المساجد، ويصدرون جريدة شهرية باللغتين التتارية والروسية عن الإسلام وتعاليمه.

وأفاد الشيخ السيد جليل بن إبراهيم المفتي السابق باستلامه خمسة آلاف نسخة من المصحف الشريف، وبعض الكتب الإسلامية التي تم توزيعها هدايا للمسلمين. والواقع أن النشاط الإسلامي تزايد عما كان سابقاً، كما أن عدد المسلمين التتار العائدين يتزايد ببطء بسبب الظروف الاقتصادية السيئة التي يعيشها المسلمون، ومضايقات الحكومة المحلية لهم، وموقفها السلبي من عودتهم إلى ديارهم.

وقد قام وفد الرابطة بزيارة إلى كل من:

١- مبنى الإدارة الدينية الإسلامية القديم، الذي يقع على شارع جيخو في وسط مدينة سيمفر بول، وكان قد اشتري ليكون مقراً للإدارة الدينية قبل الحكم الشيوعي في عام ١٨٧٠م، ثم صادره الحكم الشيوعي وجعله مكتبة عامة عام ١٩٢٧، ثم أعيد للمسلمين منذ أربعة أشهر.

وهو يتكون من خمس غرف كبيرة من دور واحد... في حالة جيدة، ولكن يحتاج إلى ترميم جداره، وإصلاح النوافذ والأبواب.

٢- مسجد توقاله في شارع مالوفانتيان... وكان وفد الرابطة قد زاره عام ١٤١٤هـ، وقدم مساعدة قدرها ٥٠٠ دولار لاتخاذ الإجراء اللازم

لاستعادته من المغتصبين، وإخراجهم منه، وقد أخلى المسجد من الذين احتلوه، ونظراً لكبر مساحته وتداعي مبانيه السابقة فالإدارة الدينية الإسلامية تنوي إقامة مشروع ديني واستثماري بجوار المسجد. ثم قام وفد الرابطة بزيارة لبلدة سكالينا التي كانت تعرف باسم كوك إبان العهد الإسلامي، وتقع سكالينا على بعد ٦٠ كيلو متراً جنوب مدينة سيمفر بول، وفيها ثلاثة مساجد هي:

- مسجد الجمعية في أورته محله:

ويجري ترميم المسجد حالياً بمساعدة المسلمين المحليين وبعض الأتراك الزائرين، ويحتاج إلى ترميم نوافذه وإصلاح مكان الوضوء، وفرش المسجد بالسجاد، ويتضح من شاهد في حائط المسجد بأن الذي بناه هو كنازف. ف يوسبوف في عام ١٢١٨هـ، ثم جدد البناء في ١٣٢٧هـ.

ويقول الأستاذ على بن كريم رئيس الجمعية الإسلامية لبلدة سكالينا بأن الكناز يوسبوف هو أمير روسي، أراد أن يبني قصراً يصطاف فيه، ولما رفض المسلمون ذلك بنى لهم المسجد المذكور، ثم بنى قصراً له بالقرب من ذلك، ويقال إن زوجته كانت تتارية مسلمة، وذكر الأستاذ على بن كريم بأن البلدة كان فيها خمسة مساجد قبل الحكم الشيوعي، ولم يبق منها إلا ثلاثة مساجد، وقد استعادوها من الغاصبين، وتم ترميم هذا المسجد، بينما لا يزال المسجدان الآخران ينتظران الترميم والإصلاح.

وقد أدى وفد الرابطة ومرافقوه صلاتي الظهر والعصر قصراً وجمعاً في المسجد المذكور.

ب - مسجد قارتشي محله:

وهو المسجد الثاني في ناحية سكالينا، استرجعه المسلمون منذ فترة وجيزة، ولكن لم يجر فيه الإصلاح والترميم، وقد كسرت منارته في عهد طغيان الحكم الشيوعي، ويرجع تاريخ بناء المسجد إلى سعيد بولغاكوف عام ١٢٢٩هـ، كما يظهر من شاهد حجري مثبت على حائط المسجد الخارجي. ويقول الإمام خليل بن أمير حسين، ورئيس الجمعية الإسلامية إنهما يتطلعان إلى المساعدة المالية لإجراء ترميمه وإصلاحه.

ج- مسجد قوت لر محله سى:

وهو المسجد الثالث المستعاد في بلدة سكالينا، وقد بناه علي بن سعيد بولغاكوف في القرن التاسع عشر الميلادي، ثم صادره الحكم الشيوعي الذي اتخذه مركزاً ومخزناً لحفظ الأشياء الخاصة بالمعسكرات الشبابية التي كانت تقام حوله، كما يقول الإمام محمد زين الله، وقد استعادوه منذ فترة وجيزة... وتظهر بعض التصدعات في جدران المسجد التي حطمت نوافذه وأبوابه، وهدمت منارته.

ملاحظات وانطباعات عامة:

١- يتضح من أقوال رجال الإدارة الدينية الإسلامية، ومن الشواهد الملموسة بأن عدداً كبيراً من المساجد استرجعت من المغتصبين بالإجراءات الرسمية، وأحياناً بالقوة، ولكن كلها تحتاج إلى ترميم

وإصلاح.

٢- ضعف الوازع الديني بسبب الجهل الذي فرضه الحكم الشيوعي على المسلمين، مع ضعف إمكاناتهم المادية التي تحول دون إعمار المساجد بالعبادة فيها، وإصلاح مبانيها، وتفعيل دورها الإسلامي.

٣- المرارة والمأساة التي يعيشها مسلمو القرم في عودتهم إلى بلادهم بعد سنوات من التشرد والتغرب في منفاهم، في بلاد آسيا الوسطى، ومجاهل سيبيريا، أنهم وجدوا أنه قد احتل الروس المغتصبون منازلهم وأراضيهم التي كانت لهم ولأجدادهم منذ قرون، ولا يجدون قوة لاستعادتها، ولا يجدون مالاً كافياً لبناء ما يكنيهم من السكن، فتفرقت بيوتهم الصغيرة، وبعضها من الأخشاب في أطراف المدن والقرى، بعد أن استولوا على أراضيها بالقوة من الحكومة المحلية التي كانت تقاومهم بالبطش والعنف... وهم ينظرون إلى منازلهم وقصورهم ومتاجرهم الجميلة في داخل المدن، يحتلها الأجانب المغتصبون، حتى إن أحدهم يقول: عشنا غرباء في المنفى، وهانحن نعيش غرباء في بلادنا الأصلية.

٤- بلغ عدد المسلمين التتار العائدين إلى بلادهم القرم نحو ثلاثمائة ألف نسمة، وهناك ما يماثل العدد المذكور لا يزال يعيش في المنفى، ومع أن رغبتهم قوية في عودتهم إلى بلادهم الأصلية القرم، وإحياء أمجادهم الإسلامية، إلا أنهم حسبما يفيدون أن البلاد التي يعيشون فيها مثل أوزبكستان وضعت قوانين تعيق خروجهم منها، مثل منع إخراج أموالهم وممتلكاتهم منها، كما أن حكومة أوكرانيا التي تتبعها القريم تمارس شتى السبل الممكنة دون استعادة ممتلكاتهم

٥- رغم الظروف الصعبة التي يعيشها مسلمو القرم، فإنهم يعملون على تقوية كيانهم القومي والإسلامي، بهدف تعزيز وجودهم، وبناء مستقبلهم بهدوء، وبإصرار وثبات.

فالإدارة الدينية الإسلامية التي تنضوي تحتها الجمعيات الإسلامية الفرعية التي تنتشر في أكثر من ١٤٠ مدينة وقرية تعمل على تجميع صفوفها، واستعادة المساجد التي أغتصبها الروس، ويعملون على ترميمها وتعيين الأئمة والمؤذنين، وجمع التبرعات المالية لتغطية النفقات، كما تعمل الإدارة الدينية الإسلامية على توزيع المصاحف، وطبع وتوزيع الكتب الإسلامية، وتنظيم حلقات التعليم وقراءة القرآن الكريم، علاوة على إصدارها جريدة شهرية باسم الهداية باللغتين التتارية والروسية، بهدف التوعية والإرشاد

وكذلك يعمل المجلس الوطني لتتار القرم الذي يرأسه الأستاذ مصطفى عبده جميل على توحيد كيانهم السياسي والقانوني، ومعالجة مشكلاتهم المتنوعة.

التوصيات والمقترحات:

١- إن عودة المسلمين التتار إلى بلادهم القرم التي أخرجهم الشيوعيون منها عن بكرة أبيهم بالقوة، حتى لم يبق مسلم واحد فيها... وإصرارهم على إثبات وجودهم فيها، رغم كل الصعاب والمعاناة، واستعادة مساجدهم وتعميرها بالصلاة والإصلاح والترميم عمل مشكور يبشر بعودة هذا الجزء الإسلامي الذي بتره الروس، باذلين كل جهدهم على ترويسه تماماً، بعد أن تم تفريغه من أهلها

المسلمين. وعلى ذلك فالعمل الإسلامي هناك يستحق كل الدعم والمساعدة مادياً ومعنوياً.

٢- التعليم الإسلامي هو همّ الجميع، ومطلبهم الأساس؛ إذ إن المسلمين جلهم لا يعرفون تعاليم الإسلام، بسبب معاناتهم من الحكم الشيوعي لأكثر من سبعين عاماً، وهم رغم ذلك يقولون إنهم مسلمون، ولكن لا يمارسون شعائر الإسلام إلا نادراً، وعلى ذلك فالحاجة الملحة هي:

- مساعدتهم على إنشاء مدارس تعمل بالمنهج الحكومي، إلى جانب مواد العلوم الإسلامية.
- تعيين الدعاة والمدرسين لإحياء حلقات تعليم القرآن الكريم والدروس الإسلامية في المساجد في العطل الأسبوعية والسنوية.
- توفير منح دراسية لأبنائهم في الجامعات والمعاهد السعودية.
- تنشيط حركة طبع وتوزيع الكتب والمطبوعات والمواد الإسلامية المقروءة والمسموعة باللغتين التتارية والروسية.

٣- توثيق الصلة الأخوية بالجماعات المسلمة من خلال دعوتهم إلى الندوات واللقاءات الإسلامية التي تعقد في مختلف البلدان المسلمة، وتعزيز علاقاتهم بالأمة الإسلامية في المناسبات العامة والخاصة ... وتوجيه الدعوة لأداء فريضة الحج لعدد من زعمائهم وعلمائهم ضيوفاً على رابطة العالم الإسلامي كل عام.

٤- مخاطبة البنك الإسلامي للتنمية، وغيره من المؤسسات الإسلامية

لإنشاء معهد أو مدرسة إسلامية في الأرض التابعة لمسجد توقالة في شارع مالوفانتيان في سيمفربول.

٥- أما بخصوص المبالغ المالية فالوفد يوصي بالآتي:

أ - تخصيص مبلغ مناسب لدعم أعمال المجلس التتاري الوطني، الذي يرأسه الأستاذ مصطفى عبده جميل.

ب- تخصيص مبلغ مالي كافٍ للمساعدة في ترميم وإصلاح مبنى الإدارة الدينية الإسلامية في سيمفربول.

ج- تخصيص مبلغ مالي للمساعدة في ترميم وإصلاح مسجد قارشي في بلدة سكولينا.

د- تخصيص مبلغ مالي مناسب للمساعدة في ترميم وإصلاح مسجد قوت لر في بلدة سكالينا.

هـ- تخصيص مبلغ من المال للمساعدة في استكمال ترميم مسجد الجمعية في اورته محله في بلدة سكالينا.

و- تخصيص مبلغ سنوي لدعم نفقات إصدار جريدة الهداية الإسلامية.

ز- تخصيص مبلغ للإسهام في ترميم مسجد توقاله في شارع مالوفانتيان في سيمفر بول.

ح- إرسال المساعدات المذكورة إلى الجهات المستفيدة بواسطة مكتب الرابطة في روسيا وتكليفه بالمتابعة.

خاتمة:

سبق لي الكلام على أحوال القرم السياسية وما يتعلق من ذلك بالتاريخ في كتاب: ((على مسرح المأساة: بلاد القرم)) المطبوع، ولذلك قلت: إنني لن أتكلم على بلاد القرم ببحث وافٍ عنها في هذا الكتاب، اكتفاء بذلك، غير أنني رأيت أن أنقل هنا نصاً يتعلق بالقرم يوضح أن حكامها كانوا قد تغلبوا على روسيا وجيشها، وأن الروس كانوا يرهبونهم، حتى اختلف أمراء المسلمين وحكامهم في هذه المنطقة الشمالية من العالم الإسلامي، وصاروا يتحاربون فيما بينهم، وبعضهم كان يستعين بالروس على المسلمين، وفي المقابل كان الروس يتحدون ويتقوون بذلك، حتى استطاعوا أن يستولوا على بلاد القرم فيما استولوا عليه من الممالك الإسلامية في الشمال، وهذا النص نقلته من كتاب: ((تلفيق الأخبار وتلقيح الآثار في وقائع قزان وبلغار وملوك التتار))، تأليف الشيخ محمود الرمزي، والشيخ الرمزي من أهل قازان، عاصمة جمهورية (تتارستان) في الوقت الحاضر، كتب كتابه باللغة العربية، وطبعه في مدينة أورنبورغ الواقعة الآن في جنوب جمهورية روسيا الاتحادية، وذلك قبل أن يسيطر الشيوعيون على روسيا؛ إذْ تمت طباعته في عام ١٩٠٧م، وقد عزّ الحصول على نسخة منه، حتى إنها أصبحت كالمخطوطة التائهة التي لا يعرف لها قرار.

لذلك رأيت نقل ما ذكره لهذا السبب بنصه، مع حذف أشياء قليلة من الاستطرادات أو نحوها.

قال الشيخ الرمزي:

ذكر هجوم الضرغامين محمد كراي خان القرمي وصاحب كراي

خان القزاني على الروسية.

قال كارامزين[١]: وبينما يحكم الكيناز واسيلى[٢] بتلك الرؤيا الخيالية، إذ بلغه أن محمد كراي خان اتفق مع طوائف نوغاي ولهستان، وهجم على الروسية بالشدة بغتة، فأرسل عسكر المقاومة تحت قيادة الكيناز بيلسكى والكيناز آندرى أخي الكيناز واسيلى، وكانا غير عارفين بفن الحرب، ولم يطيعا لمن هو عارف به، فلم يلبثا أمام عسكر الخان إلا قليلاً، ثم هربا بمن معهما، وقتل في تلك المعركة الكيناز والاديمير الكوروبى وشرميتف وسائر الشجعان، وأسر فيودر الآبوليني، فتحير الكيناز واسيلى واندهش، فإن صاحب كراي خان القزاني كان قصد الروسية من جهته، فاتحد عسكر قزان بعسكر قرم في قرب قولومنا، فقتلوا وأسروا ونهبوا وخربوا كيف شاؤوا، ولم يصدر في عهد باتو وتوقتامش خان أزيد من ذلك، ولا يعلم عدد القتلى والأسرى إلا الله، وخربوا الكنائس، ونهبوا ما فيها من الفضة والذهب، واستغرقوا في الغنائم، ثم سار العسكر المذكور بهيئتهم الاجتماعية إلى موسقو، فهرب منها واسيلي، وسلمها لختنه المرتد يبطر وشيطان قلي، وذهب إلى بلدة وولوق، فاندهشت أهل موسكو، وزلزلوا زلزالاً شديداً، وطفق من بأطراف موسكو من الروس يهربون إلى موسكو مع أحمالهم وأثقالهم، ولما كان ٢٩ من تموز (يولية) من السنة ٩٢٨ هـ المذكورة، إذ ظهر الخان مع عسكره على مسافة عدة أميال من موسكو، وعسكر فيها، وقد

---

(١) مؤرخ روسي شهير.

(٢) الكيناز: الحاكم الكبير في روسيا، وواسيلي: فاسيلي.

امتلأت أزقة موسكو بالعجلات والأحمال والأثقال والأهالي صغيرهم وكبيرهم في الالتجاء إلى كريمله[1] باكين متدافعين ومتزاحمين، والمطران والقسيسون في طلب النصرة من آلهتهم، حاملين صلبانهم وأصنامهم، وبالجملة كانت أحوالهم أنموذجاً من القيامة، فالتجؤوا لأجل المدافعة عن موسكو لواحد من نمسة، كان عارفاً باستعمال المدفع، وماهراً فيه، ولكن لم يكن له بارود.

ومن طرف آخر وقع الموت بين الأهالي في كريملة من الكثرة والزحام وفساد الهواء، يقول هنا واحد من الأجانب: إن أهل موسكو لما آيسوا من المقاومة أرسلوا إلى الخان سفيراً من طرفهم بهدايا كثيرة وأموال، يسترحمون منه الصلح وترك القتال، على أنهم يؤدون له الجزية كما في السابق، فرضي الخان وكتبوا بذلك عهداً أرسلوه إلى واسيلي للتصديق عليه، فصدق عليه وختمه بختمه بغاية الفرح والابتهاج، فرجع الخان مع عسكره إلى قرم، وتعرض في ممره إلى رزان، فصده عنه واليها خابارسيمسكي مع واحد من نمسة ماهر في استعمال المدفع.

فرجع إلى قرم مسرعاً من غير أن ينتقم منها لأنه سمع أن أهل حاجي طرخان تعرضوا على قرم، فتخلصت الروسية من هذا البلاء العظيم، ولم يؤده شيئاً من الجزية التي التزمها، وأحسن واسيلي بعد رجوعه إلى موسكو من مهربه إلى ذينك المدفعيين النمسويين لتخليصهما الروسية من ذلك الشر العظيم.

---

(١) هي قصر الكرملين المعروف الآن في موسكو.

وكان هجوم التتار[1] هذا مصيبة كبرى في وقت الكيناز واسيلي، فإنهم خربوا فيه جميع البلاد الكائنة بين نيزني نو وغوردو وورونز إلى نهر موسكو بالتمام، قتلوا كثيراً وأسروا كثيراً، وباعوا هؤلاء الأسارى في كفه وحاجي طرخان، وعُدّ بقاء موسكو سالمة من أكبر الخوارق، فعملوا لذلك عيد الصليب، وبنوا مناستر سير يتينا، يعيدون فيه ثلاث مرات في كل سنة للصليب: لسلامة موسكو من هجوم تيمرلنك، وهجوم أحمد خان، وهجوم محمد كراي خان هذا.

وبينما أهل موسكو في هذا الشغل، إذْ سمعوا أن محمد كراي خان أمر بتحشيد الجيش، فاستعد واسيلي أيضاً للقائه، ولكنه لم يهجم، ففرق واسيلي أيضاً عساكره في آغستوس.

قال وفي سنة ١٦٢٢م سنة ٩٢٩هـ هجم محمد كراي خان على مدينة حاجي طرخان، فأخذها من يد حسين خان، فحصل بذلك مقصد محمد كراي خان الذي هو توحيد قرم، وقزان، وحاجي طرخان، وكان يهتم لذلك كثير اهتمام، ومع هذا كان مركوزاً في قلبه أن يضم خانية نوغاي، وخيوه، ودشت قفجق، وسيبريا إلى خانية قرم[2]، ثم محو خانية العجم بالكلية، ثم تهديد أوروبا بعد ذلك، وكان واسيلي مطلعاً على ذلك باليقين، فلو بذل محمد كراي خان أدنى همة وغيرة في ذلك، واتفق مع ليتوا، وجعله معيناً لنفسه، لم تكن أدنى شبهة في تحصيل مرامه ذلك

---

(١) يعني المسلمين.

(٢) لو وحّد تلك الخانيات وضبطها لرضينا عنه أحسن الرضا، وإن لم يضم إليها سواها، ولكن لم يحصل ما تمناه. منه عفي عنه.

بغاية السهولة، حتى في استيلائها على موسكو، ولكنه كان يضيع ما حازه بشجاعته في أقرب مدة لعدم تدبيره.

قلت: نعم الفكر هذا لو تم، فإنه فكر ياوز سليم خان - رحمه الله تعالى - كأنه انعكس منه إليه، ولكنه ما تم، فتم على أهل الإسلام ما تم، ولقد صدق من قال في حق أهل قرم: إنهم وإن استولوا على ما يهجمون عليه ببسالتهم، ولكنهم عاجزون عن ضبط ما يستولون عليه وحفظه، لقلة تدبيرهم ومهارتهم في الضبط والحفظ، وهذه فراسة صحيحة في حقهم، فإنهم كم مرة استولوا على بلاد الروسية ولهستان، ولكنهم لم يقدروا أن يضبطوا واحداً من تلك البلاد، حتى إنهم كسروا الروسية بعد استيلائها على قزان مراراً كثيرة، ولم يستردوا قزان، ولم يكن أحد منهم قط في هذا الفكر، بل كان جل قصدهم من الهجوم عليهم هو جمع الغنائم والتعيش بها، والمدافعة عن بلادهم فقط.

قال كارامزين: ولذلك، أي لأجل كون واسيلي مطلعاً على أغراض محمد كراي خان السابقة، التزم أن ينفصل قزان عن حكومة محمد كراي خان بأي وجه كان، فإن ذلك كسر لأحد جناحيه، يعني أنه كان يغري أمراء قزان بصاحب كراي خان، ويعدهم بمواعيد كاذبة، ويمنيهم بأماني فارغة، يعدهم ويمنيهم، وما يعدهم الشيطان إلا غروراً، حتى ظهر سوء نتيجته بعد مدة بطرد صاحب كراي خان، كما ستطلع عليه.

قال كارامزين: ولما استولى محمد كراي خان على حاجي طرخان في العام المذكور، وسمع ذلك صاحب كراي خان القزاني، قام وقتل سفير الروسية وكافة تبعة الروس، واستولى على أموالهم، ولما بلغ هذا الخبر المرّ الروسية اندهشت جميع الروسية، ولكن لما بلغهم بعيد ذلك قتل محمد

كراي خان بحاجي طرخان أنساهم ذلك مرارة ذلك الخبر السيئ.

وقال الشيخ الرمزي أيضاً:

وقال في الشقائق النعمانية في ترجمة سيد أحمد بن عبد الله القريمي الآتي ذكره: روي أنه لقي السلطان محمد خان يوماً وقد خرج من قسطنطينية متوجهاً إلى أدرنة، فسأله السلطان محمد خان عن أحوال مدينة قريم، فقال: كنا نسمع أن بها ستمائة منتٍ وثلاثمائة مصنف، وأنها بلدة معمورة بالعلم والصلاح.

قال المولى القريمي: وقد أدركت أواخر هذا النظام. قال السلطان: وما كان سبب خرابها ؟ قال: حدث هناك وزيرأهان العلماء فتفرقوا، والعلماء بمنزلة القلب من البدن، وإذا عرضت للقلب أفة سرى النساد إلى سائر البدن، فدعا السلطان وزيره محمود باشا، وحكى ما قال المولى المزبور، وقال: قد ظهر منه أن خراب الملك من الوزير، فقال الوزير محمود: لا بل من السلطان. قال: لمَ؟ قال: لأي شيء استورز مثل هذا الرجل ؟ قال السلطان: صدقت. ا. هـ. رحم الله هؤلاء الأرواح الطاهرات، كيف كان إصغاؤهم إلى قول العلماء، وكيف كان إذعانهم وقبولهم للحق.

ولا تتوهمن أن الكلام في علماء دولة التتار ببلاد الشمال كلها، وهذا بيان لحال مدينة قريم فقط، فيمكن أن يكون ذلك الحال بعد استقلال قريم، لأن هذا توهم باطل، فإن قدوم المولى المذكور إلى بلاد الروم إنما كان في أوائل المائة التاسعة بعد بلوغه مرتبة الكمال والإكمال في وطنه، وفي الوقت المذكور لم تكن القريم مستقلة، وإنما حصل لها الاستقلال بعيد ذلك كما عرفته، ومع ذلك قال: أدركت أواخر هذا

النظام، فأوائله يكون قبله بسنين كثيرة، فكيف يتوهم أن المراد به قطعة قريم، بل المراد جميع الشمالية من السراي والحاجي طرخان وبلغار وأزاق وقريم وسائر البلدان التي كانت تجري فيها أحكام الملوك السالف ذكرهم، وإنما عبر بالقريم لقربها منهم، وهكذا كانت عادتهم، كانوا يعبرون عن جميع تلك البلاد بالقريم[1]، حتى هي - أعني العادة المذكورة - باقية إلى الآن، فاحفظ هذا ينفعك في مواضع شتى فيما سيأتي وغيره أيضاً، وأما التعبير بالمدينة فسبق قلم لا غير، وإلا فلا يتوقف عاقل في اعتقاد استحالة وجود هذا القدر من المفتين والمصنفين في مدينة واحدة، أو ولاية واحدة، أي ولاية كانت، كما لا يخفى.

وبهذا تبين أيضاً كون المراد بقريم كافة حكومة التتار الشمالية المشهورة بمملكة بركة، وأوزبك، ودشت قنجق هذا، فقد بان لك الأمر، وظهر الحال، ولكن من أين نجد تراجم هؤلاء العلماء، ومن أين نطلب أحوال هؤلاء الفضلاء، وياليت بقي لنا اسم واحد من كل مائة، فضلاً عن أحوالهم، فلا جرم نكتفي بذكر أحوال من اطلعنا عليه في بعض الحواشي، ونقنع بالضرورة بتحرير أسماء من عثرنا عليه في بعض الأطراف المثبتة لإزالة الغواشي، ونظهر غاية الآسف على إهمال قومنا تراجم علمائهم، وتضييع جماعتنا مناقب فضلائهم، وقد ذكر ابن بطوطة في

---

(١) حتى قال مترجم رحلة ما غمان الأميركي إلى خيوه في بيان خوانين خوارزم أن خوانين أوزبك كانوا وقتاً ما يعزلون مثل ميخايل الثاني وبوري وديميتري من ملوك الروس، وينصبونهم كيف شاؤو. ا هـ. ولم يدر هذا المترجم أن هؤلاء قتلهم كبير السلاطين السلطان محمد أوزبك خان، وأن العزل والنصب كيف شاؤوا داما مدة سنة ٣٦٠ كما تقدم كله. منه عفي عنه.

رحلته الشهيرة جملة من العلماء والمشايخ الذين لقيهم هناك، فها أنا أنقل عنها بطريق الانتخاب.

قال: ونزلنا يعني بمدينة قريم بزاوية شيخزاده الخراساني، فأكرمنا، ورحب بنا، وأحسن إلينا، وهو معظم عندهم، ورأيت الناس يأتون للسلام عليه من قاض وخطيب وفقيه وسواهم، ولقيت بهذه المدينة قاضيها الأعظم شمس الدين السائلي قاضى الحنفية، ولقيت بها قاضي الشافعية، وهو يسمى بخضر، والفقيه المدرس علاء الدين اللاصي، وخطيب الشافعية أبا بكر، وهو الذي يخطب بالمسجد الجامع الذي عمره الملك[1] الناصر رحمه الله تعالى بهذه المدينة، والشيخ الحكيم الصالح مظفر الدين، وكان من الروم فأسلم وحسن إسلامه، والشيخ العابد الصالح مظهر الدين، وهو من الفقهاء المعظمين، وإمام والي قريم الإمام سعد الدين، والفقيه شرف الدين موسى، والشيخ رجب النهر ملكي، نسبة إلى قريته في العراق، فأضافنا بزاوية له بمدينة آزاق ضيافة حسنة. ا. هـ.

انتهى الكتاب

(١) وقد تقدم منا في أواسط هذا المقصد أنه سبق قلم، بل الصواب الملك المنصور قلاوون، لأنه هو الذي بناه كما تقدم فراجع. منه عفي عنه.

الفهرس